د. جعفر شهيدي

تاريخ الإسلام التحليلي

(حتى نهاية العهد الأموي)

ترجمة
عائد الزين

مراجعة
رياض الأخرس

دار الهادي
بيروت - لبنان

شبكة الفكر
alfeker.net

تاريخ الإسلام التحليلي

حتى نهاية العهد الأموي

جَمِيعُ الحُقوق محفُوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

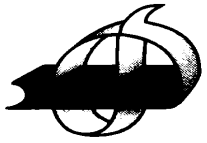

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

تاريخ الإسلام التحليلي

حتى نهاية العهد الأموي

تأليف

د. جعفر شهيدي

ترجمة

عائد الزين

مراجعة

رياض الأخرس

دار الهادي

للطباعة والنشر والتوزيع

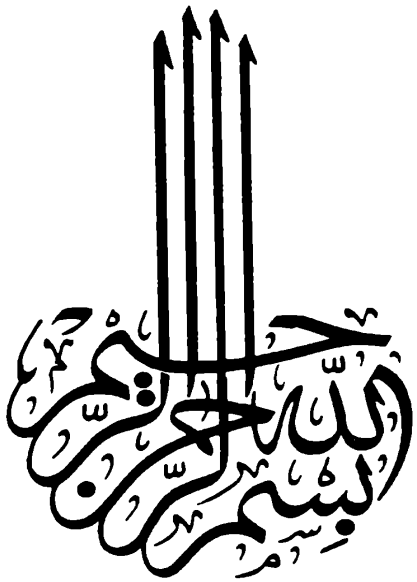
بسم الله الرحمن الرحيم

منذ أن اطلعت علىٰ أصل هذا الكتاب حينما كنت طالباً في الجامعة في مرحلة الليسانس أضمرت في نفسي أن هذا الكتاب يستحق الترجمة، وذلك لما فيه من أفكار جيدة ومنهج قويم في التعامل مع تاريخنا العريق، وكم شعرت بالسرور عندما قام الأخ عائد الزين بترجمته، ولم يلبث سروري أن ازداد عندما منحني شرف مراجعة الترجمة، وتدقيقها ومطابقتها للأصل.

هنا ربما يتساءل البعض ممن يعيش هموم الأمة وآلامها وآمالها أنه ما هي فائدة هذا التوقف عند الماضي والبحث فيه؟ ولا سيما أن الآخرين قد وصلوا إلى المريخ وليس هذا وحسب، بل إنهم بصدد تحويل عالمنا الرحب كله إلىٰ قرية صغيرة، بل إلىٰ كرة يتقاذفونها بينهم كما يحلو لهم، ونحن لا حراك لنا ولا قوة!! ثمّ إذا ما تحركنا نتحرك باتجاه التاريخ والتأمل فيه!!

لا أريد هنا أن أخطىء هذا التساؤل ولا أريد أن أرفضه من أساسه، بل ربما أنني أشارك أصحابه اضطرابهم وأقدر مشاعرهم القلقة من وضع الأمة وحالها ومسيرتها. ولكن أريد أن أقول أن هذا التساؤل يحتاج إلى مزيد من التوضيح والتفصيل وخلاصة ذلك أن الوقوف علىٰ ضفاف التاريخ والتأمل فيه إذا كان لغير

غرض صحيح وسليم، فهو حالة مرضية غير مقبولة، بل ومرفوضة رفضاً قاطعاً! ولكن إذا كان الوقوف هو لأجل غرض صحيح وسليم ومعقول كأن يكون هو المرور ثانية علىٰ تجاربنا وأفكارنا ونظرياتنا ومقبولاتنا ومعلوماتنا كلها بغية البحث فيها عن نقاط القوة لمعرفتها وتحديدها والتمسك بها واختزانها في مسيرة حياتنا المستقبلية سواء علىٰ صعيد المجتمع والأمة أم علىٰ صعيد الفرد ذاته. وفي نفس الوقت معرفة وتحديد نقاط الضعف التي كانت في أسلافنا: سواءٌ في أعمالهم أم في أفكارهم ومنطلقاتهم الفكرية والنظرية أم في غير ذلك. وذلك من أجل تجنبها والابتعاد عنها، وعدم الوقوع في نفس الأخطاء والمطبات التي وقع فيها آباؤنا في الماضي. وكل هذا لا يمكن أن يتأتىٰ إلا إذا رجعنا إلىٰ تاريخنا ودرسناه بتأمل وعمق وتأن وموضوعية وحيادية تامة، وبعبارة ثانية بشكل علمي وأكاديمي بعيد كل البعد عن الآراء المسبقة القبول والصنع، والتي هي من أشد وأخطر الآفات في الفكر الإسلامي علىٰ غناه ووسعة أفقه. ولا بدّ من التأكيد علىٰ نقطة مهمة وهي البحث في تاريخنا الحقيقي الحاصل علي أرض واقعنا، تاريخنا نحن عرباً كنا أم عجماً، تاريخنا لا تاريخ غيرنا كائناً ما كان هذا الغير أوروبة أم أمريكة أم اليابان أم روسية. وأعني ما أقول، فكثير من التأملات والدراسات التاريخية وإن زعم أصحابها أنها دراسات في تاريخ المسلمين إلا أنها في الحقيقة كانت دراسات لتاريخ أوروبة أو روسية أو... بشكل أو آخر. قد لا تكون كما قلنا بشكل مباشر، ولكنها قد تكون بإسقاط أو هوىٰ، وبكلمة أخرىٰ تاريخ فيه كل تاريخ إلا تاريخنا نحن.

كما أننا في دراستنا عن تاريخنا يجب أن ندرس تاريخ أجدادنا نحن كما عاشوه هم، وكما خلقوه، لا كما يفترض أنهم عاشوا، وكيف يفترض و و... وبعيداً عن التأملات الفلسفية البعيدة كل البعد عن تاريخنا نحن، بل وربما كانت بعيدة كل البعد عن عقول أجدادنا وتفكيرهم وخواطرهم ساعة صنعوا التاريخ بأعمالهم وحياتهم وتفكيرهم وبكل نجاحاتهم وإخفاقاتهم وما إلىٰ ذلك.

أعود من جديد لأؤكد علىٰ أهمية الدراسات التاريخية الصحيحة، الصحيحة لا باعتقادي أنا أو باعتقاد فلان، بل الصحيحة علىٰ ضوء المنهج العلمي الأكاديمي المتحرر تماماً من جميع قبلياته، وأحكامه المسبقة، وثقافاته، ومذهبياته، وخرافاته، وأمنياته.

بل وأكثر من ذلك! ربما كان هؤلاء الذين صعدوا إلىٰ «المريخ» وسخروا كثيراً من القوانين والإمكانيات لصالحهم قد انطلقوا أولاً من دراسات تاريخية!! نعم تاريخية! لتاريخ علومهم، لتاريخ أفكارهم، لتاريخ مجتمعاتهم، ولتاريخ كل ما يتعلق بهم ويرتبط بهم، ويؤثر فيهم بشكل أو بآخر، من قريب أو بعيد، فعرفوا نقاط الضعف، ونقاط القوة علىٰ ما هي عليها، لا علىٰ ما يقوله فلان وفلان. نقاط ضعفهم، وقوتهم في كل شيء! ليس فقط في تاريخهم الاجتماعي والسياسي، بل حتىٰ في تاريخهم العلمي والفكري والديني و...الخ؛ ومن معرفة وتحديد التاريخ بدقة متناهية، ولكل ما فيه من نقاط ضعف، ونقاط قوة، ولكل ما فيه من نجاح وفشل. انطلقوا ليتلافوا وليتجنبوا الخطأ والضعف ويزيدوا رصيدهم من نقاط القوة، والتي تراكمت وتجمعت، فخلقت لهم تطوراً وتقدماً في المجالات التي عملوا فيها بهذا الشكل! وليس في كل مجال، إلىٰ أن وصلوا في المجالات التي طبقوا فيها هذا المنهج إلىٰ ما وصلوا إليه من تقدم هائل، ومتسارع، ومتزايد تماماً كالمتوالية الهندسية.

ولا أراني ملزماً بأن أزيد ما ذكرته توضيحاً وتفصيلاً، ولكن أكتفي بمثال بسيط وبدائي، وهو أن أول خطوة في معالجة المرض ليست أن يعيش الطبيب والمريض علىٰ أوهام وأحلام في العافية والقوة والعظمة، وما إلى ذلك، بل الخطوة الأولىٰ و«الصحيحة» هي أن يتعاون الاثنان علىٰ التأمل الدقيق في وضع المريض، وتاريخه الصحي، وما جرى له في السابق بشكل صحيح وموضوعي، وذلك من أجل تشخيص المرض بدقة مع الاستعانة بالتحاليل والصور و...الخ، وهذه كلها نوع من الدراسات العلمية الموضوعية والحيادية تماماً، وبعد هذه الجهود يمكن للطبيب أن

يشخص المرض بدقه ويحدد أسبابه، ثم طرق علاجه والوقاية منه مستقبلاً.

يُتصور أن عمل المؤرخ تماماً يجب أن يكون بهذا الشكل! بحثٌ، تأمل، موضوعية، حياد، استنتاج، تنظير ومراجعة!

وأما هذا الكتاب فباختصار يمكن القول أنه راعىٰ كثيراً من مراحل وخطوات البحث العلمي، ولا أقول أنه راعىٰ كل شيء وجميع ما فيه صواب فهذا يحتاج إلىٰ دراسات تالية تتأمل ما فيه بعين النقد العلمي، والعلمي فقط! ولكنه وصل إلىٰ أفكار وآراء، أقل ما يقال في حقها أنها إن لم تكن صحيحة، فهي جديرة بالدراسة والتأمل والبحث، ومن باب المثال لا الاستقصاء والاستقراء أذكر بعض الأفكار الجديرة بالتأمل:

١. دور التنافس اليماني العدناني في مسيرتنا، وتاريخنا، ونجاحنا وهزائمنا.

٢. سر أفول نجم الدولة الأموية في مدة قصيرة جداً نسبياً.

٣. خطورة بعض البدع التي ارتكبت من قبل بعض الحكام، وتم الترويج لها أحياناً باسم نفس الدين! والسكوت أمامها، وما تركته من أثر تدميري علىٰ المشروع الديني الإسلامي منذ ذلك الحين وحتىٰ يومنا هذا.

٤. مدىٰ إمكانية الاعتماد علىٰ مرويات ونقول القرنين الهجريين الأول والثاني ومدىٰ إرائتها للحقيقة والواقع، والبدائل المنهجية الممكنة.

وعشرات الأبحاث، والأفكار الأخرىٰ القيمة، والتي توزعت علىٰ مطاوي الكتاب، وأبحاثه المتسلسلة.

وأما عن منهج الترجمة فكان بودي أن يتحفنا المترجم بكلمة يحدثنا فيها عن منهجه في الترجمة إلا أنه اعتذر عن ذلك بسبب كثرة مشاغله وانهماكه في التحضير لامتحان جامع في فرعه، وإلحاح الناشر علىٰ الإسراع بإعداد الكتاب ليرىٰ طريقه إلىٰ النور، وليسد نقصاً حاداً في دراسات تاريخية جادة في هذا المجال تعاني منه المكتبة العربية، ولتسريع الاستفادة من الكتاب بالنسبة للقراء العرب، ولا سيما

الأكاديميين والطلاب.

وأما عن دوري في التدقيق والمراجعة فقد قارنت الأصل مع الترجمة في كل عبارة، بل وأحياناً في كل كلمة كنت أحتمل في حقها عدم مطابقتها للأصل، وبذلت وسعي لكي تكون الترجمة مطابقة تماماً، بل وفي بعض الأحيان ولا سيما بالنسبة للنقول المأخوذة من أمهات المصادر والمراجع الإسلامية والتي هي باللغة العربية حرصت علىٰ استعمال نفس الكلمات والجمل الأصلية، وعلىٰ الإتيان بها كما هي في الأصل، لا أن تترجم ترجمة، حتىٰ وإن زاد ذلك من صعوبة الترجمة لصعوبة وجدان الأصل في كثير من الأحيان. ولكن مع كل هذا حرصت كل الحرص علىٰ الإتيان بنفس الأصل، ولا سيما في المواضع التي جعل المؤلف والمترجم فيها أقواس نقل القول. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١/١٠/٢٠٠٠ رياض الاخرس

الفصل الأول

موقع شبه الجزيرة العربية الجغرافي
وأوضاعها الاجتماعية و السياسية قبل الإسلام

موقع شبه الجزيرة العربية الجغرافي

شبه الجزيرة العربية هي البلاد الواقعة في أقصىٰ الجنوب الغربي من آسيا والتي هي مستطيل غير متساوي الأضلاع.

تنبسط شمالاً علىٰ درجات العرض الواقعة بين ١٢ و ٣٢ وشرقاً علىٰ درجات الطول الواقعة بين ٣٥ و ٦٠ بين أفريقيا وجزء كبير من آسيا.

تبلغ مساحتها ٢٦٠٠٠٠٠ كيلومتراً مربعاً.[١]

يحدها شمالاً الأردن والعراق، وشرقاً الخليج وبحر العرب، وجنوباً خليج عدن، وغرباً البحر الأحمر.

وكما نرىٰ فإن الماء يحيطها من جوانب ثلاثة مشتملاً علىٰ بحار خمسة[٢]، ولا تحدها اليابسة إلا من الشمال فقط ومع ذلك فإنها تعاني من شح في المياه التي جعل الله منها كل شيء حي.[٣]

تفتقر هذه المنطقة المترامية الأطراف إلىٰ نهر يساعد في التنقل، ونقل البضائع، والنهر الوحيد الذي يجري في أراضيها هو النهر الكائن في وادي حجر (في اليمن)

١- ذكر في بعض الكتب أن مساحة شبه الجزيرة العربية تناهز ٣٦٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع وذلك إذا أضفنا عليها مساحة كل من الدول التالية: الأردن، سورية، لبنان، فلسطين.

٢- وهي بالترتيب من الشرق إلىٰ الغرب: الخليج، بحر عمان، بحر العرب، البحر الأحمر، البحر الأبيض المتوسط الذي تطل عليه الدول التالية: سورية، ولبنان، وفلسطين.

٣- ﴿وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حي﴾ (الأنبياء/٢١: ٣٠).

والذي لا يزيد طوله عن مائة كيلومتر.

وتؤلف السلسلة الجبلية الشاهقة التي تبدأ من شبه جزيرة سيناء ثمّ تمتد موازية للبحر الأحمر حتىٰ الخليج سوراً مرتفعاً يحيط بهذه المنطقة.

ويتخلل هذه الجبال وديان كثيرة من أهمها: سِرْحان، رُومَّه، دَواسِر، حَضرَمَوتْ، وكان بعضها كوادي سرحان مثلاً يستخدم كطريق تجاري في عصور ما قبل الإسلام.

وأما سواحلها فإنها تعاني - عدا بعض المناطق - من وجود الاسفنج والموانع الطبيعية التي تمنع السفن من التوقف فيها.

ستواجهون موانع وحواجز أخرىٰ داخل هذه البلاد بعد عبور تلك الجبال الراسخة المحيطة بها: فبادية الشام تمتد شمالاً من حدود فلسطين إلىٰ الجنوب الغربي من العراق، تليها جنوباً بادية أخرىٰ تسمىٰ النفود تنتشر علىٰ سبعين ألف كيلومتراً مربعاً ومغطاة برمال ناعمة.

يؤدي هبوب الرياح إلىٰ تشكل الكثبان الرملية ونقلها من مكان إلىٰ آخر وهذا بدوره يجعل من شق الطرق فيها -ولا سيما في الماضي- أمراً مستحيلاً، وفي الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة العربية هناك الرُّبْعُ الخالي[1] والذي لا يزال خالياً حتىٰ الآن، وتصل مساحته إلىٰ ٥٠٠,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويعتبر من أوسع صحاري العالم الجافة والخالية.

هناك بادية أخرىٰ تقع بين الربع الخالي والنفود تسمىٰ الدهناء وهي مليئة بالكثبان الرملية.

ظلت شبه الجزيرة العربية لآلاف السنين تقبع في الظلام والنسيان بسبب هذه

١- يقرؤه البعض بالفتح ولكنه خطأ وهو يعادل بالإنجليزية تركيب **(Empty quarter)**، وعلىٰ ما يبدو فإن اسمه القديم كان (رمله).

الحواجز والموانع الطبيعية.

بدون شك لو لم يظهر الإسلام في هذه المنطقة، ولو لم ينتقل منها إلىٰ بقاع الأرض الأخرىٰ لظلت شبه الجزيرة العربية تعيش في حالة من الانزواء وعدم الاهتمام من قبل الآخرين، ومع ذلك لا ينبغي أن نظن بأنه لم تبن في هذه المنطقة أي حضارة قبل الإسلام- وكما سنكتب لاحقاً- فإن القسم الجنوبي منها قد شهد ازدهاراً حضارياً، وكان مركزاً لدول كثيرة أسست في هذه المنطقة، وكذلك فإن الدلائل تشير إلىٰ وجود مراكز حضارية أخرىٰ (على الرغم من كونها ناقصة) في هذه المنطقة.

يسمىٰ سكان هذه المنطقة بالعرب، وأما فيما يتعلق بمعنىٰ هذه الكلمة ومتىٰ أطلقت لأول مرة علىٰ هؤلاء القوم، ومن أين أتىٰ العرب إلىٰ هذه المنطقة، فهناك اختلاف كبير في هذا الأمر بين علماء الأنساب والأعراق، فالقصص التي تتحدث عن مرحلة ما قبل ظهور الإسلام المدونة بعد ظهوره، والتي أطلق عليها فيما بعد كلمة "التاريخ" تنسب العرب إلىٰ يَعرب بن قحطان وسُمي أبناؤه بالتالي بالعرب.

أورد ابن النديم البغدادي وهو أحد علماء القرن الرابع الهجري في كتابه القديم الفهرست عن ابن أبي سعد قائلاً: حينما نظر إبراهيم﴿عليه السلام﴾ إلىٰ أبناء إسماعيل الذين كانوا مع أخوالهم من الجراهمة سأل إسماعيل:

- من هم هؤلاء يا إسماعيل؟

- إنهم أبنائي وأخوالهم من الجراهمة.

فقال إبراهيم ﴿عليه السلام﴾ بلغته السريانية القديمة التي كان يتكلم بها (أعرب له) إمزجهم مع بعض.(١)

كذلك وردت كلمة العرب في الآثار المنقوشة المتبقية عن الملك الآشوري "شلمنصر" الثالث (٨٢٤- ٨٥٩م) وفي الكتب التي تحدثت عن معاركه في بادية

١- الفهرست: ٨.

الشام.[١]

ويرىٰ بعض المستشرقين الغربيين المعاصرين كلمة العرب مشتقة عن كلمة بمعنىٰ الحركة والعبور[٢]. ولأن العديد من هذه الوجوه الاشتقاقية مبنية علىٰ الحدس والظن أو منبعثة عن تعصب والبعض الآخر لم يؤيد من قبل المحققين والباحثين نصرف النظر عن كتابة ذلك. ومن المسلم أن كلمة العرب في القرآن الكريم أطلقت علىٰ كل من كان يعيش في شبه الجزيرة العربية.

تطلق هذه الكلمة علىٰ سكان الحضر والمدن، وأما أولئك المنتشرون في البادية والصحراء فيسمون بالأعراب والواحد من العرب عربي، ومن الأعراب أعرابي.

لقرون عدة قبل الإسلام كان سكان شبه الجزيرة العربية يقسمون إلىٰ مجموعتين: العرب العاربة أو الخالصة والعرب المستعربة. فكان سكان جنوب شبه الجزيرة العربية وبناءاً علىٰ ما كان في حوزتهم من كتب في الأنساب يرون أنهم يعودون إلىٰ يعرب بن قحطان ويعتبرون قحطان الابن الخامس لنوح﴿عليه السلام﴾. بينما تعتبر القبائل المتمركزة في وسط وشمال شبه الجزيرة العربية نفسها بأنها تعود إلىٰ عدنان حفيد إسماعيل﴿عليه السلام﴾.

وقد أطلق المؤرخون القدماء علىٰ القحطانيين اسم العرب العاربة، وعلىٰ العدنانيين العرب المستعربة والداخلة[٣].

اتصفت العلاقة بين القحطانيين والعدنانيين بالعدائية والمنافسة منذ قديم الزمان، واعتبر كل منهما الآخر أذل وأدنىٰ منزلة، وبعد هجرة الرسول﴿صلى الله عليه وآله﴾ أصبح القحطانيون والعدنانيون إخوة ببركة الإسلام، ولكن مع الأسف لم يدم ذلك

١- دائرة معارف مصاحب. ذيل كلمة عرب.

٢- ساندرز: ص ٣.

٣- مروج الذهب، ج ١، ص ٣٠٠؛ الفهرست، ص ٨.

طويلاً.

ذكر علماء الأنساب العرب أيضاً العرب البائدة والتي تشمل قبائل: عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وأميم، وجاسم، وعبيل.

التقسيمات الجغرافية

تقسم شبه الجزيرة العربية بناءاً علىٰ التضاريس الجغرافية أحياناً، وبحسب الظروف الإقليمية أحياناً أخرىٰ وقد قُسّمت إلىٰ خمسة أجزاء بناءاً علىٰ التقسيم الأول:

١- تهامة: وهي المنطقة الممتدة بين ينبع[١] علىٰ البحر الأحمر وحتىٰ نجران، وقد أطلق عليها هذا الاسم لشدة حرّها وانعدام هبوب الرياح فيها.

٢- الحجاز: وهي تعني لغوياً المانع والحاجز، وسُمّيت بالحجاز لوقوعها شمال اليمن وشرقي تهامة، فهي تفصل هاتين المنطقتين عن بعضهما البعض. يتألف الحجاز من وديان متعددة وسلاسل جبلية يبلغ ارتفاع بعضها أكثر من ألفي متر.

٣- نجد: والتي تمتد من اليمن جنوباً وحتىٰ بادية السماوة شمالاً، وقد أطلق عليها هذا الاسم لارتفاعها النسبي.

٤- اليمن: والتي تمتد من نجد وحتىٰ المحيط الهندي في الجنوب، وغرباً حتىٰ البحر الأحمر.

٥- العروض: والتي تعنىٰ المانع والحاجز، وتشمل اليمامة وعمان والبحرين، وسميت بذلك لوقوعها بين اليمن ونجد والعراق.

١- قلعة كثيرة الينابيع والنخيل، تقع في تهامة بين مكة والمدينة (معجم البلدان).

ويعتمد التقسيم الآخر المتداول علىٰ الشروط الإقليمية وتوفر أو عدم توفر الظروف المساعدة للحياة الاجتماعية، والتي تؤثر بشكل مباشر علىٰ سكان هذه المنطقة.

كما قلنا سابقاً فإن جنوب شبه الجزيرة العربية هو المكان الوحيد الذي يتمتع بتوفر المياه والأمطار المنتظمة، لذلك يمكننا أن نقول أن الوضع الجغرافي هو الذي يتحكم في الحياة في شبه الجزيرة العربية، والوضع الجغرافي يرتبط بدوره بوجود الماء أو عدم وجوده.

شح الماء وكثرته هو الذي يميز نوعي حياة الإنسان والحيوان وحتىٰ النبات عن بعضها البعض في المنطقتين الجنوبية والشمالية، ففي الجنوب وبسبب توفر مياه الأمطار بشكل منظم هناك أراضٍ زراعية، وزراعة مزدهرة، وكثافة سكانية ولحاجة هؤلاء السكان إلىٰ مكان إقامة ثابت نشأت القرىٰ والمدن وانتشرت بكثرة.

تجمع الناس في المدن والقرىٰ سيؤدي بدوره إلىٰ نشوء روابط وعلاقات متبادلة لضمان حياة الإنسان واستقرارها، وبالتالي ستؤدي هذه الروابط والمعاملات إلىٰ وضع قوانين ومقررات - ولو كانت بسيطة وبدائية - وكما نعلم فإن القانون وتأسيس الدولة أمران متلازمان، ولذلك نرىٰ بأن دول وحكومات كثيرة وحضارات متعددة قد تعاقبت في جنوب شبه الجزيرة العربية قبل مئات السنينن من ميلاد السيد المسيح ﴿عليه السلام﴾.

احترف سكان الجنوب الزارعة والتجارة، واشتهرت المنطقة الجنوبية بخيولها وبالكندر (وهو مادة رائحتها زكية) المستخدم في معابد مصر القديمة وأوربا.

ونرىٰ بأن الأمور الثلاثة التي ذكرناها تعد دليلاً علىٰ الرفاه النسبي. بينما يفتقر داخل الجزيرة إلىٰ الماء الكافي -كما سنقول ونذكر لاحقاً- ولذلك ترىٰ الناس يتنقلون من جهة إلىٰ أخرىٰ ومن طرف إلىٰ آخر بحثاً عن الماء.

ومن الطبيعي أن لا ينشأ مكان إقامة ثابت في ظروف كهذه، أي أنه وبحكم

الضرورة يجب أن يكون مأواهم خفيفاً وقابلاً للانتقال، ويجب الاستفادة من وسيلة قوية للنقل والانتقال، وهكذا فإن فقدان مكان الإقامة الثابت وابتعاد الناس وحرمانهم من الحياة الاجتماعية أدىٰ إلىٰ عدم ظهور أي علامة تدل علىٰ وجود حضارة أو حكومة والتي هي من ضرورات الحضارة والمدنية، وأيضاً من الطبيعي في ظروف كهذه أن يكون وضع الحيوانات والنبات متأثراً بالبيئة وخصوصاً عدم توفر المياه.

يطلق علىٰ سكان هذه المنطقة لقب البدو[١]، والحيوان المشهور فيها هو الجمل القادر علىٰ العيش لمدة سبعة عشر يوماً بدون ماء، ولو نفذ ماء صاحبه في الصحراء لذبحه، وشرب الماء المخزن في داخل جوفه، وتبلغ سرعة الجمل في المسافات الطويلة ثلاثة أضعاف سرعة الحصان، ويتمكن كذلك من حمل مائة وسبعين كيلو غراماً.

ويستطيع البدو العيش بعدة تمرات أو نوياتها أو قليل من الطعام. ولذلك قالوا: البدوي كائن يتطفل علىٰ الجمل، والجمل سفينة الصحراء. ونبتته النخيل الذي له قدرة كبيرة علىٰ مقاومة الجفاف، وغذاء الجمل الرئيسي هو تلك الأشواك الكبيرة التي تنمو في الصحاري.

المنطقة الجنوبية ودولها

عندما يبحث المؤرخون في تاريخ شبه الجزيرة العربية يولون القسم الجنوبي أهمية أكبر من الشمال والصحراء ويقدمونه عليها وسبب هذا التقديم هو أن تاريخ هذه المنطقة منذ الألف الثاني قبل الميلاد وحتىٰ ظهور الإسلام كان حافلاً بالتغييرات

١- الصحيح في تلفظها البَدَوِي نسبة إلىٰ البَدْو، والبدو الصحراء والبادية لكن العامّة تتلفظها "البَدْو".

والتبدلات ولذلك لها تاريخ يتمتع بتحول وتبدل كبيرين بينما لا نرىٰ أي تحول أو تبدل يذكر في المناطق الجافة وغير الآهلة بالسكان، بل كان تاريخها رتيباً يرافقه تحول بطيء للغاية.

لو نظرتم إلىٰ خارطة شبه الجزيرة العربية سترون مثلثاً في أقصىٰ جنوب هذه الجزيرة، يؤلف ساحل بحر العرب ضلعه الشرقي وساحل البحر الأحمر ضلعه الغربي. ولو رسمنا خطاً بين جيزان[١] (في الغرب) وحتىٰ وادي حضرموت (في الشرق) لكي يكون هذا الخط ضلع المثلث الثالث سنكون قد رسمنا حدوداً لمنطقة كانت تسمىٰ في الماضي اليمن السعيد.

وكما قلنا سابقاً فإن هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية قد شهد ومنذ عدة قرون قبل الميلاد حكومات متعددة، وأقيمت عليه دول كثيرة ولكن وضع هذه الحكومات وتاريخها لم يتضح بشكل كامل، فالمصادر التي اعتمد عليها المؤرخون كانت ترجع إلىٰ المؤرخين القدماء وتفتقد إلىٰ المصداقية العلمية، ولكن ومع بزوغ القرن التاسع عشر والقرن العشرين أدّت أبحاث العلماء ورحلات السياح وجهود المؤرخين إلىٰ كشف تاريخ هذه المنطقة، وتحديد أسماء الدول والحكومات التي نشأت فيها إلىٰ حدٍّ ما. ومن أهم الدول التي قامت فيها دولتا سبأ ومعين وكذلك دولتا قتبان وحضرموت.

قامت دولة معين بين عامي ١٢٠٠ و ٦٠٠ قبل الميلاد، وعاصمتها قَرْنو، وقد اتسعت سلطتها التجارية حتىٰ شملت الخليج ووصلت إلىٰ البحر الأبيض المتوسط.

ودولة قتبان وعاصمتها تَمْنَع أيضاً هي إحدىٰ الدول التي قامت في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية بجوار حضرموت وقد أسست في الألف الأول قبل الميلاد (في

١- كتبت في بعض الخرائط (ظهران) وهي تختلف عن مدينة الظهران الحالية التي تعد المركز الرئيسي للنفط في شبه الجزيرة العربية.

القرن السادس ق.م تقريباً) واستمرت إلىٰ قرنين بعد ميلاد المسيح﴿عليه السلام﴾ ولكن بعض المحققين أشاروا إلىٰ أنها انقرضت قبل الميلاد بمدة قصيرة (٥٠ ق.م).

ومع كل المحاولات والأبحاث التي بذلها العلماء لكشف تاريخ ملوك هذه السلسلة ولكن لا يزال هناك مجال للبحث. والمعروف بأن الذي أسقط دولة قتبان هم السبئيون. وقد كشف علماء الآثار من خلال النقوش الحجرية الموجودة في المنطقة بأن ملوك قتبان وسبأ قد اشتهروا بلقب "مُكَرّب" ويحتمل بعض المحققين بأن كلمة مكرب في اللهجة الجنوبية تعني "مقرب" بلهجة أهل الشمال، وبناءاً علىٰ هذا التقريب يحتمل المحققون بأن يكون لهؤلاء الملوك نوعاً من السلطة الدينية والسياسية الممزوجة والتي زال جانبها الروحي فيما بعد. ويبدو أنه كانت للناحية الروحية والسماوية أهمية خاصة في البداية عند أهل الجنوب.

ظهرت دولة سبأ في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية وعاصمتها مأرب، وقد بسطت نفوذها وسلطتها من الشرق إلىٰ الغرب أي من ساحل الخليج وحتىٰ البحر الأحمر. حينما بدأت دولة معين بالانهيار والزوال سطع نجم دولة سبأ وتغلبت على دولة معين.

وأمّا الدولة التي نشأت في حضرموت فعاصمتها "شَبوه" وقد اشتهرت هذه الدولة بالغنىٰ والثروة لاشتغال أهلها بتجارة الـ"الكندر".

وقد عاصرت دولة معين، ويقال أنها كانت تحت تسلطهم ونفوذهم، وانهارت هذه الدولة في السنة الـ ٣٠٠ بعد الميلاد.

تعد دولة سبأ أهم دولة بين هذه الدول التي أسست جميعها في جنوب شبه الجزيرة العربية حيث كان لها القدرة والنفوذ الأكبر بين هذه الدول.

استطاعت دولة سبأ بقدرتها السياسية والعسكرية أن تبسط سيطرتها علىٰ كل الدويلات الجنوبية وتضمها إليها وتبسط نفوذها إلىٰ أفريقية أيضاً.

حكم السبيئون هذه المنطقة لتسعة قرون متوالية تقريباً، وبسطوا سيطرتهم علىٰ

المنطقة واستولوا علىٰ الطريق التجاري الواصل بين المحيط الهندي والبحر الأحمر وراحوا ينقلون توابل الهند وحبوب اليمن المعطرة (الكندر) عن طريق المندب إلىٰ البحر الأحمر ومنه إلىٰ خليج العقبة فالبحر الأبيض المتوسط.

استمرت دولة سبأ حتىٰ سنة ١١٥ قبل الميلاد. وقد ورد اسمها في سورتين مختلفتين في القرآن الكريم: في سورة النحل مرة، وفي سورة سبأ مرة أخرىٰ. امتزجت القدرة في دولة سبأ من البداية وحتىٰ القرن الرابع قبل الميلاد بين الروحانيين (رجال الدين) والملوك، وكما ذكرنا سابقاً كانوا يطلقون علىٰ أولئك الحكام لقب "مُكَرَّب."

وحاكم سبأ الذي ذكر في القرآن هو امرأة قيل في كتب التاريخ والأدب الإسلامي أن اسمها بلقيس، ولكن القرآن عبّر عنها بلفظ "امرأة"، وعندما وصلت رسالة سليمان﴿عليه السلام﴾ إليها ذهبت إليه.

﴿فَمَكَثَ غَير بَعيدٍ فَقال أَحَطتُ بما لم تُحط به وجئتكَ مِن سبأ بنبإ يقين إنّي وَجَدتُ امْرأةً تَملكُهمُ وَأُوتيت مِن كُلِّ شيء وَلها عَرْش عظيم﴾[١]

وجاءت إشارة إلىٰ حادثة السيل الذي ألمّ بدولة سبأ في سورة سبأ:

«لَقَدْ كانَ لِسَبأٍ في مَسْكَنهمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمين وَشِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْق رَبِّكُمْ وَاشْكُروا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبةٌ وَربٌّ غَفُور فَأَعْرَضُوا فأَرْسَلْنا عَليْهم سَيْلَ الْعرِمِ وبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتيهِم جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْط وَأَثْلٍ وَشيءٍ مِنْ سِدْرٍ قَليلٍ»[٢]

١- النمل/ ٢٧: ٢٣ - ٢٤.

٢- سبأ/ ٣٤: ١٥-١٦.

سقوط السبئيين وظهور الحميريين

بعد موت الإسكندر قام أحد قادته بتشكيل دولة في مصر، وحكم خلفاؤه الذين عرفوا بـ "البطالسة" أو "البطليميسيون" هذه المنطقة لمدة من الزمن واستولوا فيما بعد علىٰ الطريق التجاري الذي كان تحت سيطرة السبئيين. سوء أوضاعها التجارية من جهة وازدياد مشاكلها الداخلية من جهة أخرىٰ أدىٰ إلىٰ تعرض أمنها للخطر إلىٰ أن انهارت في سنة ١١٥ قبل الميلاد، ووصل الحميريون إلىٰ السلطة، وهم قوم من جنوب شبه الجزيرة العربية كانوا يحكمون "ظفار" وكان نفوذهم محدوداً في البداية ويقتصر علىٰ منطقة محدودة في شبه الجزيرة، ولكن سرعان ما وَسَّعوا نفوذهم وبسطوا سيطرتهم علىٰ المناطق الأخرىٰ.

تعتبر دولة حمير باعتبار ما كامتداد لدولة سبأ تقريباً، ولذلك يرىٰ بعض المؤرخين بأن حكومتهم تعتبر الفترة الثانية من حكم السبئيين. تقسم فترة حكم الحميريين إلىٰ قسمين: تمتد الفترة الأولىٰ من سقوط السبئيين وحتىٰ السنة ٣٠٠ بعد الميلاد. واستمرت الفترة الثانية إلىٰ تاريخ استيلاء الحبشيين علىٰ هذه المنطقة.

اشتهر حكام الفترة الأولىٰ في دولة حمير بملوك سبأ و"ذو ريدان" وهو اسم يشمل حكومة قتبان وحمير.

وظهر في القرن الثالث الميلادي ملك عربي شجاع واسمه شمر يوحاريش استولىٰ علىٰ منطقتي حضرموت واليمن وبذلك بدأت الفترة الثانية من حكم دولة حمير.

وفي القرن الرابع الميلادي أعلن أبو كرب أسعد نفسه ملكاً على منطقتي طود وتهامة أو البلاد العليا والسفلىٰ.

دامت سلطة دولة حمير التي كان ملكها يُسمىٰ تُبَّع[1] حتىٰ بداية القرن السادس

١- وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم مرتين: مرة في سورة الدخان/٤٤: ٣٧، ومرة في سورة ق/٥٠: ١٤.

بعد الميلاد (٥٢٥) حيث استولىٰ الحبشيون عليها.

واجه الحميريون في بداية تشكيل حكومتهم (كالسبئيين) منافسة الروم ورغبتهم في التسلط والتوسع حيث كانوا يوسعون سيطرتهم علىٰ المناطق شيئاً فشيئاً. وكانوا يرغبون بالاستيلاء علىٰ الطريق التجاري الذي يربط الهند بإفريقية الشرقية والسيطرة علىٰ بلاد البخور حيث كان البخور سلعه تجارية مميزة ومزدهرة في ذلك الوقت.

هاجم آليوس غاليوس جنوب شبه الجزيرة العربية في سنة ٢٤ أو ٢٥ قبل الميلاد واستطاع الوصول إلىٰ مأرب في غضون أيام، ووصل حتىٰ وادي نجران ولكن بسبب عدم توفر المياه والمشكلات الأخرىٰ التي ألمت بجيشه أجبر علىٰ الانسحاب ومع أن هذا القائد الرومي لم يستطع أن يسيطر علىٰ دولة حمير ولكنه لفت أنظار إحدىٰ جيرانها الأقوياء وهي دولة الحبشة، وقد استطاع الحبشيون بعد حملات متعددة ومستمرة احتلال الأجزاء الساحلية لليمن بين أعوام ٣٢٠- ٣٣٠ بعد الميلاد.

وفي أواسط القرن الرابع أرسل وفد من قبل الإمبراطور وقام هذا الوفد بتأسيس كنائس في ظفار وعدن وبذلك بدأت المسيحية بالتوغل في شبه الجزيرة العربية وبنت علاقات قوية بين أباطرة روما وملوك الحبشة.

كان الأباطرة يهدفون من إقامة هذه العلاقات أمرين:

الأول: هو الاستفادة من تجارة الجنوب.

والثاني: تحريض الحميريين علىٰ مواجهة الملوك الساسانيين الذين كانوا في حرب شبه مستمرة مع الروم.

وتزامناً مع بناء الكنائس وانتشار المسيحية ازداد عدد المهاجرين اليهود وخصوصاً بعد انهيار اورشليم حيث لجؤوا إلىٰ جنوب شبه الجزيرة العربية.

وفي القرن السادس الميلادي وصل ذو نواس الذي يلقبه المؤرخون العرب

بـ"زُرعة بن تبّان" إلىٰ السلطة في دولة حمير، وانتخب لنفسه اسم يوسف، واعتنق اليهودية وبذاك بدأ انتشار اليهودية في مواجهة المسيحية في هذه المنطقة، وشرع ذو نواس بإيذاء المسيحيين ويقال أنه أباد مسيحيي نجران بشكل جماعي حيث أشعل النيران في حفر متعددة وراح يقذف بكل من لا يترك المسيحية فيها، وقد أشير إلىٰ هذه الحادثة في الآيات ٤-٨ من سورة البروج المباركة ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾.

أرسل الحبشيون الذين كانوا يراقبون الوضع عن كثب جيشاً مجهزاً لقتال "ذو نواس" اجتهاداً منهم أو بإشارة من الإمبراطور الروماني قسطنطين، وهزم ذونواس سنة ٥٢٥ ميلادي وقتل. وبذلك انتهىٰ حكم الحميريين وتسلطهم علىٰ جنوب شبه الجزيرة العربية وسيطر الحبشيون علىٰ أنحاء المنطقة بأسرها. وبعد مدة ثار أحد القادة الأحباش ويدعىٰ أبرهة، وأعلن استقلال هذه المنطقة، وحكمها بشكل مطلق لمدة ٣٥ عاماً (٥٣٥ - ٥٧٠ م)، وشرع أبرهة بالترويج للمسيحية، ومنع العرب من زيارة مكة، فبنىٰ معبداً كبيراً في صنعاء، ويقال أن رجلاً من بني مالك بن كنانة نقض حرمة ذلك المعبد وأهانها، فغضب أبرهة، وأقسم أن يهدم الكعبة، فتوجه بجيش كبير مجهز بالفيلة إلىٰ مكة، ولكن غضب الله نزل عليه وعلىٰ جيشه، وراحت طيور الأبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، فقضي عليهم وتشتتوا[1]، ويسمىٰ ذلك العام في التاريخ الإسلامي بعام الفيل، وسنتكلم عنه لاحقاً في وقته.

طلب الحميريون المساعدة من الملك الساساني أنوشيروان لأنهم لم يكونوا راضين عن حكم الأحباش، فأرسل أنوشيروان جيشاً بقيادة وهرز الديلمي عام ٥٧٠ للميلاد إلىٰ اليمن، فاستطاع هذا الجيش إلحاق هزيمة نكراء بمسروق بن أبرهة آخر أمير من هذه السلالة، وتولىٰ رسول كسرىٰ الملك والسلطة، وقد تناوب علىٰ

١- الفيل / ١٠٥.

الحكم بعده ابنه مرزبان ومن ثم نوشجان وبعده باذان.

ذكر ابن هشام: أسلم باذان عند بعثة الرسول ﷺ وأسلم كذلك[١] كل الايرانيين الذين كانوا برفقته، وبعد ذلك لم يشهد جنوب شبه الجزيرة العربية أي دولة كبيرة حتىٰ ظهور الإسلام.

وتسلم في تلك الفترة عدة رؤساء محليين إدارة أمور أجزائها، وقد سمي كل جزء منها بمخلاف، ومن بين هؤلاء الحكام كانت قبيلة كنده التي استطاعت أن تشكل سلالة حاكمة، وهم من الجنوب، ويعتبرون من القحطانيين، وشكلوا لأنفسهم حكومة في الناحية الغربية من حضرموت، وكان حجر بن عمرو أول ملك مشهور من هذه السلالة والذي اشتهر بلقب آكل المرار.[٢] وقد ازدادت قدرتهم تدريجياً وراحوا يسيطرون علىٰ المناطق الأخرىٰ إلىٰ درجة أن ابن حجر ويدعىٰ الحارث استولىٰ لمدة قصيرة علىٰ مملكة قباد ولكنه تراجع عنها في عهد أنوشيروان.

حكومات شمال شبه الجزيرة العربية

قامت دول عديدة في شمال و شمال غربي شبه الجزيرة العربية قبالة ساحل البحر الأبيض المتوسط نظراً لما تتمتع به هذه المنطقة من وفرة في المياه، وغزارة في الأمطار وبسبب موقعها الجغرافي والتجاري الهام، فالجزء الواقع بين خليج العقبة ووادي عربة كان تحت سلطة الأنباط. ويقال أنهم أتوا إلىٰ هذه المنطقة من بوادي شبه الجزيرة العربية في القرن السادس قبل الميلاد، وأسسوا دولة هناك بعد سقوط

١- السيرة النبوية، ج١، صص ٧٣-٧٤.

٢- المرار هو نبات مرّ الطعم، وعندما تأكل الناقة منه تتقلص مشافرها، وقد لقب بذلك لحصول نفس الأمر معه.

بابل، ووصلت دولتهم إلىٰ ذروة قوتها في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد (سنه ٣٢٠) إثر قيام الإسكندر بالقضاء علىٰ سلطة دولة سبأ البحرية حيث استطاعوا السيطرة علىٰ الطريق التجاري المار بوادي سرحان.

كانت البتراء مركز حكومتهم وهي كلمة يونانية تعني الصخر، وقام النبطيون بحفر بيوتهم في قلب الجبال، وسميت بذلك لهذا السبب، ويقال أن اسمها العربي حِصن السَّلع، وماتزال آثار البيوت في وادي موسىٰ على قمّة جبل هارون قائمة حتىٰ اليوم، وهي جزء من أراضي الأردن في عصرنا هذا، واستمر حكم الأنباط حتىٰ بداية القرن الثاني الميلادي إلىٰ أن ضمّها إمبراطور روما إلىٰ امبراطوريته عام ١٠٦ بعد الميلاد، وكما ذكرنا فإن البتراء كانت مركزاً تجارياً هاماً في فترة حكومة الأنباط القوية، ونقطة اتصال الطريق التجاري الواصل بين الخليج والبحر الأبيض المتوسط.

تدمر مكان البتراء

في القرن الثالث الميلادي ونتيجة الحروب التي نشبت بين الملك الساساني والإمبراطور الروماني، وبسبب تدخل الحبشة في شؤون جنوب شبه الجزيرة العربية بدأ تردد السفن في المحيط الهندي يقل عما كان من قبل، وبذلك ظهر طريق تجاري بري ينافس ذلك الطريق البحري ويمتد عبر صحاري شبه الجزيرة العربية، وراحت أهمية هذا الطريق تتعاظم شيئاً فشيئاً، وبذلك احتلت بالميرا -والتي تسمىٰ بتدمر أيضاً- مكان مدينة البتراء.

تدمر

كانت تدمر والتي لا تزال آثارها قائمة حتىٰ يومنا هذا شمال شرقي دمشق بـ ٢٢٥ كيلومتر من المراكز المهمة التي يعبر منها الطريق التجاري في ذلك الزمان، ومن المعروف أن نبي الله سليمان عليه السلام هو الذي بنىٰ هذه المدينة، وعلاوة علىٰ الأهمية التجارية لهذه المدينة فإنها تتمتع بموقع عسكري هام، وهذا ما لفت أنظار الروم والفرس إليها والتي ما لبثت أن وقعت تحت سيطرة الروم.

وفي القرن الثالث الميلادي قام قائد تدمر ويدعىٰ أذينة بطرد الفرس من سورية وآسية الصغرىٰ، وبذلك قدم خدمة كبيرة للروم، وبعد أن أسر والرين علىٰ يد الملك الساساني(٢٦٠م) أصبح نائب الإمبراطور في مناطق الروم الشرقية وأسس دولة واسعة تشمل ما بين النهرين وسورية وجزء من آسيا الصغرىٰ وتمتد حتىٰ مصر. وبعد موت أذينة وصلت زوجته زنوبيا أو زباء إلىٰ السلطة وقد قامت هذه الملكة في عام ٢٧٠ ميلادي بصك نقود باسم ابنها، ولكن أورليانس الذي وصل إلىٰ السلطة في روما لتوه هاجم تدمر (٢٧٢ م)، وقد أسرت زنوبيا وأرسلت إلىٰ روما وماتت هناك وبذلك فقدت تدمر رونقها وازدهارها السابقين.

التغيير في الجنوب

عمّ الاضطراب جنوب شبه الجزيرة العربية بسبب انهيار سد مأرب من جهة، ونشوب النزاعات الداخلية التي أشرنا إليها من جهة أخرىٰ، فتراجعت الزراعة وراح الخطر يهدد التجارة وراح جيران الجنوب يحاولون السيطرة علىٰ كنز هذه المنطقة وهو البخور.

أدت هذه الاضطرابات إلىٰ هجرة ورحيل السكان من هذه البلاد وتوجههم إلىٰ مناطق أخرىٰ.

توجه بعض سكان الجنوب شمالاً واستوطنوا قرب حدود الإمبراطورية الرومية

حيث تبدو المنطقة مناسبة للعيش، وانتقلت مجموعة أخرىٰ نحو الحدود الشرقية واستقرت قرب المناطق الخاضعة للإمبراطورية الساسانية ولأن حمل الأمتعة بحرياً يعد أمراً في غاية الخطورة فقد ظهرت الطرق البرية وراح الجمل والحصان ينوبان عن السفينة ونتيجة لذلك ظهرت التجمعات البشرية علىٰ طول هذا الطريق الطويل، وراح سكان الخيام ومربوا المواشي يتجهون إلىٰ تلك المناطق، وبدلاً من تربية المواشي راحوا يشتغلون بنقل الأمتعة والبضائع، أو يقومون بهداية القوافل، ونتيجة لهذا التغيير وسقوط الدول الكبيرة في الجنوب تعاظمت قوة البعض في هذه المنطقة، وكذلك المهاجرون في الشرق والشمال إلىٰ درجة أنهم قاموا بتأسيس بعض الدول هناك، ولأن الصراع كان علىٰ أشده بين الروم والفرس في ذلك الزمان فقد انخرطت تلك الدويلات الصغيرة في الدخول تحت حماية إحدىٰ هاتين الدولتين العظيمتين.

والدول التي أسسها المهاجرون هي دول الغساسنة، واللخميين، وكندة، وقد وقع الغساسنة تحت حماية الروم، بينما قبع اللخميون في ظل حماية الفرس، وراح الحميريون يدعمون كندة ويحمونها، وكان مدىٰ قوة هذه الدول وازدهارها يتناسب مع القوىٰ التي تقوم بحمايتها.

الغساسنة

يطلق علىٰ هذه القبيلة أيضاً لقب آل جفنة نسبة إلىٰ كبيرهم وقد هاجروا من اليمن إلىٰ الشمال، واستوطنوا قرب حدود الإمبراطورية الرومية، ويقال أنهم قد توجهوا في البداية إلىٰ مكة، ومن ثم تابع بعضهم مسيره ورحلته إلىٰ بادية الشام، ونزلوا قرب عين ماء تسمىٰ غسان، ولذلك اشتهروا بالغساسنة، وفي أيامهم الأولىٰ في شمال شبه الجزيرة العربية كان يتبعون قبيلة تسمىٰ سَليح ولكنهم ما لبثوا أن تغلبوا

عليها، وحصلوا علىٰ اعتراف الروم بكيانهم، وراح الغساسنة يساندون الروم في حروبهم مع الفرس، ويحاربون اللخميين الذين كانوا علىٰ علاقة جيدة بالفرس.

ازدهرت دولة الغساسنة في عهد الإمبراطور الروماني قسطنطين الذي جعل من حارث بن جبلة -وهو أمير من أمراء الغساسنة- ملكاً وكان هدفه من ذلك تقوية الغساسنة في وجه اللخميين.

ظلت دولة الغساسنة قائمة إلىٰ أن بدأت الفتوحات الاسلامية في الشمال والتي نتج عنها سقوط سورية في أيدي المسلمين وبعد معركة اليرموك وهزيمة الروم انقسم الغساسنة إلىٰ فريقين أحدهما أبدىٰ تعاونه مع المسلمين والآخر فرّ إلىٰ أرض الروم وآسيا الصغرىٰ.

اللخميون أو المناذرة

اللخميون أو المناذرة نسبة إلىٰ آخر ملوكهم، ومنذ أواخر القرن الثالث الميلادي بسطوا سيطرتهم علىٰ الحيرة والأراضي المجاورة لها، وقد ساند ملوك الحيرة الدولة الساسانية في حربها ضدّ الروم.

وكما يظهر فإن سكان الحيرة هم من المهاجرين الذين أتوا من الجنوب أي من القحطانيين، ولكن بعض العدنانيين أيضاً يسكنون هذه المنطقة.

راح نفوذ المناذرة يتسع شيئاً فشيئاً ليشمل المناطق المجاورة كوادي الفرات، كما أنهم توغلوا داخل شبه الجزيرة العربية.

في الحقيقة فإن الحيرة تشكل سداً بين الصحراء والمناطق الخاضعة لنفوذ الفرس، وبذلك فإن ملوك الحيرة كانوا يمنعون سكان الصحاري من التوغل في ايران من جهة، ويساندونهم من خلال قتالهم مع الغساسنة حلفاء الروم من جهة أخرىٰ.

ظلت هذه الدولة قائمة حتىٰ بداية القرن السابع الميلادي. ومن ملوكها المشهورين النعمان بن امرىء القيس الذي وصل إلىٰ السلطة في بداية القرن الخامس الميلادي، وهو الذي شيّد قَصرَي سدير وخُوَرْنَق، وكان النعمان علىٰ صداقة ومودّة حميمة مع الملك الساساني يزدجرد أبي بهرام، ويقال أنه بنىٰ هذين القصرين من أجل بهرام كي تكون أماكن راحة واستجمام له، ومن المعروف أنه قتل باني هذين القصرين وهو "سنمار" لكي لا يطلع أحد علىٰ سرّهما المعماري. ويعد النعمان بن المنذر آخر ملوكها المشهورين، ويقال أن الملك الساساني "خسرو پرويز" قد استدعاه إلىٰ بلاطه وصبّ جام غضبه عليه، وأرداه قتيلاً، وفي رواية أخرىٰ يقال أنه قتل في البحرين، وعلىٰ كل حال ومع ظهور الإسلام لم يبق لهذه الدولة أية قوة أو قدرة، وقد تزامنت فترة حكم النعمان بن المنذر مع وصول خالد بن الوليد إلىٰ الحيرة.

سكان البادية

ذكرنا بأن جنوب شبه الجزيرة العربية كان مزدهراً وآهلاً بالسكان لما تتمتع به هذه المنطقة من هطول أمطار موسمية منتظمة وأراض زراعية واسعة، وهكذا انتشرت المدن في هذه المنطقة، بينما كانت الصحراء والمنطقة الشمالية مناطق خاوية، قليلة السكان، ولكن لا يعني هذا بأنها تخلو من أي تجمع أو أثر لتمدن ما، فقد استوطن الكثيرون علىٰ سواحل البحر الأحمر وفي نجد حيث تكثر المياه الجوفية. ففي الحجاز مثلاً بين درجات العرض ٢٠ و ٣٠ شمالاً بنيت مدينة يثرب، والتي ما لبث أن تغير اسمها إلىٰ مدينة النبي أو اختصاراً "المدينة" ولما فيها من قنوات ومياه جوفية وأراض زراعية فقد استوطن الكثير من الناس فيها، وفي أقصىٰ الشمال نستطيع رؤية تبوك ودومة الجندل، وكذلك هناك مدينة مكة قرب البحر الأحمر

والتي سنتحدث عنها لاحقاً. وسوىٰ هذه المدن والبلدان الصغيرة تشكل الصحراء القسم الأكبر من مساحة شبه الجزيرة العربية.

تظهر في فصل الشتاء أو الربيع غيوم محملة بالأمطار قادمة من البحر المتوسط ومتجهة نحو هذه الصحاري الواسعة مسببة إيجاد بعض السيول الكبيرة التي تتخذ طريقها إلىٰ الوديان، وهكذا تكتسي بعض المناطق حلة خضراء، وتعلوها الأعشاب، وأحياناً تمر سنوات عديدة دون أن يهطل فيها قطرة مطر واحدة.

تصل درجة الحرارة في هذه المناطق أحياناً إلىٰ ٥٠ درجة مئوية من شدة الحرّ والقيظ في فصل الصيف، ولكنّ لياليها تتميز باللطافة والمناخ الملائم، ويظهر الثلج أيضاً علىٰ قمم سلسلة جبال شَمَّر[١] في بعض الأحيان.

وهكذا كانت حياة سكان الصحاري مليئة بالمصاعب والمتاعب ويسمىٰ في العربية الرائجة من يقطن الصحراء من العرب البَدْو.

هؤلاء وبسبب انقطاعهم عن العالم الخارجي ظلت طريقة حياتهم ومنذ قديم الزمان علىٰ حالها دون تغيير يذكر.

يبقىٰ هؤلاء بجانب عين الماء أو الينبوع الذي تملكه القبيلة من الشهر الثاني في الربيع وحتىٰ شهر الخريف الثاني، وبمجرد هطول المطر ينطلقون إلىٰ الصحاري للبحث عن الكلأ والأعشاب الشوكية الجديدة النمو، ولهذا السبب ظلّ مركز وشمال شبه الجزيرة صحاري واسعة قليلة السكان بينما يتمتع المثلث الجنوبي بكثافة سكانية عالية.

في ظل حياة كهذه لا معنىٰ لبناء البيوت والاستقرار فيها، فبيت البدوي يجب أن يكون خفيفاً سهل الحمل والتنقل كلما أراد ذلك، حيث يقتلعه عن الأرض ويحمله

١- شمر منطقة في جنوب صحراء نفود، من مدنها المشهورة حائل. وتتألف من سلسلتي أُجا وسلمىٰ، ويبلغ ارتفاع أعلىٰ قمة في جبل أجا ١٤٠٠ متر.

إلىٰ مكان آخر لبنائه من جديد. وتصنع هذه الخيام من صوف الماعز وعدة فروع من النخل.

ولأن البدوي في حالة تنقل دائم فهو يسعىٰ في تنقلاته هذه لحمل الأشياء الضرورية فقط كالخيمة، وهي مكان نومه وسكونته، ولوازم البيت، وهي عبارة عن: قِربة الماء، وقدر كبير للتسخين، وبعض المأكولات، وأحياناً فراش خشن، وكذلك بعيره الذي يترتب عليه حمل الأمتعة، وكذلك بعض الخراف إن وجدت لديه. وكانت المرأة هي التي تتحمل القسط الأكبر من عبء هذه الحياة الثقيل. وأما بالنسبة للأبناء فإن البدوي كان يفضل الذكر علىٰ الأنثىٰ وهذا أمر طبيعي في ذلك الزمان فالولد قادر علىٰ حراسة الناقة ومساعدة والده، وفي المستقبل سيكون مقاتلاً يحمي أسرته من الأعداء بينما لا حول ولا قوة للأنثىٰ في هكذا ظروف بل ينبغي حمايتها والدفاع عنها هي الأخرىٰ. ولذلك لم يكن هؤلاء يحبون الإناث وعندما كان يبشر أحدهم بالأنثىٰ كان يغوص في حزن وأسىً وفي القرآن الكريم ما يدل علىٰ ذلك:

﴿وإذا بُشّر أحدهم بالأنثىٰ ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارىٰ من القوم من سوء ما بُشّر به أيمسكه علىٰ هون أم يَدسّه في التراب، ألا ساء ما يحكمون﴾[1]

ولهذا الحزن سبب آخر أيضاً هو أن حياة هؤلاء البدو قبل الإسلام -وكما سنذكر لاحقاً- مليئة بالحروب والمنازعات، والمنتصر في هذه الحروب كان يقوم بأسر النساء والفتيات، وهذا الأمر كان سبباً لتحقير المغلوب، لأن نقاءه وصفاءه العرقي قد تدنس وتلاشىٰ، فالعرب -وكما نرىٰ في كتب الأنساب- يولون هذه القضية أهمية

١- النحل/ ١٦: ٥٨-٥٩.

كبيرة، ويسعون للحفاظ علىٰ أنسابهم ليبينوا بأن سلالاتهم نقية وصافية من دنس الغرباء، وعرقهم ما زال سالماً.

كما ذكرنا فإن البدو في حالة تنقل وحركة دائمة سعياً وراء الماء، وكذلك فإن المرأة والأبناء أيضاً يرافقون الرجال في هذا التنقل، ولأن الصحراء حافلة بالمخاطر والمصاعب والموانع فإن أسرة بمفردها غير قادرة علىٰ مواجهة هذه الأخطار المحتملة فتضطر بعض الأسر إلىٰ التنقل بشكل جماعي، وهذه الأسر ترتبط ببعضها بنسب أو بسبب ما، كأن يكونوا أخوة، أو أبناء عم، أو أن يكونوا علىٰ قرابة زوجية ما مع بعضهم البعض، وهكذا ينشأ ما يسمىٰ بالقوم، وهم مجموعة من الأفراد ذوي روابط معينة تحكمهم، وأما القبيلة فتنشأ من عدة أقوام.

يسبق اسم القبيلة عادة كلمة بنو كأن يقال: بنو حرب، بنو تيم، بنو عدي، وعادة ما لا يقبل البَدَوي أبداً أية سلطة أو قدرة خارج القبيلة.

وعادة ما يقود القبيلة في التنقل والاستقرار ويقوم بحل كل مشاكلها واختلافاتها قائد يسمىٰ بـ «الشيخ»، وهو عادة أكبر من الآخرين وأكثر سناً، ويُدير الشيخ قبيلته بناءًا علىٰ العادات والتقاليد الموروثة. وينبغي أن يتمتع الشيخ بكافة الشروط والصفات اللازمة لهذا المنصب كالشجاعة والكرم والجرأة والحرص علىٰ ممتلكات القبيلة وأفرادها، وبيده أمر التحكيم في الخصومات، والأمر بالقتال والانضمام إلىٰ قبيلة أخرىٰ، أو الانفصال عن قبيلة ما، إلىٰ درجة أن للشيخ سلطة تامة في تثبيت أمر ما، أو رفض أمر آخر، فلو قبل الشيخ أمراً أو قانوناً ما فعلىٰ الجميع أن يقبلوا ذلك.

ونشير إلىٰ أنه ومع ظهور الإسلام زالت هذه الأمور القبلية كالكثير من الأمور الأخرىٰ إلىٰ درجة أن أفراد بعض القبائل كانوا يدخلون في الإسلام مع أن شيوخهم كانوا يمتنعون عن ذلك.

إن استمرار الحياة في هكذا ظروف تحتاج وتتطلب صراعاً مع الإنسان والطبيعة

والذي سيؤدي بدوره إلىٰ نزاعات دائمة حتمية.

تؤلف المواشي كالأغنام والجمال رأس مال البدوي، بينما يعتبر الماء والكلأ والمرعىٰ أساس حياته، وكما ذكرنا سابقاً فإن الصحراء تفتقر إلىٰ الماء والعلف المطلوب من الجميع، ولذلك وللحصول علىٰ ذلك لا مفرّ من الصراع والمواجهة، ومنذ قديم الأيام فإن غزو القبائل لبعضها البعض، والاستيلاء علىٰ ممتلكاتها كان أمراً عادياً، حيث يظهر لنا التاريخ الكثير من النزاعات والخصومات التي نشأت واشتعلت لأمور تافهة وجزئية واستمرت لسنين طويلة.

وللمزيد من الاطلاع علىٰ هذه المنازعات والخصومات وأسبابها ونتائجها يمكن الرجوع إلىٰ الكتب التي تتحدث عن «أيام العرب» ونشير هنا كمثال علىٰ ذلك إلىٰ حرب "البسوس" بين تغلب وبني بكر.

هاتان القبيلتان فرعان من قبيلة ربيعة، وامتدت الحرب بينهم أربعين سنة، وسبب هذه الحرب أن ناقة إحدىٰ هاتين القبيلتين رعت في مراعي القبيلة الأخرىٰ دون إذن.

ونظم العرب أشعاراً وألفوا حماسات متعددة يفخرون بها ويعتزون ويصفون هذه المنازعات والحروب قبل الإسلام وتناقلوها من جيل لآخر (وهو أحد الأسباب التي أدت إلىٰ ازدهار الشعر وشيوعه بين العرب، وأدىٰ إلىٰ تقوية الشعر الحماسي).

ولأن ابن الصحراء يعيش في محيط وبيئة سالمة فقد كان يتمتع بجسم سالم وصحة جيدة ومن جهة أخرىٰ كان يرىٰ نفسه حراً لا يقيده أي قانون أو حكم. وهو حر وأناني ومتكبر يرنو إلىٰ حياة المدينة وعاداتها وقوانينها بنظرة المهمل وغير المهتم ولو اضطر إلىٰ المجيء إلىٰ المدينة لأيام معدودة تجده يحن للجلوس في ظلال الخيمة في الصحراء.

الخلية الحياتية الأولىٰ بالنسبة له هي الأسرة، ومن ثم الأقارب ذوي النسب الواحد الذين عاشوا في مكان واحد وانتقلوا مع بعضهم من مكان إلىٰ آخر.

كان البدوي يحترم كل ما يتعلق بالبدو، ويهب للدفاع عن ذلك سريعاً، والسبب الوحيد في هذا الدفاع والتعصب هو تلك الرابطة النسبية أو السببية، وغالباً ما لا يلتفت البدو إلىٰ حقيقة الآخر أو يسأل مع من الحق: هل هو مع القريب أم عليه؟ بل كان هذا الدعم غالباً يفتقد إلىٰ الموضوعية، وهناك مثل عندهم يقول:

«أنا وأخي علىٰ[1] ابن عمي، وأنا وابن عمي علىٰ الغريب»

والكثير من القبائل القحطانية والعدنانية كانت علىٰ نزاع وخلاف فيما بينها وكانت تعيش حالة حرب بينها ولكن بمجرد تعرض إحدىٰ هاتين القبيلتين الكبيرتين لهجوم من جهة ثالثة ينسىٰ الجميع فيهما العداوات والنزاعات ويهبون لمقاتلة العدو المهاجم. فمثلاً ربما كانت همدان وقضاعة في نزاع مستمر يمتد لسنين طويلة، ولكن لو قامت ربيعة بمهاجمة إحدىٰ هاتين القبيلتين لنسيت هاتان القبيلتان حروبهما السابقة، وتكاتفتا واتحدتا في مواجهة ربيعة، وهذه هي نفس الحمية التي يعبر عنها القرآن بالحمية الجاهلية:

«إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية...»[2]

كان تحمل هذه الحياة في الصحاري الجافة والمحرقة يعلم ويلقن الخشونة والقسوة، ولو واتت الظروف المساعدة لتجلت هذه القسوة بحقيقتها.

هذه القسوة والحدة هي صفات البدوي وابن الصحراء الطبيعية. وهناك علامة

١- أي: ضدّ.

٢- الفتح /٤٨: ٢٦.

بارزة أخرىٰ عند هؤلاء القوم، وهي الإيثار والتضحية تجاه أولئك الذين ينضمون إليه ويطلبون منه ذلك فيسعىٰ لحمايتهم والدفاع عنهم ويضحي بنفسه أحياناً في سبيل ذلك. وأحياناً تصل هذه التضحية إلىٰ حد الجنون، ويقال في الأمثلة العربية: «أحمىٰ من مجير الجراد» وفي بيان قصة هذا المثل روي أن رجلاً خرج من خيمته في صباح أحد الأيام فرأىٰ جماعة محملة ببعض أدوات الصيد تتجه نحو خيمته، فسألهم ما تريدون؟ فقالوا: جراد وقع بفنائك فجئنا لنأخذه، فركب الرجل فرسه، وأخذ رمحه، وقال: والله لا يعرضنّ له أحد منكم إلا قتلته!! إنكم رأيتموه في جواري ثمّ تريدون أخذه؟! فلم يزل يحرسه حتىٰ حميت عليه الشمس وطار، فقال: شأنكم الآن فقد تحول عن جواري.

في القرن الخامس الميلادي وبعد أن انتاب شبه الجزيرة العربية تحولات وتغييرات عديدة من الناحية الاجتماعية - وقد أشرنا إلىٰ ذلك سابقاً- فإن تغييراً وتحولاً ملموساً طرأ علىٰ حياة هؤلاء القوم أيضاً فتغير طريق القوافل أدىٰ إلىٰ ظهور العديد من المدن والتجمعات السكنية الجديدة وأدىٰ ظهور هذه المدن إلىٰ جذب سكان البادية إليها فانخرط الكثير منهم في العمل في هذه المدن وتولىٰ آخرون منهم أمر حماية الطريق التجاري وإيصال أموال التجارة إلىٰ الموانىء. وكان لمهارتهم في ركوب الخيل كل الأثر في هداية القوافل وإرشادها وكما أشرنا في الفصل السابق فإن لتدهور الزراعة في الجنوب بسبب انهيار سد مأرب أثر هام على الوضع العام لشبه الجزيرة العربية، ولكن في نفس الوقت حافظت المناطق الساحلية من الخليج وحتىٰ ميناء غزة وخليج العقبة علىٰ أهميتها التجارية، وعلىٰ طول هذا الشريط الممتد وأينما توفرت الشروط المناسبة والملائمة راحت تنتشر التجمعات السكنية، كما قامت مجموعات من المسيحيين بالتوجه نحو حران بينما أقام اليهود في يثرب وانصرفوا إلىٰ الزراعة.

الدين والمعتقدات

كان لعبادة الأجرام السماوية في الجنوب كالقمر والنجم والشمس شيوعاً ملحوظاً وقد أشير في القرآن الكريم إلىٰ عبادة الشمس عن قوم سبأ[١] كما أن هذه العبادة كانت شائعة في شمال شبه الجزيرة العربية أيضاً.

كان البدو بشكل عام يعبدون الأصنام، ولم يتركوا عبادتها حتىٰ بعد انتقالهم إلىٰ المدن واستقرارهم فيها، ولم يكن لكل أصنام القبيلة معبد خاص. وبعض القبائل نصبت أصنامها في أماكن معينة وراحت تزورها وتطوف حولها وكانت تصنع هذه الأصنام عادة من الخشب والحجارة وأحياناً من التمر وكان يستفاد منها عند الضرورة! وقد ذكر في القرآن الكريم عدة أصنام ومنها:

اللات: وهو صنم كان موجوداً في الطائف عند بني ثقيف.

العزّىٰ : يروي الكلبي أن عبادته بدأت بعد اللات بمدة.

مناة : الذي كان له احترام خاص عند الأوس والخزرج.

ود : وهو صنم بني كلب.

سواع : وهو صنم هذيل وكان موجوداً في ينبع.

يغوث : وهو صنم بني مذحج.

يعوق: وهو صنم خيوان في صنعاء.

نسر : وهو صنم حمير.

كما أن لقريش أصنام عديدة انتشرت في الكعبة وأطرافها وأكبرها هو هُبَل.[٢]

وللكلبي رواية عن عبادة الأصنام عند العرب نوجزها بما يلي:

١- سورة النمل /٢٧: ٢٤.

٢- الأصنام، ص ٩.

كلّما مرت قافلة بمكة كانت تحمل معها قطعة حجرية من أحجار الحرم ليطوفوا حولهاليتذكروا الكعبة، وكانوا يقدسون ذلك، ثمّ من عبادة هذه الحجارة انطلقوا لعبادة أشياء أخرىٰ.(١)

وقد روي أن عمرو بن لُحيّ قد تعلم عبادة الأصنام من أهل الشام، وقد جلب معه صنماً من هناك ووضعه في الكعبة. فإن كان ما ذكره الكلبي في الجملة صحيحاً فإنه يشير إلىٰ أن منشأ عبادة الأصنام يعود إلىٰ أقوام معينة ولا يشير إلىٰ ذلك عند كل العرب، فلم يكن العرب جميعاً يأتون إلىٰ مكة، ولو فرضنا أنهم كانوا يأتون جميعاً فلم يحمل الجميع معهم حجارة من الحرم ففي ذلك الوقت كان لعبادة الأشجار والقمر والشمس والنجوم انتشار بين سكان الصحراء أيضاً، ويجب القول بأن البدو كان يعبدون بعض الأشياء التي يعتبرون أن فيها خيراً وبَرَكة، أو أنهم كان يجسمون تلك الأشياء بناءاً علىٰ رؤيتهم البسيطة عنها وقد كانوا يظنون ويعتقدون بأن الأشياء الأخرىٰ لها علاقة بالشر أيضاً. كان الجن في تصورهم مصدراً للضر والأذىٰ والشر وإن كان بعضهم يعتبره مفيداً وجيداً، فقد زعم بعض شعراء العرب بأن لديهم جناً يذكرهم بأشعارهم ويحفظهم إياها.

وقبل الإسلام كان للأديان السماوية الأخرىٰ -كما ذكرنا- اليهودية والمسيحية والزرتشتية أتباع في شبه الجزيرة العربية أيضاً كما كان دين ماني معروفاً أيضاً وربما كان بعض الأفراد في الحجاز يتبعونه أيضاً.

دخلت المسيحية إلىٰ جنوب شبه الجزيرة العربية عن طريق الحبشة، وأما في الشمال فيقال أن قبائل تغلب وقضاعة وغسان التي كانت علىٰ علاقة جيدة بالإمبراطورية الرومية هي القبائل الأولىٰ التي انجذبت نحو المسيحية ولقرب الحيرة من إيران كان للزرتشتية أتباع كُثر فيها ولكن بعض المسيحيين أيضاً كانوا يقيمون

١- الأصنام، ص ٦.

فيها وكما يروي الكلبي فإن الكثير من العرب قبل الإسلام كانوا يتوجهون إلىٰ مكة لأداء مراسم الحج، وكانوا يؤدون طقوس الحج والعمرة والوقوف في عرفات، والنحر أيضاً.[١]

وكان العرب يعتبرون أن أشهر ذي القعدة، وذي الحجة، ومحرم ورجب هي من الأشهر الحرام فكانوا يمتنعون فيها عن الاقتتال فيما بينهم.

ومع اقتراب ظهور الإسلام ظهرت في مكة وخارج مكة مجموعة لا تعترف بعبادة الأصنام وتركت سفك الدماء والظلم جانباً ولم تعترف بالأديان السماوية الأخرىٰ في ذلك الزمان أيضاً، وكان أتباعها يعبدون الله الواحد فقط، ولم يكن لهم دين معين وهؤلاء هم الذين وصفهم المتكلمون الإسلاميون بالحنفاء[٢] ومفردها حنيف وتعني الشخص الذي يرجع عن دين الباطل، وأما في القرآن الكريم فأينما ذكرت هذه الكلمة فهي تدل علىٰ الأشخاص الذين بقوا علىٰ فطرة إبراهيم وملته.

نقل ابن هشام بعض الأبيات عن زيد بن عمر بن نفيل يعبر فيها عن اعتقاده بالله الواحد وبراءته من اللات والعزىٰ ويندد فيها بهذين الصنمين وبقية الأصنام الأخرىٰ[٣] فإن كانت هذه الأبيات صحيحة فيمكن اعتبار زيد من الحنفاء، ويقال أن رسول الله طلب المغفرة له.

ولكن نوع هذه الأشعار التي نقلها ابن هشام تختلف عن الشعر العربي الجاهلي كل الاختلاف، والمطلع علىٰ هذا الفن يدرك بسهولة بأن هذه الأشعار قد نظمت بعد الإسلام.

١- الأصنام، صص ٦-٧.

٢- لمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع إلىٰ مقالات الحنفاء في الملل والنحل للشهرستاني.

٣- السيرة، ج ١، ص ٢٤٤.

القانون والدين في مكة

كان قانون مدينة مكة يتشكل من تلك العهود والمواثيق والأحلاف التي تعقدها القبائل مع بعضها، وفي ظلها تحترم حقوق القبيلة و أتباعها في مقابل القبائل الأخرىٰ، ولكن لو عاش أحدهم من دون الانتساب إلىٰ أي من هذه القبائل فلا يوجد أي قانون يحميه من الظلم والظلمة.[١]

مكة واكتسابها للمركزية

بعد تدهور الأوضاع في جنوب شبه الجزيرة العربية وتشتت أهله وبعد أن ازدهر الطريق التجاري العابر للصحراء أصبحت مكة من الأماكن التي تجذب الناس للاستقرار والاستيطان، فقرب مكة من البحر الأحمر، ووقوعها علىٰ الطريق التجاري الواصل بين بلاد الشام وفلسطين من جهة، واليمن من جهة أخرىٰ، ولكن فضلاً عن موقعها التجاري هناك عامل آخر زاد من أهميتها من خلال جذب الناس من كل أنحاء شبه الجزيرة في موسم معين من السنة.

نعرف أن الكعبة تقع فى مكة، وهي مكان مقدس منذ آلاف السنين قبل الاسلام ويذكر هنا القرآن الكريم أن إبراهيم عندما استوطن مع أهله في أرض عديمة الماء والنبات خاطب ربه قائلاً:

﴿رَبَّنا إنِّي أسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتي بِوادٍ غير ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِك الْمُحَرَّم ربَّنا لِيُقيمُوا

١- طي فترة الشباب من عمر الرسول الأكرم﴿صلى الله عليه وآله﴾ وبحضوره تمّ تعهد أيضاً بحماية الناس من خارج مكة، وسنوضح ذلك في الصفحات التالية.

الصَّلٰوة فَاجْعلْ أفْئِدَةً مِنَ النّاس تَهْوِي إِلَيهْم﴾[١]

وطلب من الله أن يجعل مكة:

﴿ربّ اجعل هذا بلداً آمِناً وارزق أهله مِن الثمرات مَن آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾[٢]

ومنذ زمان إبراهيم أصبحت الكعبة مكاناً لعبادة الله الواحد وازدادت أهمية هذه المنطقة ولكن كيف كان الناس في ذلك الزمان يعيشون فيها؟ وكيف كانت عبادتهم؟ ما زال الجواب عن هذين السؤالين أمراً غامضاً.

نستطع القول أن تاريخ مكة واضح من جهتين: بداية ذلك كما يخبرنا القرآن الكريم، والقرن الذي يسبق ولادة الرسول الأكرم كما ذكر في تاريخ العرب، ومن المسلم أن مكة كانت مدينة آهلة بالسكان منذ القرن الخامس والسادس الميلادي فقربها من البحر الأحمر ساعد علىٰ وصل الطريق التجاري من أفريقية وحتىٰ سورية في الشمال.

وممّا زاد في أهميتها هو كون الكعبة مقصد لزيارة موسمية من خلال قدوم قوافل الحجيج إليها.

كما ذكرنا سابقاً فبعد الدمار الذي حدث في جنوب شبه الجزيرة العربية هاجرت جماعات كثيرة من سكانه إلىٰ بقية أنحاء شبه الجزيرة. ومن بين هؤلاء اختارت قبيلتا جُرْهُم وخُزاعة مكة مكاناً للسكن.

١- إبراهيم/ ١٤: ٣٧.

٢- البقرة/٢: ١٢٦.

تاريخ قبيلة جرهم ومعيشتها في اليمن أمر غامض، وقد أشار بعض المؤرخين بأن جرهم كانت في عهد إسماعيل﴿عليه السلام﴾[١] وقد استولت جرهم علىٰ الزعامة في مكة ولكن ومع مجيء خزاعة دارت حرب طاحنة بينهما انتهت بتولي خزاعة لزمام الأمور في مكة.

واستمرت سلطة خزاعة في مكة حتىٰ أيام قصي بن كلاب، وهو الجد الأكبر لرسول الله﴿صلى الله عليه وسلم﴾.

كان اسم قصي زيداً وأمه هي ابنة سعد بن سَيَل. وقد تزوجت أم زيد بعد موت زوجها كلاب برجل من خزاعة يُدعىٰ بربيعة بن حزام وهو من بني عذرة. ويقال أنه بسبب ابتعاد مسقط رأس زيد لقب بقصي واحتل اللقب بذلك مكان الإسم.

بعد أن شبّ قصي عاد إلىٰ مكة وتزوج بابنة أحد كبار خزاعة وهو حُلَيل وكانت حصيلة هذا الزواج أربعة أبناء هم: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزىٰ، وعبد قصي وتسلم قصي زعامة المدينة من بني خزاعة وجاء بأقاربه الذين كانوا يعيشون خارج المدينة إليها.

لم يكن في مكة قبل ظهور الإسلام مكان لتعلم القراءة والكتابة، ولكن كان بعض الأفراد في بعض العوائل يدركون ضرورة ذلك وبذلك شرعوا بتعلم القراءة والكتابة.

مع أننا لا نملك أي دليل علىٰ أن البدو كانوا علىٰ معرفة بالقراءة والكتابة إلا عندما يسافر شاعر أو كاهن للدول المجاورة صدفةً، ويتعلم هناك القراءة والكتابة. فما كان ينظمه الشعراء ويذكره الكَهَنَة من السجع كان ينتقل من فرد إلىٰ آخر. حيث كان الشعراء يلقون قصائدهم وأشعارهم علىٰ الناس في سوق عكاظ الذي كان يقام سنوياً بين الطائف ونخلة، وهناك سوق آخر كان يقام في شهر ذي القعدة في الظّهران

١- تاريخ الإسلام السياسي، ج١، ص ٤٠.

وبعده في ذي المجاز قرب عرفة.[١]

استولت قريش علىٰ زمام الأمور في مكة من أيدي خزاعة،وشرع أهلها ينخرطون في أمور التجارة شيئاً فشيئاً. كانوا ينقلون محاصيل جنوب شبه الجزيرة العربية وشرقها إلىٰ الموانىء الواقعة علىٰ ضفاف البحر الأبيض المتوسط بينما كانوا يجلبون معهم القمح والزيتون والحرير والمحاصيل والسلع الأخرىٰ من أسواق دمشق إلىٰ الحجاز وكان لقافلة قريش سفرتان في كل سنة: إلىٰ اليمن في الشتاء، وإلىٰ الشام في الصيف.

ويذكر ابن هشام بأن تأسيس هاتين السفرتين كان بناءاً علىٰ اقتراح هاشم جد رسول الله ﷺ.[٢] وهما ذاتهما اللتان أشار إليها القرآن الكريم:

﴿لإِيلافِ قُرَيش إيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشّتاءِ والصَّيفِ فَلْيَعبْدوا رَبّ هٰذَا البَيْتِ ٱلَّذي أَطْعَمهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوفٍ﴾[٣]

كان بعض أفراد القبيلة وهم أولئك الذين قدموا إلىٰ مكة من أطرافها وأقاموا فيها يستثمرون أموالهم المدخرة في التجارة أو الربا، وأدركوا أن هذه الحياة أفضل وأكثر فائدة وربحاً من الحياة في البادية وضررها أقل، ومن الآن فصاعداً لا حاجة لقتال القبائل الأخرىٰ أو افتتاح بيوت الضيافة والاعتناء بالمحتاجين والفقراء.

أدىٰ هذا التحول التدريجي في مكة إلىٰ انجذاب سكان البادية إليها فتركوا تربية المواشي والتنقل في الصحراء وتوجهوا نحو المدينة ليعملوا في خدمة هذه الطبقة

١- جرجي زيدان، تاريخ الحضارة الإسلامية، ج٣، صص ٣٣-٣٤.

٢- جرجي زيدان: تاريخ الحضارة الإسلامية، ج١، ص١٤٧.

٣- قريش/١٠٦: ١-٤.

المرفهة والثرية.

لم يمض وقت كثير حتىٰ ظهر في مكة طبقتان اجتماعيتان: أقلية ثرية لا تفكر إلا بزيادة ثروتها ومضاعفتها، وأكثرية مسحوقة تعمل عند الأولىٰ وتخدمها وهي في مقابل بذل قدراتها الجسدية تتقاضىٰ أجراً بخساً.

وهكذا كان الوضع الاجتماعي العام في مكة قبيل ظهور الإسلام علىٰ حافة الانفجار: قريش التي بيدها السيادة في مكة ولأنها وضعت الكعبة تحت حمايتها ومراقبتها كسبت بذلك امتيازاً وفائدة أخرىٰ، ولكن لم يكن لهذا الامتياز معنىً دينياً ومعنوياً وإن كانت العبادة تطغىٰ عليه، ولكن الحقيقة كانت تتجلىٰ بوضوح كثير فقد نسي هؤلاء ربهم الأعظم والأكبر وجعلوا من الأصنام أدوات لمآربهم الشخصية فانتصر الهوىٰ الشيطاني علىٰ الفطرة الإنسانية المبنية علىٰ التوحيد، واحتل الظلم مكان العدالة، فلا وجود لدين يهدي الظالم إلىٰ الحق ولا لقوة تعين المظلومين والمستضعفين.

لقد حان الآن الوقت لكي تمتد يد الغيب خارجاً وتتصرف.

الفصل الثاني

ظهور الإسلام

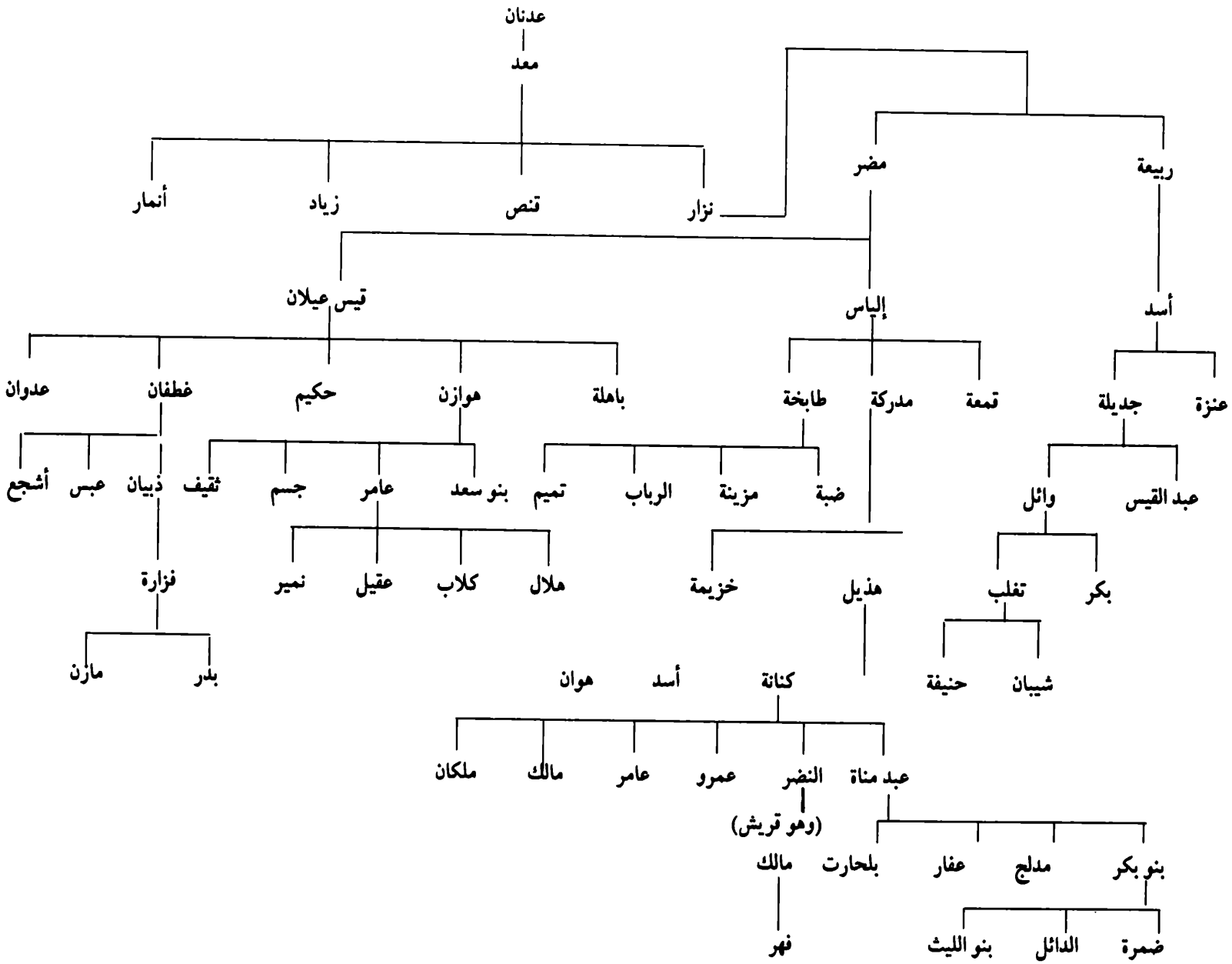

(وهو قريش على رأي آخر)

نسب قريش

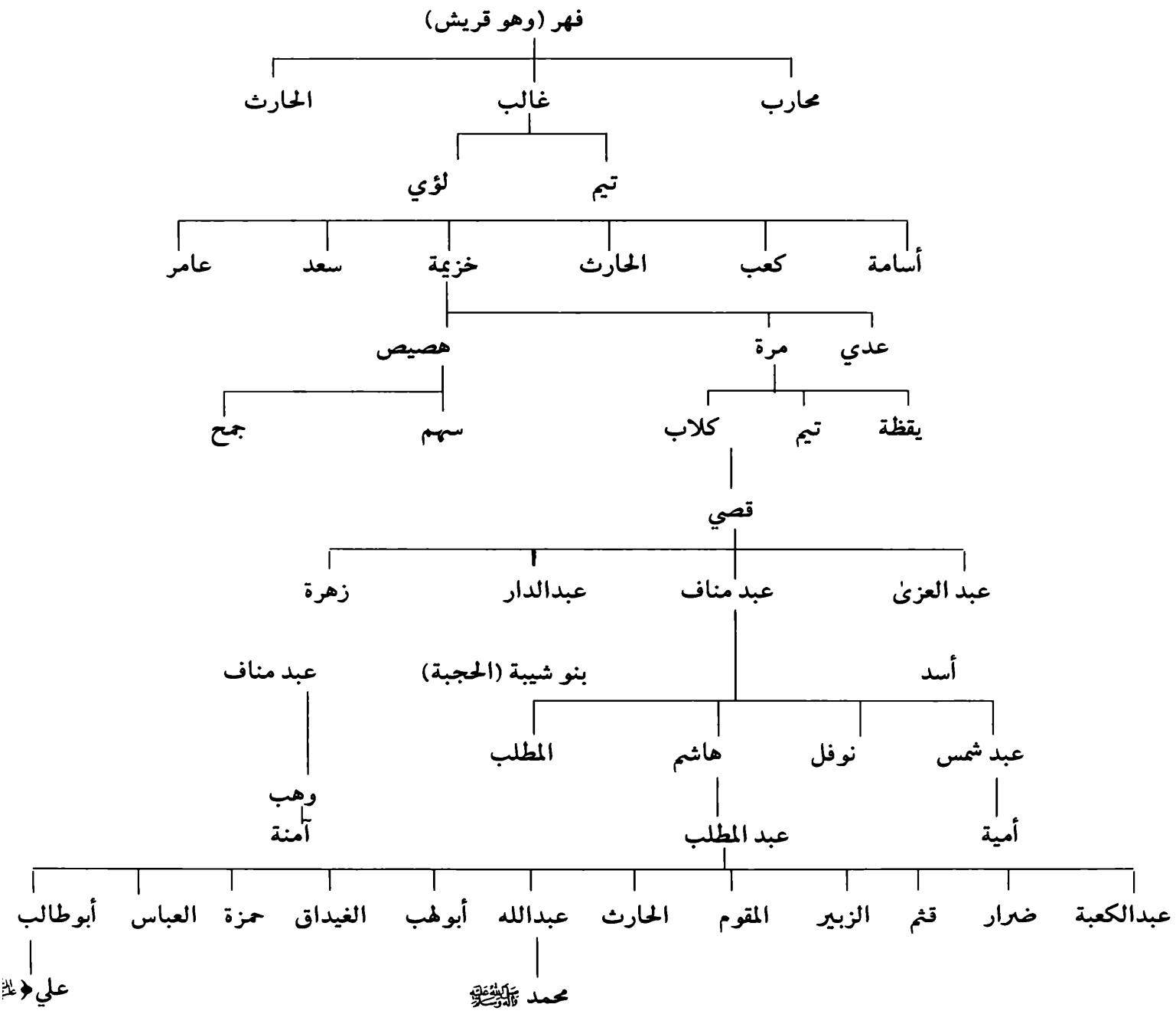
فهر (وهو قريش)
محارب
غالب
الحارث
تيم
لؤي
أسامة
كعب
الحارث
خزيمة
سعد
عامر
عدي
مرة
هصيص
يقظة
تيم
كلاب
سهم
جمح
قصي
عبد العزىٰ
عبد مناف
عبدالدار
زهرة
أسد
بنو شيبة (الحجبة)
عبد مناف
عبد شمس
نوفل
هاشم
المطلب
أمية
عبد المطلب
وهب
آمنة
عبدالكعبة
ضرار
قثم
الزبير
المقوم
الحارث
عبدالله
أبولهب
الغيداق
حمزة
العباس
أبوطالب
محمد ﷺ
علي عليه السلام

طفولة النبي﴿ﷺ﴾ وشبابه

لا يعرف عام ولادة النبي علىٰ وجه التحديد. وقد ذكر ابن هشام والآخرون أن ولادة حضرته كانت في عام الفيل، أي في العام الذي هاجم فيه أبرهة الحبشي الكعبة المشرفة. وإن كان هذا التاريخ واضحاً لأولئك الذين شاهدوا هذه الحادثة بأم أعينهم فإنه ليس قطعياً ومحدداً بدقة عند الآخرين، لأنه لا يمكننا أن نحدد حالياً في أي عام جرت هذه الحادثة.

وبما أن المؤرخين ذكروا أن النبي﴿ﷺ﴾ توفي عام ٦٣٢ للميلاد، وبما أن النبي عاش ٦٣ سنة فبالاستناد إلىٰ ذلك نستطيع أن نحدد تاريخ تولده بين ٥٦٩ - ٥٧٠ للميلاد.

أورد المؤرخون روايات وقصص عديدة عن حياته الكريمة ولو اعتمدنا علىٰ القرائن الموثقة والقطعية لاستطعنا الفصل والتمييز بين الحقيقة التاريخية والرواية أو القصة. ووحدهما القرآن والسنّة هما القرائن الكفيلة بتبيين أحداث ذلك الزمان وكشف أسرارها، ولكن لا يوجد في القرآن الكريم الذي لا شك فيه ولا ريب إلا إشارات قصيرة ودلالات سريعة في هذا المجال.

نستنتج من هذه الإشارات والدلالات ومما كتبه المؤرخون وما هو متفق عليه بأن النبي﴿ﷺ﴾ عاش طفولته يتيماً، فوالده عبدالله بعد أن تزوج من آمنة بنت وهب رئيس طائفة بني زهرة توفي بعد عدة أشهر من زواجه في يثرب، في أحد أسفاره التجارية عندما كان عائداً من الشام.

بينما يشير بعض المؤرخين إلىٰ أن عبد الله مات بعد عدة أشهر من ولادة

محمد﴿ﷺ﴾.

وعلىٰ كل حال فإن محمداً قد قضىٰ فترة رضاعه عند امرأةٍ من قبيلة بني سعد تدعىٰ حليمة. وتوفيت أمه آمنة في السادسة من عمره، فكفله جده عبد المطلب، وفي الثامنة من عمر محمد توفي جده عبد المطلب أيضاً، فدخل محمد في كفالة عمّه أبي طالب.

ذكر المؤرخون بأن محمداً رافق عمّه أبا طالب في طفولته[1] في إحدىٰ أسفاره إلىٰ الشام، وفي الطريق في مكان يسمىٰ بصرىٰ التقىٰ براهب نصراني يُدعىٰ بحيرا فرأىٰ هذا الراهب علائم النبوة فيه، فأوصىٰ عمّه فيه، وأوصاه بشكل خاص أن يحمي هذا الطفل من شر اليهود وأذاهم.

وعندما همّ أفراد القافلة بالسير اقترب بحيرا من محمدﷺ وقال له: باللات والعزىٰ عليك أجبني عمّا أسألك. فقال محمد﴿ﷺ﴾: لا تسألني باسم اللات والعزىٰ، فلا أكره شيئاً أكثر من هذين الصنمين، ثم حلّفه بحيرا بالله عزوجل.

حرب الفجار

حرب الفجار هي من الحوادث التي وقعت في مقتبل عمر النبي﴿ﷺ﴾ وقد سميت بذلك لحدوثها في أحد الأشهر الحرم. وكان سبب الحرب هو أن قافلة قادمة من الحيرة كانت محملة بالمسك والروائح الطيبة وقد اكتشف رجل من بني كنانة بأن حارس القافلة نائم - وكان من قبيلة هوازن - فقتله وحمل الأمتعة وذهب، وفي ذلك الوقت كان أهل قريش وهوازن مجتمعين في سوق عكاظ وعندما وصل الخبر للقريشيين عادوا جميعاً إلىٰ مدينتهم، فلحق بهم رجال قبيلة هوازن، ولكن

١- كان سن النبي في هذه الرحله بين ٩-١٢ سنة.

القريشيين كانوا قد وصلوا إلىٰ الحرم، وبعد ذلك اشتعلت نار الحرب بين القبيلتين، وتكررت عدة مرات، وكان محمد﴿صلى الله عليه وآله﴾ حاضراً في إحدىٰ هذه الحروب. وقد ذكر بعض المؤرخين بأن هذه الحرب دارت بين قبيلتي كنانة وقيس.

حلف الفضول

ومن الأحداث الهامّة الأخرىٰ التي حدثت قبل بعثة الرسول حضوره في حلف الفضول[1]. حيث عقدت القبائل التي تسكن مكة عهود ومواثيق مع بعضها تأمن كل قبيلة بموجب ذلك من تعرض القبائل الأخرىٰ، ولكن لو قدم غريب إلىٰ مكة وتعرض لظلم ما فليس له قبيلة أو ميثاق يحميه.

وقد روي أن رجلاً من بني أسد بن خزيمة قدم إلىٰ مكة للتجارة فاشترىٰ رجل من بني سهم سلعته ولكنه لم يدفع له ثمنها، فالتجأ الرجل إلىٰ قريش لتنصفه وترجع له حقه فأجابه القريشيون قائلين: لا نستطيع حمايتك، فأنت لست في حلفنا، وعندما أغلقت السبل في وجهه وازداد يأسه صعد الرجل إلىٰ قمّة جبل "أَبو قبيس" وقال أشعاراً تصف مظلوميته[2] وطلب المساعدة من قريش. فندم القريشيون واجتمعوا في بيت عبدالله بن جدعان وتعاهدوا علىٰ أن لا يسمحوا من الآن

١- الحِلف: العَهد يكون بين القوم، وأصله المعاقدة والمعاهدة علىٰ التعاضد والتساعد والاتفاق وله صور عديدة، فعلىٰ سبيل المثال لما أرادت بنو عبد مناف أخذ ما في يَدَي عبدالدار من الحجابة والرفادة واللواء والسقاية، وأبت بنو عبد الدار عقد كل قوم علىٰ أمرهم حلفاً مؤكداً علىٰ أن لا يتخاذلوا، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة، ثم غَمَس القوم أيديهم فيها، وهكذا تمّ الحلف بينهم. وقد ورد النهي عنه في الإسلام ونسخه إلا ما كان علىٰ نصر المظلوم وصلة الأرحام.

٢- تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٣.

فصاعداً بظلم أي غريب، وقد سمي بـ «حلف الفضول» لأنه أضيف علىٰ العهود والأحلاف السابقة وقد ذكرت روايات أخرىٰ تبين سبب هذه التسمية.

كان رسول الله ﷺ يقول بعد البعثة: «شَهِدتُ [قبل البعثة] في دار عبدالله بن جُدعان، حلفاً ما يسرني به حمر النعم ولو دُعيتُ إلىٰ مثله في الإسلام لأجبتُ».

الزواج من خديجة

كان محمد ﷺ في الخامسة والعشرين من عمره عندما أخبره عمه أبو طالب بأن قافلة قريش جاهزة لرحلة الشام وقد أعطت خديجة بنت خويلد لبعض أقاربك أموالاً ليتاجروا بها علىٰ أن يكونوا شركاء في الربح، فإن أردت المشاركة في ذلك، فهي تقبل أيضاً، ثم تكلم محمد مع خديجة في هذا الموضوع فقبلت.

روىٰ ابن إسحاق أن خديجة كانت علىٰ علم بأمانة محمد وصفاته الحميدة فأرسلت إليه تخبره بأنها ستجعل نصيبه أكثر من الآخرين إن قبل أن يتاجر في أموالها.(١)

نال خديجة ربح كثير من هذه الرحلة فمن عهدت إليه تجارتها كان رجلاً مشهوراً بالأمانة والصدق والصلاح.

وتزوج محمد من خديجة بعد هذه الرحلة التجارية.

كان محمد ﷺ يبلغ الخامسة والعشرين من العمر بينما كانت خديجة تبلغ من العمر أربعين سنة، ولكن لو التفتنا إلىٰ الأولاد الذين ولدتهم خديجة لخمّنّا عمرها أقل من ذلك. وربما انتخب المؤرخون العرب الرقم أربعين لأنه رقم كامل.

١- سيرة ابن إسحاق، محمد حميد الله، ص ٥٩.

نصب الحجر الأسود

كانت حادثة الحجر الأسود من الأحداث الأخرىٰ التي وقعت قبل بعثة محمد﴿ﷺ﴾ وأظهرت مكانة محمد في أنظار قريش.

نعلم أن الكعبة كانت مقدسة ومحترمة عند العرب في الجاهلية، وقد تعرضت في سنة من السنين إلىٰ سيل هدّم جدرانها، فبنتها قريش من جديد، ولكن الخلاف دبّ بين رؤساء القبائل عندما أرادوا نصب الحجر الأسود، ثم تطورت الأحداث وزادت حدة.

أحضر أشراف القبائل وعاءً مليئاً بالدم وغمسوا أيديهم فيه، وكان هذا العمل بمثابة عهد عليهم أن يتحاربوا بموجبه حتىٰ النصر.

ولكنهم في النهاية توصلوا إلىٰ اتفاق قبلوا من خلاله أن يحتكموا إلىٰ أول شخص يدخل من باب بني شيبة إلىٰ المسجد، وأن يقبلوا ما يقول ويحكم به، فكان محمد﴿ﷺ﴾ أول شخص دخل من الباب، فقال زعماء قريش إنه رجل أمين، ونقبل بتحكيمه، ثمّ أخبروه بالقصة، فقال محمد﴿ﷺ﴾: أحضروا عباءة كبيرة وافرشوها وعندما فعلوا ذلك قام محمد﴿ﷺ﴾ بوضع الحجر الأسود وسط العباءة، وقال فليمسك رئيس كل قبيلة بطرف من أطراف العباءة وعندما حملوا العباءة ورفعوها رفع محمد﴿ﷺ﴾ الحجر الأسود بنفسه ووضعه في مكانه. وهكذا منع محمد﴿ﷺ﴾ بعمله هذا سفك الدماء والحرب.

الرسالة

كان محمد﴿ﷺ﴾ يتألم بشدة لسنين عديدة قبل البعثة لحالة أهل شبه الجزيرة العربية التي يرثىٰ لها، وكان أكثر الأمور إيذاءاً له عبادتهم للأصنام. وقد ذكرنا سابقاً

بأنه عندما قال بحيرا لمحمد﴿ﷺ﴾ أحلف عليك باللات والعزّىٰ، قال محمد﴿ﷺ﴾: لا تذكر اسم اللات والعزىٰ أمامي، فأكره شيء عندي هو هذان الصنمان، ثم أحلفه بحيرا بالله عزوجل.

ظهور الإسلام

كان محمد﴿ﷺ﴾ يعتزل الناس في السنوات التي سبقت البعثة وكان يقضي وقته في عبادة الله الواحد عزوجل، وكان يعتكف شهراً كل سنة في جبل يسمىٰ "حِراء" يعبد فيه الله، وفي هذه المدة كان يطعم أي محتاج يأتي إليه، وبعد أن يقضي شهر العبادة كان يعود إلىٰ مكة ويطوف حول الكعبة سبع مرات قبل الذهاب إلىٰ البيت.

وفي إحدىٰ سنوات عزلته هذه في حِراء[١] حصلت البعثة وقد قال محمّد﴿ﷺ﴾: نزل عليَّ جبريل وقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقاريء، ثمّ قال مرّة أخرىٰ: اقرأ، فقلت: ماذا أقرأ؟ فقال: «اقرأ باسم ربك الذي خلق»[٢] وكما هو مشهور فقد كان في الأربعين من عمره عند البعثة.

رجع النبي إلىٰ مكة مع تلقيه الآيات الأولىٰ من سورة العلق وهي أولىٰ الآيات التي نزلت عليه، وتشرف بها بالرسالة، ومن الطبيعي أن يعود إلىٰ البيت قبل أي عمل آخر في هذه الحالة حيث لم يسبق له أن تعرّض لمثل هذا قبل تلك الليلة.

كان في البيت أشخاص ثلاثة: زوجته خديجة، وابن عمه علي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة ومن الطبيعي أن يكون أول من أسلم من الرجال علي بن أبي طالب، ومن النساء خديجة. وكما ذكر أميرالمؤمنين في الكثير من خطبه ذلك

١- جبل علىٰ بعد ثلاثة أميال من مكة.

٢- العلق / ٩٦: ١.

بصراحة، حيث قال:

«كنت أول من آمن برسول الله»

ولكن بعد هؤلاء من هم الذين قبلوا واعتنقوا الإسلام قبل الآخرين؟ كما نعلم فإن كتاب السيرة علىٰ اختلاف في ذلك، وكذلك فمن الطبيعي أن يكون هذا الاختلاف قد ظهر بعد عصرة الصحابة وبداية عصر التابعين، فقد سعت كل أسرة إلىٰ الإدعاء بأن أصولها كانت سباقة إلىٰ الإسلام لتنال وتكسب من ذلك امتيازات ومكاسب معنوية، وعلاوة علىٰ ذلك هناك مآرب وأهداف أخرىٰ يعرفها المطلعون والعارفون بالتاريخ.

وتشير الروايات إلىٰ أنّ دعوة محمد ﷺ بقيت مخفية لثلاث سنوات بعد البعثة، مع هذا فإن البعض واستناداً إلىٰ ترتيب نزول آيات القرآن الكريم أشار إلىٰ أن الدعوة العامة حدثت بعد فترة وجيزة من البعثة.

كان رسول الله يدعو الناس في البداية إلىٰ ترك عبادة الأصنام والتوجه إلىٰ عبادة الله الواحد عزوجل.

وكانت الصلوات في البداية تتألف من ركعتين، ومن ثمّ توجب علىٰ غير المسافر أن يصلي أربع ركعات، والمسافر ركعتين، وراح المسلمون يصلون ويعبدون الله خفية، ويقيمون الصلاة في الجبال والمناطق البعيدة عن تردد الناس، وراح الإسلام ينتشر شيئاً فشيئاً في مكة، وكما هو مشهور فقد أمر الله سبحانه وتعالىٰ محمداً بعد ثلاث سنين من البعثة الجهر في دعوة الناس إلىٰ عبادة الله الواحد:

﴿وأنذر عَشيرتَكَ الأقرَبين واخفض جَناحَك لِمَن اتبعكَ من المؤمنين فإن عَصَوك فقل إني بَريء مما تعملون﴾[1]

١- الشعراء/ ٢٦: ٢١٤-٢١٦.

وذكر ابن اسحاق أنه عندما نزلت هذه الآيات الشريفة أخبر النبي﴿ﷺ﴾ علياً﴿عليه السلام﴾ قائلاً: يا علي: إن الله أمرني أن أدعو الأقربين إلىٰ عبادته: فاذبح شاةً وأحضر صاعاً من الطعام وقدحاً من اللبن، ففعل علي ما أمره به رسول الله، وتجمع في ذلك اليوم قرابة أربعون رجلاً من بني عبدالمطلب وبعد أن انتهوا من طعامهم، وما أن أراد الرسول أن يبدأ كلامه حتىٰ قال أبو لهب: لقد سحركم محمد، فانفضّ المجلس.

دعاهم رسول الله في يوم آخر، وقال: يا بني عبد المطلب ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به، جئتكم بخير الدنيا والآخرة.[1] وقد ذكر يونس بن بكير وهو أحد رواة ابن إسحاق كلام رسول الله إلىٰ هنا وعمداً أو سهواً (لا أعلم) لم يأت بعدها ببقيتها.

ابن هشام الذي يروي عن طريق البكائي عن ابن إسحاق اكتفىٰ فقط بنقل الآية ولم يضف عليها شيئاً.[2]

ولكن الطبري وهو من المؤرخين القدامىٰ، وكتبه هي من المراجع والأسناد الأولىٰ يذكر: عندما بلّغ رسول الله دعوته إلىٰ أقربائه، قال: فأيكم يؤازرني علىٰ هذا الأمر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم؟ فسكت الجميع، فقال علي﴿عليه السلام﴾: يا رسول الله أنا، فقال النبي: هذا وصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا كله وأطيعوا.[3]

وقد نقل هذه الرواية بهذا الشكل بقية المؤرخين وكتاب السيرة وهي من الأحاديث المشهورة.

١- سيرة ابن إسحاق، ص١٢٧.

٢- سيرة ابن هشام، ج١، ص٢٧٤.

٣- تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ١١٧٢.

وروىٰ الطبري عن ابن عباس بأن رسول الله﴿ﷺ﴾ ذهب يوماً إلىٰ جبل الصفا ودعا قريشاً إليه، ثمّ قال لهم: لو أخبرتكم بأن أنّ خيلاً تخرج بسفح الجبل أكنتم مصدقيّ؟

- قالوا: نعم! ما جَرّبنا عليك كذباً.

قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فقال أبولهب: تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا، فنزلت سورة تَبَّت تنكيلاً بأبي لهب.(١)

يقول ابن هشام: لم تتعرض قريش لمحمد في بداية دعوته، ولكنه عندما راح يذمّ أصنامهم وينتقدها بدأت عداوتهم وتعرضوا له، وقد أشارت آيات القرآن الكريم إلىٰ هذه العداوة والكراهية:

﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي يذكر آلهتكم، وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾(٢)

راح عدد المسلمين يزداد يوماً بعد يوم، وزاد معه قلق قريش واضطراب كبارها، فذهبوا إلىٰ عمّه أبي طالب، وطلبوا منه أن يمنع ابن أخيه، ويرجعه عن هذه الدعوة التي شرع بها، واقترحوا عليه يوماً أن يسلمهم محمد ليَقتلوه ويعطونه بدلاً عنه عمارة بن الوليد وهو شاب وسيم وعاقل وحكيم في نظرهم، فقال أبو طالب: والله لبئس ما تسومونني أتعطعوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه!! هذا والله لا يكون أبداً.(٣)

١- تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص ١١٧٠.

٢- الأنبياء/٢١: ٣٦.

٣- سيرة ابن هشام، ج١، ص٢٧٩.

ما هو سرّ هذه العداوة والكراهية التي واجه بها هؤلاء محمداً ﷺ؟

لا نستطيع القول أن أبا جهل وأبا سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة كانوا يُكنون الاحترام لأصنام العرب، أو أنهم يولون أهمية لأمر من كان يعمل لخدمتهم.

كما أنهم لم يخافوا يوماً من فضل أو وجاهة محمد ﷺ، وكما رأينا فقد قبلوا أن يكون رئيساً عليهم.

كان محمد يبلغ الإسلام من خلال قوله: اتركوا عبادة وتعظيم الأصنام، وتوجهوا إلىٰ الله الواحد الذي خلقكم وخلق العالمين، وخلق السماوات والأرض.

وكان يقول عن نفسه: إني رسول الله إليكم، أريد أن أخرجكم من ظلمات الجهل إلىٰ نور الدين القويم، فلم يكن همّه وراء المناصب والحكم، ولو كان يريد ذلك لأعطوه ما أراد وامتثلوا لأوامره، ولكنّه قال: لو وضعتم الشمس في يميني والقمر في شمالي لما تركت ما أنا عازم علىٰ فعله، إني أريد منكم قول كلمة واحدة، وهي: الله واحد، وأن هذه الأصنام التي هي من صنعكم لا فائدة منها ولا منعة.

هنا سؤال أساسي يطرح نفسه : لماذا لم يقبل هؤلاء دعوة النبي؟

يمكننا أن نقول أن ترك دين الآباء والأجداد واعتناق دين جديد كان أمراً صعباً لهم.

ربما كان هذا التصور صحيحاً عن قوم يجهلون ما يجري حولهم، وقد ولدوا في محيط مغلق وماتوا فيه، ولكن ماذا عن أولئك المطلعين علىٰ العالم والعارفين بما يحدث خارج شبه الجزيرة العربية؟ فالشخص الذي يُسخر كل الوسائل للوصول إلىٰ هدفه، وهو ليس إلا تكديس الأموال وتجميع الثروة لو لم يكن يخاف علىٰ ضياع ثروته لكان الأمر سيان عنده أن يعبد بقية الناس الشمس أو القمر أو الله، وأن يطوفوا حول الكعبة وهم يذكرون أصنامهم اللات والعزىٰ تعظيماً لها أو يذكرون الله تعالىٰ.

إذا فهؤلاء المستكبرين لم يكونوا يخافون من انهيار الأصنام وتهديم قواعدها

لأنهم لا يعتقدون ولا يؤمنون بهذه الأصنام أصلاً، وإذا كانت دعوة النبي تتلخص في الكلمات الأربع هذه «لا إله إلا الله» فماذا كان يخاف هؤلاء؟ ولماذا لم يتصرفوا كما فعل أخلافهم بعد فتح مكة؟ فيقولون لفظاً إن الله واحد، وأنت نبيه ورسوله، ليجثوا في الخفاء بحثاً عن فرصة نفع وفائدة من هذا الدين الجديد.

هنا تحديداً يجب أن نكون أكثر دقةً. صحيح أن رسول الله كان يطلب منهم حينها الإقرار بوحدانية الله تعالىٰ، ولكن هناك رسائل أخرىٰ نزلت في آيات عديدة فيما بعد والذي أخاف هؤلاء المستكبرين وزاد من وحشتهم هو تلك الآيات، ومن المؤكد أنكم قد قرأتم مراراً تلك الآيات الموجودة في الجزئين التاسع والعشرين والثلاثين وهي من أوائل السور المكية.

اسمحوا لنا هنا أن نمرّ مرة أخرىٰ علىٰ هذه الآيات، وننظر إلىٰ مضمونها ومحتواها:

﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مٰالاً وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مٰالَهُ أَخْلَدَه، كَلّا لَيُنْبَذَنّ فِي الحُطَمَةِ، وَمٰا أَدْرٰيك مَا الحطمَةُ، نارُ اللّهِ الْمُوقَدَة الَّتي تَطَّلِعُ عَلَىٰ الْأفئدة﴾[1]

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفينَ الَّذينَ إذا اكْتالُوا عَلَىٰ النّاسِ يَسْتَوفون وإذٰا كٰالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُون ألا يَظُنُّ أُولئك أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظيم﴾[2]

﴿ذَرْنى وَمَنْ خَلقْتُ وَحيداً. وَجَعَلْتُ لَهُ مٰالاً مَمْدُوداً وبنين شهُوداً

١- الهمزة/١٠٤: ٢-٧.

٢- المطففين/٨٣: ١-٥.

ومَهَّدتُ لَهُ تَمْهيداً ثُمَّ يَطمَعُ أنْ أزِيدَ كَلّا إنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً﴾[١]

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجحيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَأسْلكُوهُ إنَّهُ كانَ لا يؤمنُ بِاللّهِ الْعظيمِ وَلا يَحُضّ عَلىٰ طَعام الْمِسكِينِ﴾[٢]

﴿فَلا اقْتَحَم الْعَقَبَة، وما أدْريك مَالْعَقَبةُ. فَكُّ رَقَبةٍ. أو إطعامٌ في يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتيماً ذا مَقْربَةٍ أوْ مِسْكيناً ذا مَتْربَةٍ﴾[٣]

﴿فأمَّا الْيَتِمَ فَلا تَقْهَرْ وَأمَّا السّائل فَلا تَنْهَر﴾[٤]

﴿فَأنْذرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى لا يَصْلاها إلاّ الأَشْقىٰ الّذِي كَذَّبَ وَتولّىٰ وَسَيَجنَّبُهاَ الأتقىٰ الَّذِي يؤتِي مالَهُ يَتَزَكّىٰ﴾[٥]

لم يكن أمام المرابين والأغنياء إلا أن يأخذوا هذه التهديدات علىٰ محمل الجد، حيث كانت تلك العبارات توخز أفئدتهم وقلوبهم: حرمة أكل الربا، تحرير وعتق العبيد، عدم التصرف بأموال اليتامىٰ، الاهتمام بالقريب والمستضعفين، عدم التكبر

١- المدثر/٧٤: ١١-١٦.
٢- الحاقة/ ٦٩: ٣٠-٣٤.
٣- البلد/٩٠: ١١-١٦.
٤- الضحىٰ/٩٣: ٩-١٠.
٥- الليل/٩٢: ١٤-١٨.

والتعالي علىٰ الآخرين. وبعبارة أخرىٰ: التخلي عن كل المكاسب والامتيازات الدنيوية والجلوس في صف واحد مع من هم من غير طبقتهم! ولم يكن ذلك تكليفاً قابلاً للتنفيذ بنظرهم.

كانت ترتجف قلوبهم وتنهار لسماع هذه الآيات، وكانوا يرغبون في أن لا يسمعوا ذلك، لا هم ولا الآخرون، ولكن المستضعفين كانوا يشعرون بالغبطة والنشوة لذلك وكان إيمانهم يزداد رسوخاً وثباتاً.

لنمعن النظر الآن في المجموعة الثانية فلو كان المسلمون يتشكلون من العبيد والخدم والمظلومين فقط لما كان الأمر صعباً وشديداً علىٰ المجموعة الأولىٰ فبالطرد من العمل والإيذاء والمضايقة يمكن وضعهم عند حدهم، ولكن حدود الإسلام وآفاقه قد تجاوزت هذه الفئات الثلاث وراح الإسلام يدخل إلىٰ بيوت المستكبرين وعوائلهم ويزداد انتشاراً يوماً بعد يوم. وبذلك أصبح المستكبرون أمام تهديدين وتحديين من النوع الصعب:

الأول: ضياع الثروة وفقدانها.

الثاني: النزاع مع الأقارب والجيران.

إن كان لديكم متسع من الوقت واطلعتم علىٰ التركيبة السكانية في مكة في ذلك الزمان فستجدون أن الإسلام قد انتشر في عدة أسر وقبائل تتشكل قريش منها، ولو ألقينا نظرة علىٰ أسماء من هاجر إلىٰ الحبشة كما ذكرهم ابن هشام[1] لرأينا فضلاً عن بني هاشم أسماء العوائل الأخرىٰ التالية:

بني عبد شمس، بني نوفل، بني أسد بن عبد العزىٰ، بني عبد الدار، بني قصي، بني زهرة، هذيل، بهرا، بني تيم بن مرة، بني مخزوم، بني جمع، بني سهم بن عمرو، بني

١- سيرة ابن هشام، ج١، ص٣٤٤.

عدي بن كعب، بني عامر بن لؤي، وبني حارث بن فهر.

كان أكثر هؤلاء قد هاجروا إلىٰ الحبشة مع نسائهم.

المرأة التي أسلمت وبقي أبوها وأخوها كفاراً، أخ آهتدىٰ إلىٰ الإسلام وأخاه الآخر قد عارضه وخالفه. والرجل الذي دخل حليفه في الإسلام ويتوجب عليه بناءاً علىٰ العادات والتقاليد القبلية أن يحافظ عليه من أذىٰ الجيران.

في بعض الأحيان تكون قبيلة ما قد تحالفت مع عدة قبائل أخرىٰ، وفي هذه الحالة فإن العداوة مع أحد منها تجر إلىٰ عداوة مع عدد من القبائل ومئات من الأشخاص.

إذاً فلم يكن الخوف من فقدان سوق التجارة وضياع الثروة فقط هو الخوف الوحيد الذي أرهب زعماء قريش، بل إن ما زاد في قلقهم وخشيتهم هو هوية المسلمين الجدد الذين راح عددهم يزداد يوماً بعد يوم.

حان الآن الوقت المناسب لنلقي نظرة علىٰ تركيب هذه الفئة:

إن أولئك الذين اعتنقوا الإسلام في السنوات الأولىٰ من دعوة النبي﴿ﷺ﴾ وذكرت أسماؤهم في مراجع أصلية موثقة كسيرة ابن إسحاق التي رواها عنه يونس بن بكير[١] أو سيرة ابن هشام التي نقلها عبدالله بن طفيل البكائي[٢] هم رجال ونساء بين التاسعة عشرة والثامنة والعشرين من العمر، أفراد في غاية الإيمان واللامبالاة بالعادات القبيلية والنظام الموجود في مكة.

يتميز هؤلاء من الناحية الاجتماعية بالصفات الآتية:

١- يصنف هؤلاء من حيث تسلسل النظام القبلي في الطبقة الثانية أو الثالثة.

٢- وأما من حيث التجارة فقلة منهم لديهم ثروة ورأس مال، وهم غير

١- سيرة ابن إسحاق، محمد حميد الله، ص ١١٨.

٢-السيرة النبوية، لابن هشام مطبعة الحجازي، القاهر، ج ١، ص ٢٦٦.

قادرون علىٰ منافسة الأثرياء والأغنياء.

٣- كانوا عمالاً وأجراء وعبيد وأناس مظلومين سئموا من جور الظلمة واضطهادهم.

٤- كان هؤلاء ذوي بصيرة وثقافة ومستوىٰ فكري أعلىٰ من الآخرين وغير راضين عن الواقع المعاش ومستائين من الفساد العقائدي والاجتماعي عند قومهم.

٥- مسلمون حقيقيون ومؤمنون راسخون وقد أشار إليهم القرآن ومدحهم في مواقع كثيرة.

لم يكن القريشيون قادرين علىٰ إيذاء النبي ولا علىٰ قتله لأن ذلك سيجر إلىٰ صراع مع بني هاشم، وربما أدىٰ إلىٰ تدخل قبائل أخرىٰ ممّا يزيد الأمر سوءاً ولذلك لم تتعد معاداتهم للنبي حدود السب والذم والإيذاءات الجزئية، ولكنهم كانوا يسعون إلىٰ إيذاء الضعفاء من المسلمين بما أوتوا من قوة.

وراح النزاع يظهر بشكل أكبر شيئاً فشيئاً، وذهب القريشيون مرة أخرىٰ إلىٰ أبي طالب وطلبوا منه أن يمنع ابن أخيه من السير والمتابعة في الطريق الذي شرع في السير به، فأخبر أبو طالب محمداً ﷺ بما قاله القريشيون له، فقال محمد: والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي علىٰ أن أترك هذا الأمر ما تركته حتىٰ يظهره الله أو أهلك فيه، فقال أبو طالب مجيباً: إن كان الأمر كذلك، فامض بما شرعت به، ولن أدع أحداً يتعرض لك أو يمسك بسوء، إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشيء أبداً.

عندما علمت قريش بأن محمداً لن يترك دعوته وأن أبا طالب أيضاً لا يتردد ولا يتزلزل في الدفاع عنه وتأييده، بدأ سعيهم لإيذائه يأخذ شكلاً أكثر جدية.

اعتناق حمزة للإسلام

يقال أن أبا جهل التقىٰ يوماً بالنبي﴿ﷺ﴾ قرب جبل الصفا، وتكلّم معه بكلام لا يليق ولكن النبي﴿ﷺ﴾ لم يرد عليه، وقد شاهد هذه الحادثة جارية من جواري عبد الله بن جدعان، ولم تمض مدة حتىٰ عاد حمزة إلىٰ مكة من الصيد، وكان من عادته عندما يعود إلىٰ مكة أن يطوف حول الكعبة، ومن ثمّ يذهب إلىٰ الأماكن التي تتجمع فيها قريش (مجالس قريش) ويشرع بالكلام والحديث معهم.

كانت قريش تحب الحمزة لمروءته. وفي هذه المرة بعد رجوعه من الصيد عندما كان حمزة يجالس أصحابه علىٰ عادته أتت إليه تلك الجارية، وقالت له: ليتك كنت هنا، فترىٰ ما قاله أبو جهل لابن أخيك! فانطلق الحمزة باحثاً عن أبي جهل، فرآه جالساً بين الناس في المسجد، فضربه بقوسه علىٰ رأسه، فجرحه جرحاً بليغاً، ثم قال: أأنت تشتم محمداً! ألا تعرف أني علىٰ دينه، وأقول بما يقوله.

أراد بنو مخزوم أن يهبوا لنصرة أبي جهل، ولكنه قال لهم: أتركوا الحمزة! فلقد شتمت ابن أخيه بما فيه سوء.

هذه الحادثة جعلت الحمزة ينضم إلىٰ معسكر المسلمين، وهكذا وبعد ما رأت قريش أن محمداً يتمتع بمساندة قوية من الحمزة، وأن الحمزة سيحميه من تعرضهم له أصبح تعرض قريش لمحمد أقل مما كان عليه في السابق.

معوقات بلا نتيجة

راح زعماء قريش يلتجئون إلىٰ أي حيلة تمكنهم من منع تقدم الدين الجديد واستمراره كذم الرسول، وإيذائه، وإيذاء أتباعه، واتهامه بالشعر والجنون والسحر، ولكن هذه الحيل لم تؤت ثمارها.

قام رجل من بني عبد مناف، ويدعىٰ نضر بن حرث باتباع طريقة جديدة للوقوف في وجه الدين الجديد، كان هذا الرجل قد عاش مدة في الحيرة، وتعلم فيها قصصاً ترتبط بأساطير الآلهة القديمة وتاريخ الأبطال الإيرانيين الأسطوري.

وعندما كان الرسول يجلس مجلساً ويذكر ويحذر الناس بما آلت إليه أحوال الأمم السابقة، ويقص عليهم عن قوم فرعون وصالح وثمود، والآخرين، ومن ثم ينهض كان النضر يجلس في مكانه، ويقول: أيها القوم والله إنه لدي قصص أفضل من تلك التي يقصها عليكم محمد، فهلموا واستمعوا إلىٰ قصصي وحكاياتي.

يعتقد بعض المفسرين بأن نضراً هذا هو الذي أشير إليه في القرآن:

﴿ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾.[1]

ولكن وعلىٰ العكس مما كان يعتقده نضر وأمثاله من كَفَرَة قريش فإن الذي كان يشد قلوب الناس ويسرقها ويزيد من عشقها وتعطشها للإسلام ليس هو تلك القصص التي تتكلم عن الأمم السابقة للإسلام، بل كانت القصص مقدمة للنصح والتبشير والتحذير والإنذار، والأفضل من ذلك هو البشارة بحياة أفضل وأكثر إنسانية. كانت هذه القصص تبشر العبيد والمستضعفين بأن ظلمة اليوم كظلمة العصور السابقة سيكون مصيرهم إلىٰ الزوال والفناء، وستكون القدرة والدولة لهم.

يروي ابن إسحاق بأن كبار قريش كأبي سفيان وأبي جهل والآخرين كانوا يذهبون ليلاً في الخفاء إلىٰ بيت كان محمد ﷺ يعظ الناس فيه، ويستمعون إلىٰ أحاديثه وإلىٰ الآيات القرآنية، وعندما خرجوا صباحاً رأوا بعضهم، فقرروا أن لا يكرروا هذا العمل ثانية خشية أن يؤدي عملهم هذا إلىٰ ازدياد تعلق جهلة القوم(!) بأحاديث محمد، ومع هذا ذهبوا عدة ليالي متوالية إلىٰ بيته، وفي النهاية قرروا أن يتشاوروا فيما بينهم عما يجب أن يفعلوه، ولكون أبي جهل من قبيلة بني مخزوم قال:

١- الأنعام/٦: ٩٣.

لقد تنافسنا مع أبناء عبد مناف علىٰ الزعامة، ولم نتأخر عنهم في أي خطوة أقدموا عليها حتىٰ قالوا في النهاية بأن وحياً قد نزل عليهم من السماء، والله لن نؤمن به أبداً.(١)

الهجرة إلىٰ الحبشة

كما أن عدد المسلمين كان في تصاعد فإن حدة معارضة قريش لمحمد﴿ﷺ﴾ كانت في تصاعد أيضاً. ولكن - وكما أشرنا سابقاً - فإن النبي﴿ﷺ﴾ كان تحت حماية أبي طالب ولذلك لم يكونوا قادرين علىٰ إيذائه بدنياً بناءاً علىٰ الحلف القبلي المنعقد بينهم ولكنهم لم يتباطؤوا في إيذاء أتباعه وخصوصاً من لا حماية له ولا سند، وكان هذا الأمر يؤلم الرسول أشدّ الألم فاضطر إلىٰ أمرهم بالهجرة إلىٰ الحبشة حتىٰ يخلصهم الله من بلائهم هذا. وبمجرد أن علمت قريش بهجرة المسلمين إلىٰ الحبشة أرسلت عمرو بن العاص، وعبدالله بن أبي ربيعة إلىٰ النجاشي ملك الحبشة لإرجاعهم، وفي مجلس النجاشي قالا: إنّ ناساً من سفهائنا فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دين الملك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقومنا يطلبون منك أن تعيد هؤلاء إليهم، فقال النجاشي: ينبغي أن أسمع كلامهم أيضاً، وعندما طلب من المسلمين التحدث نهض جعفر بن أبي طالب للتحدث بالنيابة عنهم، فقال: لقد كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش... حتىٰ بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرفه، ونسلم بصدقه وأمانته وعفافه، ولقد أمرنا بالتوحيد، والصدق، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وأمرنا بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة ... وآمنّا به وصدقناه، ولكن قومنا هؤلاء تعدوا علينا، وعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلىٰ

١- السيرة، ج ١، صص ٣٣٧-٣٣٨.

عبادة الأصنام، ولكننا رفضنا، ولأننا غير قادرين علىٰ تحمل المزيد من أذاهم قدمنا إليك.

توسّل رسل قريش بحيلة أخرىٰ، فقالوا: اسأل هؤلاء ماذا يقولون عن عيسىٰ﴿عليه السلام﴾؟ فتلا جعفر آياتٍ من سورة مريم فرفع النجاشي عصاه، وقال: ما عدىٰ عيسى ما قلت هذا العود، اذهبوا فلن أعطيكم هؤلاء أبداً. واستقر المسلمون هناك، وعاد بعضهم إلىٰ مكة لاحقاً، ولكن معظمهم عادوا بعد هجرة الرسول إلىٰ المدينة.

اعتناق عمر للإسلام

كان عمر بن الخطاب من جملة أولئك الذين أسلموا في السنة الخامسة قبل الهجرة وكانت فاطمة أخت عمر زوجة لسعيد بن زيد، وقد أسلم الزوج وزوجته كلاهما ولكنهما كانا يخفيان إسلامهما.

ويروىٰ بأن عمر استل سيفه يوماً، وقال سأذهب إلىٰ محمد وأقتله، وفي الطريق إلىٰ محمد﴿صلى الله عليه وآله﴾ التقىٰ به رجل يدعىٰ نعيم بن عبدالله، ولأن نعيم كان علىٰ علمٍ بالذي سيفعله عمر، قال له: لو قتلت محمد فلن يغفر لك أبناء عبد مناف هذه الفعلة أبداً، ومن الأفضل أن تذهب إلىٰ بيت أختك وترىٰ ما الذي يفعله أقرباؤك، فسأله عمر: ماذا تقول؟ فقال نعيم: إن أختك وزوجها قد أسلما! فانطلق عمر غاضباً إلىٰ بيت أخته، وفي ذلك الوقت كان خباب بن الأرت في بيت سعيد يعلمهما سورة طه، (له ولزوجته) وحين دخل عمر البيت اختبأ خباب وأخفت فاطمة الصحيفة في عباءتها، فقال عمر: ما هو ذلك الصوت؟ فقالت فاطمة: لم نسمع شيئاً؟

فقال عمر: بلىٰ لقد سمعت بأنكم دخلتما في دين محمد، وراح عمر يوجه الشتائم إلىٰ زوج أخته، فهبّت فاطمة لمساندة زوجها، ولكن عمر لكم رأسها بضربة موجعة،

فقالت فاطمة: بما أن الأمر كذلك، فاعلم بأننا قد أسلمنا، وافعل ما يحلو لك، فندم عمر علىٰ ما فعله، وقال لأخته: أعطني ما كنتم تقرؤون! فقالت فاطمة: أخشىٰ أن تمزقه، فأقسم عمر بأنه لن يفعل ذلك أبداً، فدخل الطمع قلب فاطمة بأن يسلم عمر، فقالت له: لست علىٰ طهارة، ولا يحق لمن ليس علىٰ طهارة لمسه، فنهض عمر واغتسل بالماء، فأعطته فاطمة الصحيفة، وبعدما قرأ فيها قليلاً، قال: يا له من كلام جميل! وعندما سمع خباب هذا المديح خرج من مخبئه، وقال: لقد قبل الله دعاء رسول الله بشأنك يا عمر، فلقد سمعته يقول: اللهمّ أدخل الإسلام في قلب أبي الحكم أو عمر، فقال عمر: إذاً فخذني إلىٰ محمد. وذهب من هناك برفقة خباب إلىٰ محمد﴿ﷺ﴾ وأسلم، وأعلن إسلامه لقريش.

التضييق علىٰ بني هاشم ومحاصرتهم

قرر القريشيون محاصرة محمد﴿ﷺ﴾ وبني هاشم والضغط عليهم اقتصادياً، بعد أن انتبهوا إلىٰ الانتشار السريع للإسلام يوماً بعد يوم في مكة، وبعد أن رفض النجاشي أن يسلم المهاجرين إلىٰ رسل قريش، فكتبوا وثيقة مفادها أن لا حقّ لأحد أن يقبل تزويج أبناء هاشم وعبد المطلب من نسائه أو يتزوج منهم، ولا يحق لأحد أن يتعامل معهم أو أن يبيعهم أو يشتري منهم شيئاً. ومن ثم علقوا هذه الوثيقة على الكعبة، وهكذا حوصر بنو عبدالمطلب وبنو هاشم في وادٍ كان يسمىٰ بشعب أبي يوسف والذي سمي فيما بعد بشعب أبي طالب.

دامت محاصرة بني هاشم سنتين أو ثلاث. وفي تلك المدة التي قاسوا في ظلها مصاعب جمّة كان أحد أقاربهم يوصل إليهم قمحاً أو طعاماً آخر لسد جوعهم. وفي إحدىٰ الليالي علم أبو جهل - وهو عدو بني هاشم اللدود- بما يجري، ومنع حكيم بن حزام من إيصال القمح إلىٰ خديجة، فتدخل الآخرون وراحوا يلقون

بالملامة علىٰ أبي جهل. وهكذا شيئاً فشيئاً راح بعضهم يندم علىٰ فعلته، ويعلن مساندته لبني هاشم، فلماذا يعيش بنو مخزوم في نعيم ورخاء بينما يعيش بنو هاشم وعبدالمطلب في ضيق وعذاب؟ وفي النهاية قرروا إبطال تلك الوثيقة، وعقد بعض المشاركين في هذا الحلف العزم علىٰ تمزيقها.

يروي ابن هشام عن ابن إسحاق أنهم عندما وصلوا إلىٰ المكان الذي علقوا فيه الوثيقة لاحظوا أن النمل قد أكل قسماً كبيراً منها، ولم يبق منها سوىٰ جملة واحدة وهي «باسمك اللهمّ».

كما روىٰ ابن هشام عن بعض العلماء قولهم: دخل أبو طالب إلىٰ مجلس قريش، وقال: إن ابن أخي يقول أن النمل قد التهم الوثيقة التي كتبتموها، ولم يبق منها سوىٰ اسم الله عزوجل، فلترفعوا الحصار عنا إن كان كلامه صدقاً، وسأسلمكم إياه إن كان كاذباً في ادعائه هذا، فلما انطلقوا إليها رأوا بأم أعينهم أن النمل قد التهمها ولم يترك منها إلا اسم الله سبحانه وتعالىٰ.[1]

وهكذا انهار هذا الحلف وهذا الحصار، وخرج بنو هاشم من شعب أبي طالب.

موت أبي طالب وخديجة

تزامنت وفاة خديجة وأبي طالب في سنة واحدة (قبل الهجرة بثلاث سنوات) فحزن النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ لذلك حزناً شديداً. فأبو طالب كان معيناً ومسانداً راسخاً، وكان محمد﴿صلى الله عليه وآله﴾ يعيش في ظل حمايته وفي كنف تأييده، ولم يكن القريشيون يملكون جرأة إيذائه ومضايقته في ظل وجود أبي طالب. ولكنهم زادوا من وقاحتهم وتماديهم تجاه النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ بعد أن توفي حتىٰ وصل الأمر بهم إلىٰ رميه بالتراب

١- سيرة ابن هشام، ج١، ص ٣٩٩.

وقذف الحجارة عليه، فكانت خديجة تهدىء من روعه، وتواسيه وتخفف من آلامه نتيجة أذىٰ ومضايقة المخالفين والمعارضين له.

وصلت زعامة بني هاشم بعد موت أبي طالب إلىٰ أبي لهب. وكان أبو لهب من أشدّ الأفراد عداوة للرسول، وهكذا أمسىٰ النبي يفتقد إلىٰ الشخص الذي يحتمي في ظله بعيداً عن أيادي قريش، وفي مأمن عنها، فخرج رسول اللّه إلىٰ الطائف وحيداً يلتمس من ثقيف النصر والمَنَعَة له من قومه، ولمّا انتهىٰ رسول اللّه إلىٰ الطائف عَمَدَ إلىٰ نَفَر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف، وأشرافهم، وهم أخوة ثلاثة، فجلس إليهم فدعاهم إلىٰ اللّه وكلّمهم بما جاء لهم من نصرته علىٰ الإسلام، والقيام معه علىٰ من خالفه من قومه، فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان اللّه أرسلك، وقال الآخر: ما وجد اللّه أحداً يرسله غيرك؟، وقال الثالث: واللّه لا أكلمك كلمة أبداً لئن كنت رسولاً من اللّه كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب علىٰ اللّه ماينبغي لي أن أكلمك، فقام رسول اللّه من عندهم، وقد يئس من خير ثقيف، وقال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عليّ، وكره رسول اللّه أن يبلغ قومه عنه، فيذئرهم ذلك عليه، فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم، وعبيدهم، يسبونه، ويصيحون به حتىٰ اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلىٰ حائط لعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلىٰ ظل حبلة من عنب، فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف، فلما اطمأن رسول اللّه، قال: اللهمّ إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني علىٰ الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي. إلىٰ من تَكِلني؟ إلىٰ بعيد يتجهمني؟ أو إلىٰ عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ لا حول ولا قوة إلا بك. فلمّا رأىٰ ابنا ربيعة: عتبة وشيبة ما لقي

تحركت له رحمهما، فدعوا له غلاماً لهما نصرانياً، يقال له عداس، فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب، وضعه في ذلك الطبق، ثمّ اذهب به إلىٰ الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل به حتىٰ وضعه بين يدي رسول اللّه، فلما وضع رسول اللّه يده قال: بسم اللّه، ثمّ أكل، فنظر عداس إلىٰ وجهه، ثم قال: واللّه إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، فقال له رسول اللّه: ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟ قال: أنا نصراني، وأنا رجل من أهل نينوىٰ، فقال له رسول اللّه: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متىٰ؟ قال له: وما يدرك ما يونس بن متىٰ؟ قال رسول اللّه: ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي، فأكبّ عداس علىٰ رسول اللّه يقبل رأسه ويديه ورجليه. وهكذا أسلم ذلك الغلام، وعاد النبي من الطائف إلىٰ مكة.

الإسلام في المدينة

أثناء تلك السنوات التي كانت فيها قريش تعمل جاهدة علىٰ منع الناس من اعتناق الإسلام والالتحاق بركبه، والتي لم يتوان فيها أهل مكة عن إيذاء المسلمين كانت هناك حوادث أخرىٰ تجري في مدينة "يثرب" القابعة علىٰ بعد ٥٠٠ كيلومتر من مكة. هذه الحوادث هي التي ستحدد مصير المسلمين في المستقبل، وتنقل مركز الدعوة من مكة إلىٰ تلك المدينة.

إن مدينة يثرب هي عبارة عن واحة كبرىٰ، ونظراً لما تتمتع به من مقومات زراعية هامّة كانت ومنذ قديم الزمان محط أنظار أهل وسكان الجنوب الذين انتقلوا إليها. وهي ذاتها المدينة التي أطلق عليها بعد هجرة الرسول إليها «مدينة النبي»، ومن ثمّ «المدينة».

كان ليثرب وضع اجتماعي خاص يختلف عما تتصف به مكة، فالاختلاف والتفاوت الطبقي هنا لا يُرىٰ بنفس الصورة الكائنة في مكة، فمعظم سكان المدينة لا

خبرة لهم في التجارة، وكانوا من المشتغلين بالزراعة. وأولئك المنهمكون بالمعاملات والصفقات هم من التجار الصغار المضطرين للعيش في هكذا محيط، وأمّا اليهود ذوو الخبرة والتجربة الكافية في الزراعة فهم يمتلكون أراضي خيبر الخصبة والمزارع المحيطة بالمدينة.

ذكر المؤرخون بأنه من حين إلىٰ آخر كان يدب النزاع بين اليهود وبين عَبَدَة الأصنام من العرب، وكان اليهود يقولون لهم بأن نبياً من بني إسرائيل سيظهر عاجلاً وسيتولىٰ قيادتنا والاشراف علينا وبذاك سنصبح قادة عليكم. وبذلك نضجت فكرة ظهور النبي في أذهان أهل يثرب بشكل جيد.

ومن جهة أخرىٰ فإن النزاع والصدام كان الصفة المميزة للعلاقات الكائنة بين القبائل المتعددة القاطنة في هذه المدينة.

وقبيل الهجرة بعدة سنوات حصل اقتتال شديد بين قبيلتي الأوس والخزرج، وتعرف تلك الحرب بيوم "البعاث" وقد خلف ذلك الصراع العديد من القتلىٰ من الجانبين، إلىٰ درجة أن الطرفين قد سئموا من ذلك وطلبوا الصلح، ولكن وطبق العادة الجاهلية والقبيلية الرائجة ولكي تتوقف الحرب وتتصالح الأطراف المتنازعة يجب أن تدفع الدية إلىٰ أهل المقتول، ويجب أن يعين هذا المبلغ رجل كبير يقبل الطرفان بحكمه، فضلاً عن أن الرجل الذي سيتولىٰ التحكيم يجب أن يكون بعيداً كل البعد عن ذلك النزاع ولذلك فإن توفر رجل كهذا كان أمراً غير ممكن في يثرب، فمعظم زعماء القبائل قد تدخلوا في هذا الصراع بشكل مباشر، هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ فإن أياً من زعماء القبائل غير مستعد لاعتبار نفسه أقل منزلة من الآخرين.

وقد ذكر المؤرخون بأن معظم سكان يثرب كانوا يرغبون بتنصيب عبد الله بن أبي بن أبي سلول زعيماً عليهم فهو رجل قوي نسبياً وقد ظل محايداً طوال فترة النزاع، وقد ذكر أيضاً بأنهم قد أعدوا له تاجاً لذلك. ولكن في نفس الوقت وقعت في

مكة حادثة أخرىٰ!.

كان للنبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ أسلوب خاص في التبليغ بحيث كان يذهب في كل موسم حج إلىٰ القبائل القادمة للحج، ويدعوهم للإسلام، وفي إحدىٰ السنين التقىٰ النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ بستة أشخاص من الخزرج وأبلغهم رسالته، وبعد أن سمعوا كلامه واشتموا رائحة الصلاح والصفاء والتقوىٰ رحبوا به، وقالوا: سنذهب إلىٰ قومنا ونبلغهم بدينك فلربما وقفت رحىٰ الحرب ببركة دعوتك هذه، فلو تمكنت من لمّ شملنا ستكون أعزّ شخص لدينا.

انطلق هؤلاء الأشخاص إلىٰ يثرب وأبلغوا قومهم بدعوة محمد﴿صلى الله عليه وآله﴾، فسرّ معظم سكان يثرب بذلك لأنهم -كما ذكرنا سابقاً- علىٰ علم ودراية بقصة ظهور النبي، فأرادوا التشرف بدعوة محمد﴿صلى الله عليه وآله﴾ إلىٰ مدينتهم، وبذلك سيفوتون الفرصة علىٰ اليهود.

من جهة أخرىٰ فإن من سيتولىٰ قيادتهم هو شخص معين من قبل الله وليس من قبل القبيلة، وهو ليس من سكان المدينة، ولم يشترك في الحروب والصراعات فيها.

وفي السنة الثانية وتزامناً مع حلول موسم الحج التقىٰ اثنا عشر شخصاً من سكان المدينة مع محمد﴿صلى الله عليه وآله﴾ في العقبة[1] ونصت بيعتهم علىٰ أن لا يشركوا بالله، ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أبناءهم، ولا يتهموا أحداً، ويطيعوا النبي في أعمال الخير التي يأمرهم بها، وأرسل النبي معهم رجلاً يعرف بـ«مصعب بن عمير» ليعلمهم القرآن وليطلع علىٰ أحوال المدينة، ومدىٰ ترحيب الناس بالإسلام.

وبعد سنة أخرىٰ أي في السنة الثالثة عشرة للبعثة، في أيام موسم الحج تجمع ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان بعد أداء مراسم الحج في العقبة.[2] والتحق بهم

١- العقبة وتعني المَرْقىٰ الصعب من الجبال وتقع بين منىٰ ومكة.

٢- ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا، السيرة، ج ٢، ص ٤٩ وقد ذكر في

رسول الله برفقة عمه العباس بن عبد المطلب، وقيل بأن أول من تكلم هو العباس حيث قال: يا معشر الخزرج! إن محمداً منّا حيث قد علمتم، وقد مَنَعناه من قَومنا، فهو في عزّ من قومه، ومَنَعَة في بَلده، وإنّه قد أبىٰ إلا الانحيازَ إليكم، واللحوقَ بكم، فإن كنتم تَرون أنَّكم وافون له بما دَعَوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن، فدعوه فإنه في عزّ ومَنَعَة من قَومه وبَلده، فردّوا علىٰ العباس قائلين: لقد سمعنا كلامك؛ فتكلم الآن يا رسول الله ما تُحبه ويُحبه ربك! فتكلمَ النبي﴿ﷺ﴾ فتلا آيات من القرآن، ودعا إلىٰ الله ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم علىٰ أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فبايعه ممثلو المدينة علىٰ أن يعادوا من يعاديه، ويحبوا من يحبه، وأن يقاتلوا كل من هبّ لقتاله، ولذلك سميت هذه البيعة ببيعة الحرب، وبعد هذه البيعة أجاز النبي﴿ﷺ﴾ للمسلمين الهجرة إلىٰ يثرب، فذهبوا إلىٰ يثرب وأحسن سكان يثرب ضيافتهم، وقد سمي - في التاريخ الإسلامي - من هاجر من مكة إلىٰ المدينة بـ«المهاجرين» ومن استضاف المهاجرين في المدينة بـ«الأنصار».

مؤامرة دار الندوة

بمجرد أن علم زعماء قريش بظهور مركز جديد لنشر الدعوة الإسلامية، والأهم من ذلك أن أهل المدينة قد بايعوا النبي﴿ﷺ﴾ بيعة الحرب أحسوا بالخطر المحدق بهم بشكل أكبر، لكونهم كانوا يخشون أن ينتقم النبي﴿ﷺ﴾ وينال منهم لما اقترفت أيديهم من أذىٰ ومضايقة له ولأعوانه، وعلىٰ فرض أنه لا ينوي محاربتهم فمع ذلك يعد خطراً كبيراً يهددهم، لأن يثرب هي أكبر المدن القريبة من مكة، وكل من تجار

قريش كان يذهب إليها ليبيع سلعه وبضائعه، ولكل منهم سوق وزبائن في تلك المدينة.

فلو فرّطوا بهذه المدينة لألمّ بهم ضرر وعجز اقتصادي فاحش، ولتجنب هذه الهزيمة وهذا الفشل اضطروا إلىٰ غضّ النظر عن الأحلاف الجاهلية والقبيلية وعقدوا العزم علىٰ قتل محمد﴿صلى الله عليه وآله﴾ ليريحوا أنفسهم بذلك منه. ولكن قتله ليس بالأمر السهل، فبنو هاشم لن يسكتوا أبداً وسينتقمون لذلك، وبذلك سيدوم سفك الدماء بينهم، وللوصول إلىٰ الحل المناسب عقدوا اجتماعاً في دار الندوة للتشاور في هذا الأمر وتوصلوا في النهاية إلىٰ نتيجة مفادها أن ينتخب فارس من كل قبيلة وأن يقتلوا محمداً بسيوفهم في لحظة واحدة، وفي هذه الحالة لن يكون القاتل شخص واحد، بل عدة أشخاص، وبذلك لن يتمكن بنو هاشم من الانتقام له، فهم غير قادرين علىٰ قتال كل القبائل وهكذا سيكتفون بالمطالبة بالدية.

في تلك الليلة التي قررت فيها قريش ارتكاب تلك الجريمة الشنعاء، خرج النبي من مكة بأمر من ربه، وأمر علياً﴿عليه السلام﴾ بالنوم في فراشه بينما انطلق هو ومعه أبو بكر بن أبي قحافة إلىٰ يثرب.

وتوقفا لثلاثة أيام متوالية في غار قرب مكة يعرف بـ«غار ثور» ليأس المتتبعون لهم من اللحاق بهم أو اقتفاء آثارهما، ومن ثم توجهوا إلىٰ يثرب خفية.

النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ في المدينة

يختلف كتاب السيرة النبوية الشريفة في تعيين اليوم من شهر ربيع الأول الذي خرج فيه النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ من مكة، كما يختلفون في اليوم الذي وصل فيه إلىٰ المدينة.

ذكر ابن هشام الذي سجل مسيره بدقة، أن النبي﴿ﷺ﴾ قد وصل إلىٰ قبا[١] في منتصف يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول.

ويرىٰ ابن الكلبي أن خروج النبي﴿ﷺ﴾ كان يوم الاثنين أول شهر ربيع الأول ووصوله إلىٰ قبا يوافق يوم الجمعة الثاني عشر من ذلك الشهر، وذكر البعض أنه قد وصل إلىٰ هناك في اليوم الثامن من شهر ربيع الأول بينما يعتبر المتأخرون من المؤرخين الإسلاميين والأوربيين أن سفره هذا دام تسعة أيام، وأنه قد وصل إلىٰ قبا وهي واحةٍ بالقرب من المدينة في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الرابعة عشرة للبعثة، والموافق للرابع والعشرين من شهر أيلول / سبتامبر ٦٢٢م.

وكما سنذكر في الأحداث التي جرت في خلافة عمر بن الخطاب فإن هجرة النبي﴿ﷺ﴾ من مكة إلىٰ المدينة أمست مبدءاً للتاريخ عند المسلمين، بينما اتخذت بداية السنة أول شهر محرم وهو أول شهر في السنة القمرية.

بنىٰ الرسول﴿ﷺ﴾ أثناء توقفه في قبا مسجداً لا زال يعرف حتىٰ الآن بمسجد قبا، فهل هو نفس المسجد الذي قال فيه القرآن الكريم:

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللّهُ يُحِبُّ الْمطَّهِّرِينَ﴾[٢]

يقول الشيخ الطوسي أن في ذلك وجهين، ويعتبر ابن عباس والحسن وعطية بأن ذلك المسجد هو مسجد قبا بينما يرىٰ ابن عمرو بن مسيب أنه مسجد المدينة.

وأما عمر بن شبه فيقول بأن المسجد الذي أسس علىٰ التقوىٰ هو مسجد رسول

١- سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٠٩.

٢- التوبة/٩: ١٠٨.

الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ والمسجد الذي أسس علىٰ التقوىٰ والرضوان هو مسجد قبا.[١]

وذكر الطبري في تفسيره روايات الطرفين، وحدّث عن سهل بن سعد أن رجلين اختلفا في زمان رسول الله في ذلك، فأتيا إلىٰ رسول الله، فقال لهم: أنه مسجدي.[٢]

وأغلب الظن أن الآية كانت تصف مسجد المدينة لأن مدة سفر رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ لم تكن من الطول لتسمح له أن يتوقف في قبا ويبني مسجداً، وفي السنوات التالية ومع ظهور التنافس بين القبائل، ادعىٰ بنو عمرو بن عوف، ومعهم التابعون في هذه الواقعة بأن مسجدهم هذا هو أول مسجد في الإسلام.

بقي علي﴿عليه السلام﴾ في مكة ثلاثة أيام بعد هجرة الرسول ليعيد الأمانات المودعة عند رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ إلىٰ الناس، ومن ثمّ ليصطحب حرم رسول الله ومن جملتهم فاطمة﴿عليها السلام﴾ إلىٰ المدينة، وفي قبا في بيت كلثوم بن هدم التحق بالنبي﴿صلى الله عليه وآله﴾. انطلق النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ يوم الجمعة إلىٰ المدينة برفقته جمع من بني النجار وأقام أول صلاة جمعة في قبيلة بني سالم بن عوف، وعند وصوله إلىٰ المدينة راح شيخ كل قبيلة وزعيم كل طائفة يدعو النبي إلىٰ بيته لينال شرفاً أكبر من الباقين، فقال كل منهم: يا رسول الله! أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة، قال: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة، فخلوا سبيلها - وهذه الفكرة تشبه فكرة التحكيم عند نصب الحجر الأسود في مكة، فهناك وفّر سفك الدماء، وهنا استطاع بتدبيره هذا عدم تمكين أحد من هؤلاء الدعاة من استضافته واكتساب شرف ومنزلة من جرّاء ذلك، والتسبب بحزن الآخرين وتضايقهم من حرمانهم من هذا الشرف - فانطلقت حتىٰ إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت علىٰ باب مسجده﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ - في المكان الذي بنىٰ فيه مسجده لاحقاً، وهو جزء من المسجد الكائن حالياً- وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين من بني

١- التبيان، ج ٥، ص ٢٩٩.

٢- تفسير جامع البيان، ذيل نفس الآية.

النجار، وهما في حجر معاذ بن عفراء سهل وسهيل بن عمرو، كانوا يجففون تمرهم عليه، فلما بركت ورسول الله ﷺ عليها لم ينزل وثبت بعيد ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثمّ التفتت إلىٰ خلفها، فرجعت إلىٰ مبركها أول مرة، فبركت فيه، ثم تحلحلت ورزمت وألقت بجرانها، فنزل عنها رسول الله ﷺ فاحتمل أبو أيوب رحله، فوضعه في بيته ونزل عليه رسول الله ﷺ، وسأل عن المربد لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو، وهما يتيمان لي، وسأرضيهما منه، فاشتراه النبي من معاذ، فأمر رسول الله ﷺ أن يبنىٰ مسجداً، وهناك بنىٰ مسجداً يعد أساس المسجد الحالي. ونزل رسول الله ﷺ علىٰ أبي أيوب حتىٰ بنىٰ مسجده ومساكنه، فعمل فيه رسول الله ﷺ ليُرغب المسلمين في العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار، ودأبوا فيه. وقد أعدّ في أحد أطراف المسجد صُفَّة[1] يقيم فيها المحتاجون والفقراء من الصحابة. وكان هؤلاء الذين يعيشون في هذه الصفة يعرفون بأصحاب الصفة وهم من خيار أصحاب رسول الله.

أول قانون عام في الإسلام

لم يمض وقت طويل علىٰ إقامة الرسول في يثرب حتىٰ رأىٰ الرسول ﷺ بأنه من الضروري تنظيم وضع الناس الاجتماعي، وكما ذكرنا سابقاً، فإن أعداداً كبيرة من العرب كانت تعيش في المدينة، وكل منهم يميل إلىٰ أحد الفريقين القويين الأوس أو الخزرج، وفضلاً عن العرب فإن اليهود أيضاً كانوا يعيشون داخل المدينة وعلىٰ أطرافها، وكذلك كان لهم ارتباط وعلاقة بالأوس والخزرج وكانت الحالة الراهنة

١- مأوىٰ مظلل في المسجد كان يأوي إليه فقراء المهاجرين.

تتطلب تدوين قانون ومعاهدة تبين وتحدد حقوق هذه الفرق والقبائل وحلفائهم.

وبناءاً علىٰ ذلك تمّ إمضاء اتفاق المدينة المعروف بين النبي وزعماء القبائل واليهود وقد أعتبر «القانون الأساسي الأول» وعلىٰ ما يبدو فإن إمضاء هذا الاتفاق جاء متزامناً مع الشهور الأولىٰ لدخول النبي﴿ﷺ﴾ إلىٰ المدينة:

أولاً: لأن ابن هشام وابن اسحاق قد ذكرا نص هذا القانون ومتنه مع خطبة النبي الأولىٰ في المدينة، وكذلك فإنه قد نوّه وأشير في هذا القانون إلىٰ حقوق اليهود الاجتماعية كما سنرىٰ لاحقاً.

وثانياً: لأنه قد تمّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلىٰ مكة بعد وصول النبي﴿ﷺ﴾ إلىٰ المدينة بسبعة عشر شهراً، وهو نفس الوقت الذي أظهر اليهود فيه غلاً لمحمد وللمسلمين، وكذلك قبل وقوع حرب بني قينقاع بعيد غزوة بدر بمدة وجيزة، لذلك فإن تخمين بعض المؤرخين الإسلاميين بأن هذا القانون لم يدون قبل السنة الخامسة للهجرة (إن كان المقصود هو نفس هذا القانون) لا يبدو صحيحاً، وقد نص القانون علىٰ ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي﴿ﷺ﴾ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش علىٰ ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف، والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف، وبنو النبيت) علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا[1] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل وأن لا يحالف مؤمن مولىٰ مؤمن دونه، وأنّ المؤمنين المتقين علىٰ من بغىٰ منهم أو ابتغىٰ دسيعة

١- المفرح: المثقل بالدين والكثير العيال.

ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً علىٰ مؤمن، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من زفر فإن له النصر مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا علىٰ سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية يعقب بعضها بعضا، وإن المؤمنين يبيء بعضهم علىٰ بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين علىٰ أحسن هدي وأقومه، وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه علىٰ مؤمن، وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة، فإنه قود به إلا أن يرضىٰ ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلىٰ الله عزوجل وإلىٰ محمد﴿ﷺ﴾، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن زفر بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار بني النجار بني الأوس بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة وجهلة، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم، وإن موالي ثعلبة وجهلة، وإن بطانة زفر وجهلة، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد﴿ﷺ﴾، وإنه لا ينحجز علىٰ نار جرح، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم، وإن الله علىٰ أبر هذا، وإن علىٰ اليهود نفقتهم وعلىٰ المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر علىٰ من حارب أهل

هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم[١]، وإنه لم يلث امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار مضار، ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلىٰ صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلىٰ مثل ذلك، فإنه لهم علىٰ المؤمنين إلا من حارب في الدين علىٰ كل أناس حصتهم في جانبهم الذي قبلهم، وإن زفر الأوس مواليهم وأنفسهم علىٰ مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض[٢] من أهل هذه الصحيفة، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون السهو، وآثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقىٰ، ومحمد رسول الله ﷺ.

تآخي المهاجرين والأنصار

كما ذكرنا سابقاً فإنه ولقرون ممتدة قبل ظهور الإسلام كان سكان شبه الجزيرة العربية ينقسمون إلىٰ مجموعتين حضري وبدوي، فسكان الجنوب كانوا يقطنون المدن بينما يعيش من هم في المركز والشمال في الخيام كبدو رحل ثمّ ما لبث أن اتخذ البدو وهم من يشتغلون بتربية المواشي أن أقاموا في المدن الساحلية والقريبة من الساحل وانصرفوا للتجارة.

١- قال ابن اسحاق وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا علىٰ نفسه.

٢- قال ابن هشام البر المحسن.

كان عرب مكة ومن حولها ومن جملتهم قريش يتخذون من الخيام سكناً لهم ثم ما لبث البدو أو أولئك الذين أصبحوا تجاراً فيما بعد يستخفون بمن هاجر من الجنوب ويحتقرونه وكانوا يعدون الزراعة وهي مهنة المهاجرين (من الجنوب) بأنها مهنة وضيعة وحقيرة. وكما ذكرنا لمرات عديدة فعرب الجنوب كانوا من القحطانيين بينما يعتبر الشماليون أنفسهم من العرب العدنانيين. (وقد تغيرت هذه التسميات فيما بعد) وبمجرد وصول المهاجرين من قريش وهم عرب عدنانيون إلىٰ مدينة العرب القحطانيين وهم الأنصار، كان يحتمل توقد نار الضغينة القديمة فيما بينهم، ولكي يوحد النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ هاتين الفرقتين (أي المهاجرين والأنصار) عقد بينهم عقد الأخوة، وأصبح كل مهاجر أخاً لرجل من المدينة وأما النبي فقد اتخذ من علي﴿عليه السلام﴾ أخاً له وقال له: أنت أخي في الدنيا والآخرة.

كما أوردنا في الصفحات السابقة فإن أحد مميزات البدو التأييد والمساواة مع من يرتبطون بهم وقد استفاد النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ من هذه الخصلة الروحية لتقوية الوحدة الإسلامية وتدعيمها.

وصل الأمر بهذه المساواة والأخوة إلىٰ درجة راح يقدم فيها المسلم أخاه المسلم علىٰ نفسه. وكما نقل وذكر فقد خاطب النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ الأنصار في يوم تقسيم غنائم الحرب مع بني النضير قائلاً: لو شئتم أشركتم المهاجرين معكم في الغنائم وإلا فإن الغنائم كلها لكم، فقالوا: بل نهبهم إياها، وليس هذا وحسب، بل نشركهم في أموالنا وبيوتنا.

الحكومة المرتكزة علىٰ الدين

بعد أن أصبحت يثرب مركز المسلمين الأول، وبعد أن تحققت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، أو التضامن بين العرب القحطانيين والعدنانين توسعت حدود

المسلمين وتمّ تحديد حقوق كل من المسلمين واليهود، وحانت الفرصة المؤاتية ليعلن الإسلام المرحلة الثانية من وجوده ويدخلها.

وكما نعلم فإن شعار الإسلام في مكة كان التوحيد (أي الدعوة إلىٰ الله الواحد وترك عبادة الأصنام) وكذلك القيام بشعائر عبادة مختصرة، بينما بسط الإسلام في المدينة ظلاله الاجتماعية والسياسية شيئاً فشيئاً، وأصبح الأذان رمزاً للصلاة وبدأ تطبيق الشريعة، وأحكام المعاملات، وسداد الضرائب، والحدود والأحكام السياسية الأخرىٰ، وظهرت حكومة مبتنية علىٰ الدين قوامها العدالة الاجتماعية، وفي نفس الوقت احترام الرأي العام.

ومن الطبيعي أن يتعارض مثل هذا النظام مع منافع البعض ممن كان يفكر بحكم يثرب قبيل قدوم النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ إليها، ومن أحسوا بالخطر المحدق بأطماعهم الاقتصادية نتيجة التغير الذي طرأ علىٰ يثرب، فمن هم هاتان الفرقتان؟

المنافقون واليهود

مع أن الأغلبية العظمىٰ من سكان يثرب هم من المسلمين أو المؤيدين للنبي﴿صلى الله عليه وآله﴾، ولكن هذا لا يعني بأن المدينة وأطرافها تعيش في هدوء تام وتقدم الطاعة الكاملة.

فقد كانت الأمور تسير نحو تسلم عبدالله بن أبي لزعامة المدينة، ولكن ومع قدوم محمد﴿صلى الله عليه وآله﴾ ووصوله إلىٰ المدينة حرم عبدالله من تلك الزعامة، ولكنه لم يجلس ساكناً مع أنه كان يدعي الإسلام ظاهراً، فقد كان يحيك المؤامرات والفتن ضد محمد﴿صلى الله عليه وآله﴾ والمسلمين وكانت له علاقات مشبوهة باليهود أيضاً.

هذه الفرقة التي ورد التعبير عنها في الآيات المدنية الأولىٰ بالمنافقين[١] كان أفرادها يحيكون الفتن ويزرعون الأشواك في طريق النبي والمسلمين وقد كان التعامل مع هذه الفرقه أصعب من التعامل مع المشركين واليهود فهم يدّعون الإسلام ويندسون بين القوم، ولذلك لا يمكن للنبي أن يحاربهم لكونهم مسلمين ظاهرياً.

كانت الآيات القرآنية النازلة تهددهم من حين لآخر وتعلمهم بأن الله ورسوله يعرف ما يجول في أعماقكم وتعلمهم بأن إسلامكم هذا هو لحماية أنفسكم وصون سلامتها:

﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾[٢]

استمر مكر عبدالله ومحاولته عرقلة تقدم الإسلام حتىٰ سنة وفاته (السنة التاسعة للهجرة). وأما اليهود فمع أننا رأينا كيف خصهم قانون المدينة بحقوق متعددة إلىٰ درجة أنه كان لهم نصيب معين من الغنائم الحربية، ومع أنهم ظهروا بمظهر المؤيد للمسلمين ودخل بعضهم الإسلام، ولكنهم أظهروا عدم الرضىٰ لاحقاً، وسبب عدم الرضى هذا هو أنهم فضلاً عن تسلطهم علىٰ اقتصاد يثرب كان لديهم صفقات ومعاملات تجارية مع العرب البدو، والمشركين في مكة، وقد كانوا يتوقعون تعاظم نفوذهم الاقتصادي بوصول عبدالله بن أبي إلىٰ زعامة المدينة،

١- يرجع إلىٰ الآيات الأولىٰ من سورة البقرة والأيات الأخرىٰ التي ذكرت في سورة المنافقين.

٢- المنافقون /٦٣: ١.

ولكن وصول الرسول﴿ﷺ﴾ إلىٰ المدينة وانتشار الإسلام فيها منع من ازدياد وتعاظمهم هذا النفوذ.

وفضلاً عن هذا، فلم يكن اليهود ليقبلوا نبياً ليس من نسل اليهود، وهكذا أظهر اليهود مخالفتهم للرسول﴿ﷺ﴾ بعد هذه الفترة. وكما ذكرنا سابقاً فإن لعبدالله بن أبي ظاهراً يدٌ مؤثرة في إقدام اليهود وتحركهم هذا وكان اليهود يقولون: إن النبي الذي كنا ننتظره ليس محمداً، وكانوا يواجهون المسلمين بالتوراة والإنجيل لمعارضة آيات القرآن وكانوا يقولون ما يقوله القرآن ليس كالذي تخبر به كتبنا. وقد نزلت آيات متعددة في القرآن تشير إلىٰ تحريف التوراة والإنجيل علىٰ مرّ الزمان، وليحفظ علماء اليهود ماء وجههم قاموا بتغيير تلك الآيات وتبديلها. وفي النهاية أشار القرآن إلىٰ علاقة الإسلام باليهود والنصارىٰ ولكي يفهم العرب بأنهم أمة مستقلة عن اليهود قال: العرب علىٰ ملة إبراهيم وإبراهيم هو الجد الأعلىٰ لإسرائيل:

﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحاجُّونَ فِي إِبْراهيمَ وَما أُنْزِلَتِ التَّوْريٰةُ وَالْإنجيلُ اِلاّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تعْقِلوُنَ. ها أَنْتُم هَؤلاءِ حاججْتُمْ فَيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وأنتم لا تَعْلمُون. ما كان إِبْراهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصرانِيّاً وَلِكن كانَ حَنيفاً مُسْلِماً وما كانَ مِنَ المُشْركِينَ﴾[1]

تغيير القبلة

كان تغيير القبلة هو الحادثة التي جرت فيما بعد، وفصلت بين المسلمين واليهود.

١- سورة الحج /٢٢: ٧٨.

وقد كان النبي﴿ﷺ﴾ ولسبعة عشر شهراً بعد دخوله المدينة يتجه إلىٰ المسجد الأقصىٰ أثناء الصلاة وكان اليهود يقولون لم يكن لمحمد قبلة إلىٰ أن علمناه، فحزن الرسول﴿ﷺ﴾ من هذا القول وفي أحد الأيام وبينما كان يؤدي الصلاة في مسجد بني سلمة (صلاة الظهر في شعبان من السنة الثانية) نزلت عليه الآية التالية:

﴿قد نَرَىٰ تَقَلُّب وَجْهك فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّك قِبْلَةً تَرْضَيها فَوَلِّ وَجْهَك شَطْرَ الْمسْجِدِ الْحَرَام وَحَيْثُ ما كنتم فَوَلّوا وُجوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيعَلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن ربِّهِمْ وَمَا اللّه بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ﴾[١]

فتوجه النبي في نفس الوقت نحو الكعبة، وقد عرف هذا المسجد في التاريخ الإسلامي بمسجد «ذو القبلتين». وقد اغتاظ اليهود والمنافقون كثيراً لتغيير القبلة من المسجد الأقصىٰ إلىٰ مكة. وكانوا ينتقدون المسلمين قائلين: كنتم حتىٰ زمن ليس ببعيد تستقبلون المسجد الأقصىٰ في صلواتكم ولكن قبلتكم تغيرت اليوم، فنزلت الآية التالية بحق هؤلاء:

﴿سيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلَّيهمْ عَنْ قِبلَتِهمُ الَّتي كانوا عَلَيها قُل للّه الْمَشْرِق والْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشاءُ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيم﴾.[٢]

وقد ذكر تاريخ تحويل القبلة من بيت المقدس إلىٰ الكعبة في كلّتي الروايتين عن ابن إسحاق[٣] في الشهر السابع عشر للهجرة، وكذلك في القرائن والأسناد المتأخرة.[٤]

١- البقرة/٢: ١٤٤.

٢- البقرة/٢: ١٤٢.

٣- سيرة ابن هشام، ج٢، ص١٧٦.

٤- اليعقوبي، ج٢، ص٣١؛ وفي رواية الطبري بين الشهر السادس عشر والثامن عشر

الفصل الثالث

شروع الاشتباكات

النزاع مع مكة

من اليوم الذي عقد فيه النبي﴿ﷺ﴾ حلف العقبة الثاني، كان يتوقع أن يكون الصدام بين المسلمين وقريش أمراً حتمياً لا مفر منه.

ولم تمض سنة علىٰ استقراره في يثرب إلا وقد ظهرت تلك النزاعات. فالمهاجرون الذين قدموا من مكة إلىٰ المدينة، ومع أنهم قوبلوا بحسن ضيافة من قبل أهل المدينة، ولكن كان من المستحيل بالنسبة إليهم أن يظلوا ضيوفاً إلىٰ الأبد.

ومن جهة أخرىٰ – وكما ذكرنا – فإن أهل المدينة كانوا يشتغلون في الزراعة، بينما لم يكن لأهل مكة باع في ذلك، بل كانت التجارة والصفقات التجارية هي مهنتهم الأولىٰ والرسمية.

فلو أراد المهاجرون أن يمارسوا مهنتهم السابقة لاحتلت يثرب مكان مكة التجاري من جهة، ولأغلقوا طريق مكة التجاري في وجه تجار مكة من جهة ثانية، وهذا يعني تعريض طريق مكة التجاري للخطر. ولو لم تقدم يثرب علىٰ ذلك وظلت مكة ترسل قوافلها بطمأنينة وأمان إلىٰ غزّة وخليج العقبة من جهة وإلىٰ باب المندب والمحيط الهندي من جهة أخرىٰ فسيكون كلا الطريقين التجاريين في قبضة مكة؛ ولو انتهىٰ الأمر بهذا فمن الممكن أن لا يعتبر مهماً لهذه الدرجة، ولكن مكة لم تكن لتقتنع بنفوذها هذا ومن المستحيل أن تدع يثرب وشأنها في المستقبل؛ فعندما كان النبي﴿ﷺ﴾ في مكة، وكان عدد المسلمين لا يزال قليلاً كانوا يشعرون بخطر زوال سلطتهم ونفوذهم الاقتصادي، فالآن وبعد أن قامت مدينة كبيرة ومُهيأة باستقبال الإسلام واستضافته، فكيف يشعرون بالأمان؟ كما أن المدينة كانت تدرك أن عليها أن تمسك بزمام المبادرة أولاً لكي لا تطمع مكة فيها.

ومنذ سنوات الهجرة الأولىٰ شرعت بعض الجماعات بالتعرض لقوافل مكة – إذا اشترك النبي في هذه النزاعات سميت غزوة، ولو بقي﴿ﷺ﴾ في المدينة وأرسل

رجاله وحدهم سميت بالسرية - وقد وقعت أول غزوة في شهر صفر من السنة الثانية للهجرة والتي سميت بغزوة أَبْواء[١] أو وَدّان.[٢] ولم يحدث صدام في هذه الغزوة، وجاءت بعدها غزوة بواط في شهر ربيع الأول والتي لم يقع فيها صدام أيضاً.

وقد شاع خبر في شهر جمادىٰ الأولىٰ مفاده بأن قافلة قريش بقيادة أبي سفيان عازمة إلىٰ الشام، فانطلق النبي ﷺ إليهم حتىٰ ذات العشيرة[٣] ولكن القافلة كانت قد سبقتهم بالعبور.

يروي ابن هشام عن عمار بن ياسر أنه قال:

كنت أنا وعلي رفيقين مع رسول اللّه في غزوة العشيرة، فنزلنا منزلاً فرأينا رجالاً من بني مدلج يعملون في نخل لهم، فقلت لو انطلقنا فنظرنا إليهم كيف يعملون، فانطلقنا، فنظرنا إليهم ساعة، ثم غَشينا النعاس، فعمدنا إلىٰ صور من النخل، فنمنا تحته في دقعاء من التراب، فما أيقظنا إلا رسول اللّه أتانا وقد تتربنا في ذلك التراب، فحرك علياً برجله، فقال:

قم يا أبا تراب! ألا أخبرك بأشقىٰ الناس أحمر ثمود عاقر الناقة والذي يضربك يا علي على هذا (يعني قرنه) فيخضب هذه منها (وأخذ بلحيته).[٤]

وبعد هذه الغزوة وقعت سرية انطلق فيها سعد بن أبي وقاص إلىٰ مكان يسمىٰ

١- أبواء: قرية من قرىٰ المدينة تبعد عن الجحفة قرابة ٢٣ ميلاً.

٢- ودان: قرية كبيرة بين مكة والمدينة تبعد عن أبواء بمقدار ٨ أميال.

٣- منطقة في ينبع بين مكة والمدينة.

٤- السيرة، ج ٢، صص ٢٣٦-٢٣٧.

خَرّار[١] ولكن لم يحدث في هذه السرية نزاع وصدام.

بعد غزوة ذات العشيرة أغار كرز بن جابر الفهري علىٰ قطيع مواشي المدينة، فخرج النبي﴿ﷺ﴾ وراءه حتىٰ سفوان، وهي منطقة قرب بدر، ولكن كرز كان قد مضىٰ.

غالباً ما كانت تنتهي هذه الغزوات بلا نتيجة لأن كثيراً من جواسيس العدو في المدينة كانوا يعلمون بعزم النبي﴿ﷺ﴾ فيخبرون قوافل مكة قبل تحرك قوات المسلمين، وبذلك كانوا يحذرونهم من الخطر القادم نحوهم، فكانت القوافل تغير مسيرها أو تسرع في الحركة.

وفي شهر رجب من السنة الثانية للهجرة أرسل النبي﴿ﷺ﴾ عبدالله بن جحش الأسدي برفقة سبعة رجال من المهاجرين وحمّلهم كتاباً، وقال: لا تفتحوا هذا الكتاب قبل انقضاء يومين علىٰ مسيركم، ثم اعملوا بكل ما كتب في هذا الكتاب. فتح عبدالله الكتاب بعد مسيرة يومين، فوجده قد كتب فيه ما يلي: امض في سيرك حتىٰ تصل إلىٰ نخلة بين مكة والمدينة، وهناك انتظر قريشاً وأطلعنا بما تقوم به قريش. فقال عبدالله لقومه إن الأمر هو هذا وسأطيع ذلك، فمن أراد منكم الشهادة فليأت معي ومن يخاف القتل فليرجع، فأطاع كل من كان معه أمر رسول الله، فكمن عبدالله في نخلة لحين وصول عمرو بن الحَضْرَمي إلىٰ هناك، ومن ثمّ انطلق مع جماعة يسيرون معهم فظن أفراد القافلة بأن هؤلاء هم من الذاهبين لأداء العمرة، وقد صادف ذلك مع نهاية شهر رجب، وعندما وصلوا إلىٰ حدود الحرم ،قال عبدالله: لو دخل هؤلاء إلىٰ الحرم فمن غير الممكن قتالهم، ولو حاربنا هنا سنكون قد نقضنا حرمة الشهر الحرام فما العمل؟ وفي النهاية هاجموا القافلة واستولوا علىٰ بضاعتها وانطلقوا نحو المدينة ومعهم أسيرين.

١- منطقة قرب الجحفة.

ولكن هذا الصدام صعب علىٰ المسلمين وراحوا يلومون عبدالله علىٰ الإقدام علىٰ الحرب في الشهر الحرام، إلىٰ أن نزلت الآية التالية:

﴿يَسأَلُونَك عَنِ الشَّهْرِ الْحرامِ قِتالٍ فِيهِ قُلْ قِتٰالٌ فيهِ كَبيرٌ وَصَدٌّ عن سَبِيل اللّه وَ كُفْرٌ بهِ والْمَسْجِد الْحرام وَإِخراجُ أَهْلِهِ مِنْه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتىٰ يردوكم عن دينكم إن استطاعوا...﴾[1]

وبنزول هذه الآية كفّ المسلمون عن تقريع عبد الله وجماعته.

غزوة بدر

وفي هذه الأوقات وصل خبر إلىٰ النبي مفاده أن قافلة كبيرة بإمرة أبي سفيان تتجه من الشام إلىٰ مكة.

وقد ذكر أن القافلة تتألف من ألف ناقة وفيها من الأموال ما يقارب الخمسين ألف دينار، فجهز النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ جيشاً من ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، ربعهم من المهاجرين والبقية من الأنصار، فنصب هؤلاء كميناً للقافلة قرب بئر بدر الذي يقع علىٰ الطريق بين المدينة ومكة. فعلم أبو سفيان بما أقدم عليه المسلمون فأطلع أهل مكة علىٰ ذلك من جهة، وغيّر مسيره ووصل بقافلته إلىٰ بر السلامة من جهة أخرىٰ.

وصل خبر تهديد القافلة إلىٰ مكة، فاغتاظ أبو جهل غيظاً شديداً فجهز جيشاً

١- البقرة/ ٢: ٢١٧.

من تسعمائة رجل، ومع أنه سمع بأن القافلة قد نجت من الخطر ولكنه لم يعد بجيشه، وقال: يجب أن نلقن أهل يثرب درساً لكي لا ترتكب مثل هذه الأفعال في المستقبل.

ومع وصول المسلمين ورجال مكة إلىٰ بدر وتقابلهم هناك، لم يكن هناك مفر من الصدام والحرب فانطلق المسلمون نحو آبار بدر وسيطروا عليها، بينما اضطر جيش مكة المختبىء خلف التلال إلىٰ الخروج من المخبأ حين أمسوا بلا ماء، واندلعت الحرب بينهما رجل لرجل، ومع أن رجال مكة كانوا ثلاثة أمثال رجال يثرب عدداً ولكنهم هزموا، وقتل أبو جهل وسبعون رجلاً فيها من وجوه قريش وبطونها، وأسر عدد مثله. بينما استشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً.

في هذه الحرب فضلاً عن التضحيات والنصرة التي قام بها الإمام علي﴿عليه السلام﴾ للنبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ كان سنداً لجيش الإسلام في هذه الحرب، حيث قتل أمير المؤمنين عدة أبطال من رجال مكة ممن عرفوا بالشجاعة، وكانت شجاعته هي التي جعلت من انتصار جيش الإسلام أمراً مسلماً وحتمياً.

كان هذا أول انتصار كبير للمسلمين كما أنهم حصلوا علىٰ غنائم حربية كبيرة، وقد وقعت هذه الحرب في السابع عشر من شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة.

من دون شك فإن السبب الرئيسي لانتصار المسلمين في هذه الحرب هو قوة إيمانهم، وأما ما يقوله المؤرخون الغربيون من أن رجال يثرب كانوا أشد قوة وأقوىٰ جثة من أهالي مكة هو توجيه وتبرير لا أساس له من الصحة، ولو فرضنا صحته، فليس له تأثير حقيقي في هذا الانتصار.

وفضلاً عن الانتصار العسكري فإن هذه الحرب قد أثرت من الناحية الدينية في نفوس أهل يثرب وأطرافها تأثيراً قوياً، وأدركوا بأنهم انتصروا علىٰ هذا العدو القوي بالإيمان والاتكال علىٰ الله فقط.

وأمّا عن تأثير هذه الحرب من الناحية المعنوية، فنشير هنا إلىٰ أنه ولسنوات طوال بعد رحلة الرسول﴿صلى الله عليه وآله﴾ كانت القبائل والطوائف تفتخر وتعتز بمشاركة

الآباء والأجداد في تلك الحرب.

عندما رأت القبائل المحيطة بمكة بأن محمداً﴿ﷺ﴾ بجماعته الصغيرة هذه، والتي لا تبلغ من حيث العدد ثلث قريش، قد هزم قريشاً بكل شهرتها وعظمتها، قالوا: هذا دليل علىٰ صدق دينه وحقانيته، والله قد أعان محمداً ليتغلب علىٰ الأعداء. ومن ناحية أخرىٰ أدركت قريش وجوب عدم التساهل بأمر محمد ويثرب.

ومن مات من قريش في هذه الحرب كانوا من الرجال ذوي الخبرة التجارية والذين يمسكون بزمام حياة قريش الاقتصادية.

لم تكن قريش تتصور يوماً أن يهزمهم يتيم أبي طالب هذا بمساندة جماعة من المزارعين، وأدرك أهلها بأن أمر النبي﴿ﷺ﴾ليس بالسهولة التي كانوا يتصورونها فراحوا يستعدون ويجهزون أنفسهم للحرب فعسىٰ أن يقضوا عليه أو يخرجوه من يثرب.

الصراع مع اليهود

كما ذكرنا لم تمض بضعة أشهر علىٰ إقامة النبي﴿ﷺ﴾ في المدينة حتىٰ بدأ اليهود بإظهار مخالفتهم ومعارضتهم. وقد تجاوز الأمر ذلك حتىٰ خاطبهم القرآن (بما معناه) أن أساس دين الإسلام هو دين إبراهيم وأن إبراهيم لم يكن يهودياً ولم يكن نصرانياً، بل كان مسلماً حنيفاً والإسلام هو دين الحنيفية.

وانفكت الصلة بين المسلمين واليهود إثر تغيير القبلة من بيت المقدس إلىٰ مكة، وغَضَب اليهود واضطرابهم لذلك، وعزموا علىٰ مضايقة المسلمين وإيذائهم.

وقع أول نزاع مع اليهود بعد عدة أسابيع من غزوة بدر والانتصار الكبير الذي حققه المسلمون فيها.

كان يهود بني قينقاع[١] يسكنون قلعة خارج المدينة ويشتغلون بالصياغة وأعمال الحدادة.

يروىٰ أن امرأة عربية ذهبت إلىٰ سوق بني قينقاع وباعت سلعتها فيه وجلست أمام أحد دكاكين الصاغة، فقام أحد اليهود بربط ذيل ثوبها من الخلف، وعندما نهضت المرأة واقفة سُحب ثوبها نحو جهة واحدة، فانهال عليها اليهود ضحكاً وسخرية، فعلا صوت المرأة وطلبت الغوث والمساعدة من المسلمين، واشتدت حدة الأمر أكثر فأكثر، ولبىٰ أحد المسلمين نداء المرأة، وقتل ذلك اليهودي، فاستشاط اليهود غضباً، وقاموا بقتل الرجل المسلم، وهكذا اشتد سعير الفتنة، وبعد هذه الواقعة حذر النبي﴿ﷺ﴾ اليهود مما آل إليه حال قريش، وقال لهم أنهم إن أرادوا أن يبقوا هنا فعليهم أن يسالموا. وقال بنو قينقاع: لا تغرنك هزيمة أهل مكة، فهم ليسوا بفرسان ولا رجال حرب ولو جمعتنا الحرب معك مرة لأريناك من نحن!.

فنزلت هذه الآية الشريفة:

﴿قُل للَّذينَ كَفروا سَتُغْلبون وَتُحشرون إلىٰ جَهنَّم وبئس المهادُ قد كان لَكُمْ آيةٌ في فئتين التَقَتَا فئةٌ تُقاتل في سبيل الله وأُخرىٰ كافرةٌ﴾[٢]

فاضطرّ النبي﴿ﷺ﴾ لمحاصرتهم ودام حصارهم خمسة عشر يوماً، وعندما أعلن اليهود استسلامهم امتنع النبي عن قتلهم بالرغم من إصرار عبدالله بن أبي، وأبعدهم إلىٰ الشام. وقد تمّ حصارهم في شهر شوال من السنة الهجرية الثانية.

١- لقب طائفة من اليهود وهو اسم سوق في المدينة ينسب إليهم (معجم البلدان).
٢- آل عمران/٣: ١٢-١٣.

وفي شهر ذي الحجة من تلك السنة الهجرية وقعت غزوة السويق.[١]

كان أبو سفيان قد نذر بعد عودته من غزوة بدر بأن لا يغتسل غسل جنابة حتىٰ يقاتل محمداً ﷺ وللوفاء بذلك انطلق نحو المدينة بمئتي فارس، واستطاع في هذه الحملة أن يقتل شخص أو شخصين فقط، وأن يحرق بعض مزارع النخيل، فانطلق النبي مع جماعة وراءه. ولكن أبا سفيان فرّ بسرعة ولأن المشركين كانوا يُلقون بأكياس الدقيق أثناء فرارهم لتخفيق حملهم من جهة، ولإلهاء من يلاحقهم من جهة أخرىٰ سميت هذه الغزوة بغزوة السويق.

ومع نهاية السنة الثانية وبداية السنة الثالثة للهجرة (أي قبل معركة أحد) وقعت أكثر من غزوة وسرية ونمتنع عن ذكرها هنا في هذه الخلاصة (غزوة قرقرة الكدر[٢] وذي أمر[٣] وسرية قردة[٤]) وقد غنم المسلمون في سرية قردة غنائم كثيرة إلىٰ درجة أن نال كل منهم ثمانمائة درهم.

معركة أحد

لم يكن أبو سفيان ليحتمل تلك الهزيمة القاسية في بدر لما سببته تلك الحرب من ضربة قاسية لمكانته الرئاسية في نظر أهل مكة، وكذلك فقد خسر تجار مكة الطريق التجاري إلىٰ بلاد الشام وبقية الأماكن.

فاضطرّ أبو سفيان لأن يبذل جهداً كبيراً واستطاع بعد سعي مضني أن يوحد

١- وتعني الدقيق.

٢- ماء لبني سليم ويقال أنه مكان قرب المدينة (معجم البلدان).

٣- منطقة في نجد (معجم البلدان).

٤- ماء في نجد لبني نعامة (معجم البلدان).

القبائل [المعادية للنبي] وجهز جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل ومئتي رأس من الخيول وألف بعير، وتوجه نحو المدينة.

وصل خبر تحرك هذا الجيش للنبي﴿ﷺ﴾، وفي يوم الجمعة شكل النبي﴿ﷺ﴾ مجلساً للشورىٰ الحربية في المسجد. وكان عبدالله بن أبي عضواً فيها، فسأل النبي المسلمين ماذا ينبغي أن نفعل؟ فقالت عدة - وهم من المعمرين وذوي التجربة والخبرة - أنه علينا أن نتخذ حالة دفاعية ونجعل ساحة الحرب داخل أطراف المدينة، ولكن عدة أخرىٰ -وهم الشباب ذوي الحيوية والنشاط - أرادت أن يخرجوا من المدينة لمواجهة المشركين، أما عبدالله فكان من أنصار الرأي الأول. وفي النهاية تغلب الرأي الثاني علىٰ الأول بالأكثرية، فارتدىٰ النبي﴿ﷺ﴾ لامة حربه واستعد للخروج من المدينة.

ولكن الشبان ندموا علىٰ إجبارهم للنبي بقبول رأيهم، وقالوا نحن نرجع عن رأينا، فرأىٰ النبي﴿ﷺ﴾ أن الحزم في التصميم هو من شروط القيادة والرئاسة ولايمكن قبول رأي جديد كل لحظة، فقال رسول اللّه:« لا ينبغي لنبي أن يلبس لامته، فيضعها حتىٰ يقاتل.»

وصل جيش مكة إلىٰ ذي الحليفة[1] ومن هناك انطلقوا نحو شمال يثرب وتوقفوا عند جبل يسمىٰ بجبل أحد.

كان تعداد جيش النبي﴿ﷺ﴾ في هذه الحملة ألف رجل. وقبل شروع الحرب رجع عبدالله بن أبي مع ثلاثمائة رجل من أعوانه إلىٰ المدينة معترضاً، وحجته: أن محمداً استمع إلىٰ الشبان في قولهم ولم يهتم بقولنا، فنزلت هذه الآية في وصف عبدالله:

﴿وَليَعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سَبيل اللّه أو ادفعوا

١- مكان يبعد ٦ أميال عن المدينة.

قالوا لَو نَعْلمُ قتالاً لاتبعناكم هم للكُفر يومئذٍ أَقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قُلُوبهم﴾[١]

وبعد انفصال عبدالله وأعوانه عن جيش النبي، لم يبق معه سوىٰ سبعمائة رجل بدون خيل أو إبل وعند تنظيم المواقع والأمكنة خاطب النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ عبدالله بن جبير قائد الرماة قائلاً: «لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا ظهرنا عليهم، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا».

في البداية كان النصر حليف المسلمين، وأجبروا العدو علىٰ التراجع، ولكن الرماة الذين كان علىٰ عاتقهم منع التفاف فرسان العدو تركوا أماكنهم طمعاً بالغنائم، فالتف المشركون بقيادة خالد بن الوليد بشكل مفاجيء باغتوا المسلمين من الخلف وانتصروا عليهم.

في هذه الحرب قتل الحمزة عم النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ علىٰ يد الوحشي وهو غلام جبير بن مطعم وجرح النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ أيضاً.

كان أبو سفيان ينادي: «اُعلُ هُبَل، اُعلُ هُبَل»، فقال النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ وهو واقف بتلك الحالة أجيبوه «الله أعلىٰ وأجل».

وسقط النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ في حفرة كان المشركون قد حفروها للنيل من المسلمين بعد أن تلقىٰ ضربة غادرة علىٰ فمه وجبهته فراح المشركون يهتفون: قتل محمد، وانهزم المسلمون.

يقول الطبري أن رجلاً ممن كانوا مرابطين علىٰ قمة الجبل قال: الآن وبعد أن قتل محمد، ليتنا نبعث برسول إلىٰ عبدالله بن أبي ليطلب الأمان لنا من أبي سفيان. أيها الناس ارجعوا إلىٰ بيوتكم قبل أن تقتلوا.

١- آل عمران /٣: ١٦٧.

فنادىٰ أنس بن نضر: أيها الناس! إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد حي يرزق. اللهمّ! إني أعوذ بك مما يقول هؤلاء. ثمّ هجم علىٰ العدو.

أثناء تلك المعمعة أخذ علي بن أبي طالب﴿عليه السلام﴾ بيد الرسول ورفعه عن الأرض وقام طلحة بن عبيدالله – مع أنه كان جريحاً– بحمل النبي عالياً ليرىٰ المسلمون بأن النبي حي.

وقف علي أمام النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ وراح يبعد أو يقتل كل من يقترب منه من الأعداء.

وفي النهاية رجعت فئة من المسلمين والتفوا حول النبي وأحاطوا به. وهكذا تم تنظيم الجيش من جديد.

ومع أن أبا سفيان قد انتصر في هذه الحرب وكان قادراً علىٰ مهاجمة المدينة، ولكنه رجع وتوعد بلقاء المسلمين في بدر في السنة التالية، وأما السبب الذي جعل أبا سفيان يغض النظر عن احتلال المدينة، فلا يمكن أن يكون إلا الإمداد الغيبي، فقد ألقىٰ الله في قلبه الخوف ليغض النظر عن محاصرة المدينة واحتلالها.

لكن بعض المفكرين الإسلاميين والغربيين يرون بأن السبب الذي جعل أبا سفيان ينصرف عن محاصرة المدينة هو أنه كان يخشىٰ من عدم امتلاكه للقوة والوسائل الكافية لاحتلال المدينة، وهو تحليل ضعيف جداً، والأصح أن نتبع ما قاله القرآن فنقول بأن الله تعالىٰ قد ألقىٰ الخوف في قلوبهم.

وقعت معركة أحد في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، وفي اليوم التالي للحرب أمر النبي الناس أن يذهبوا وراء العدو. وقد شارك في ذلك العديد من الجرحىٰ والمرضىٰ أيضاً.

وكان قصد النبي من ذلك هو أن لا يظن العدو بأن جيشه قد تلاشىٰ بشكل كامل.

وعلىٰ كل حال لم تحقق مكة ما أرادته من هذه الحرب:

فأولاً: كانت خسارة المسلمين بالمقارنة مع المشركين مع أخذ عدد القتلىٰ في بدر بعين الاعتبار متساوية تقريباً، فقد قتل عدد مساوٍ من الطرفين في هاتين الحربين

ولذلك وبناءاً علىٰ العادة الجاهلية الشائعة لم يكن لمكة أفضلية علىٰ المدينة من هذه الناحية؛ وفضلاً عن ذلك لم يتمكن المشركون من الوصول إلىٰ المدينة أو التعرض لها بسوء كما كانوا قد توعدوا بأن يلقنوا أهل يثرب درساً لكي لا يتمادوا فيما بعد، وغالب الظن أن عودة الفارين واستعدادهم للحرب ثانية قد أقلق أبا سفيان فاعتبر الهزيمة الأولىٰ نوعاً من الحيل التي كانت رائجة بين العرب وظن أن ذلك التراجع هو مقدمة لمباغتة سريعة، وعلىٰ كل حال وكما يبدو لا يوجد أي هدف أو مبرر لرجوع أبي سفيان في هذه الحرب وخصوصاً بعد الانتصار الذي حققه، وما يمكننا قوله هنا هو أن الله قد ألقىٰ في قلبه الخوف والاضطراب ولذلك ولّىٰ أدباره دون أن يتعرض للمدينة بسوء ومع أن هذه الحرب انتهت بهزيمة المسلمين ظاهرياً، ولكن كان لها نتائج معنوية كبيرة.

ويمكن أن يتضح ذلك إذا ألقينا نظرة علىٰ آياتٍ من سورة آل عمران والتي نزلت في هذا الشأن:

﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾[١]

﴿بلىٰ إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يُمددكم ربكم...﴾[٢]

﴿إن يَمسَسكم قَرح فَقَد مَسَّ القَومَ قَرح مِثلُه...﴾[٣]

١- ١٢٣.

٢- ١٢٤.

٣- ١٤٠.

﴿ولقد كنتم تَمَنَّون الموت من قبل أن تَلقَوه فقد رَأَيتُمُوه﴾[١]

كان في هذا الكلام السماوي من العبرة الشيء الكثير فقد أكد للمسلمين بأن انتصارهم في معركة بدر يعود إلىٰ أنهم كانوا يقاتلون في سبيل الله، وهكذا أمدهم الله بقوة من عنده. ولكن في هذه الحرب ولأنهم عصوا رسول الله ﷺ وطمعوا بالغنائم ومال الدنيا فقد هزموا.

نتج عن معركة أحد فضلاً عما خلفته من قتلىٰ وجرحىٰ العديد من المشكلات الاجتماعية فقد أصبح العديد من النساء بلا أزواج والكثير من الأطفال بلا معيل.

في أول سورة النساء نرىٰ كيف سمح للمسلمين بالزواج من أربع نساء، وأوصاهم الله بالأيتام والمحافظة علىٰ أموالهم وعدم مد الأيدي إليها.

المتآمرون

مع أن نزول الآيات القرآنية التي تتحدث عن شهداء أحد كانت تخفف وتقلل من آلام الأسر المفجوعة ومع أنّ إيمان المسلمين بنبيهم قد وصل إلىٰ حد يعتبرون فيه من مات في سبيل الله والدين مظهر فخر وعزة لأسرهم، ولكن لا تزال جماعة من المنافقين تعيش في المدينة، وتنتظر عاقبة الأمر بفارغ الصبر، وبسبب هزيمة المسلمين في هذه الحرب انتهزت هذه الجماعة الفرصة وراحت تنشر الفتن والأكاذيب.

بدأ التردد والحيرة يدخلان نفوس القبائل التي تحالفت مع المسلمين بعد الانتصار في بدر. بينما قرر أعداء الإسلام الذين يعيشون في أطراف المدينة

١- ١٤٣.

الاستفادة من هذه الهزيمة.

سرية أبي سلَمة

روىٰ قصة هذه السرية الواقدي في المغازي ومفادها أنه بلغ رسول اللّـه أن طليحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومهما، ومن أطاعهما يدعوانهم إلىٰ حرب رسول اللّه، فدعا رسول اللّه أبا سلمة، وعقد له لواءاً، وبعث معه مائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار، وقال له: سر حتىٰ تنزل أرض بني أسد فأغر عليهم قبل أن تلاقىٰ عليك جموعهم، فخرج فأغذ السير، ونكب عن سنن الطريق، وسبق الأخبار، وانتهىٰ إلىٰ أدنىٰ "قطن" فأغار ومن معه علىٰ سرح لهم فضموه، وأخذوا رعاءاً لهم مماليك ثلاثة، وأفلت سائرهم، فجاؤوا جمعهم، فحذروهم، فتفرقوا في كل ناحية ففرق أبو سلمة أصحابه ثلاث فرق في طلب النعم والشاء، فآبوا إليه سالمين قد أصابوا إبلاً وشاءاً، ولم يلقوا أحداً، فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلىٰ المدينة.

وفي الحقيقة فإن هذا النصر بعد تلك الهزيمة قد غير نظرة المنافقين واليهود للمسلمين، وجعلهم يدركون أن النبي وأصحابه لم يُقض عليهم كما كانوا يظنون.

حادثتا الرجيع وبئر معونة

كان لهاتين الحادثتين اللتين وقعتا بعد معركة أحد ضرراً كبيراً علىٰ المسلمين، وفتحتا المجال أمام المنافقين للتمادي. وما جرىٰ هو أن جماعة من طائفة عضل وقارة دخلوا علىٰ النبي وقالوا: لقد أسلم بعض قومنا وإننا نرغب بأفراد يعلموننا أحكام الدين، فأرسل النبي ستة من المسلمين معهم، وعندما وصل الجمع إلىٰ رجيع –وهو ماء لبني هذيل في منطقة الحجاز– هاجمت تلك الجماعة هؤلاء المسلمين المرافقين لها

فطلب المسلمون مساعدة هذيل ولكن لم ينجدهم أحد، فقتل المشركون أربعة أفراد منهم وأسروا اثنين وحملوهما إلىٰ مكة فقتلهما أهل مكة انتقاماً لقتلىٰ بدر.

وأما حادثه بئر معونة فقد كانت أشد فظاعة من واقعة الرجيع فقد قدمت جماعة من بني عامر إلىٰ النبي﴿ﷺ﴾ وطلبوا منه أن يرسل بعض أصحابه إلىٰ نجد طمعاً في إسلام أهل نجد، فقال النبي إني لأخشىٰ علىٰ المسلمين من أهل نجد، فقال أبو براء وهو كبير الجماعة تلك: من يأتي معي إلىٰ نجد سيكون في حمايتي، فأرسل النبي﴿ﷺ﴾ أربعين مسلماً من خيرة المسلمين معه وبمجرد وصولهم إلىٰ بئر معونه الواقع بين المناطق الخاضعة لنفوذ بني عامر وحرة بني سليم بعثوا برسول محمل بكتاب من النبي﴿ﷺ﴾ إلىٰ عامر بن طفيل فلم يقرأ الرسالة بل قتل حاملها وعندئذٍ طلب من بني عامر أن يهجموا علىٰ تلك الجماعة فرفضوا.

طلب عامر المساندة من قبيلة بني سليم فأجابته، وقد قتل في هذه الحادثة كل هؤلاء المسلمين إلا رجلاً يدعىٰ كعب بن زيد.

ثم لحق بالمجموعة اثنان قدما حتىٰ وصلا إلىٰ محل جثث القتلىٰ فاشتبكا مع القتلة، فقتل أحدهما، بينما وسموا الآخر وتركوه. وأثناء عودة ذلك الرجل ويدعىٰ عمرو بن أمية إلىٰ المدينة قتل رجلين من بني عامر. وقد أثرت هذه الحادثة في نفس النبي تأثيراً شديداً.

اكتفىٰ المؤرخون وجامعوا السيرة بكتابة تقارير هذه الحوادث دون أي إشارة إلىٰ أسباب وعلل هذه الحوادث، ويبدو أن هاتين الحادثتين قد وقعتا بعد فترة وجيزة من معركة أحد، فالقبائل التي تقطن أطراف المدينة وكذلك القبائل في الحجاز وأطراف مكة أرادت أن تقضي علىٰ محمد﴿ﷺ﴾ والمسلمين بهذه المؤامرات والعراقيل وتجعل قريشاً راضية عنها ودليل ذلك أنهم لم يعيدوا الأسيرين اللذين قد فضلا الأسر علىٰ الحرب بل سلموهما إلىٰ قريش.

طرد يهود بني النضير وترحيلهم

خلف أمر مقتل رجلين من بني عامر علىٰ يد عمرو بن أمية الضمري (الذي نجا من حادثة بئر معونة) خلق مشكلة جديدة، فطالب بنو عامر بدية هذين الرجلين طبقاً للحلف الذي يجمعهم بالرسول ولأن يهود بني النضير يرتبطون بحلف مع بني عامر رأىٰ النبي﴿ﷺ﴾ أن يطلب منهم المساعدة في دفع هذه الدية وكانت هذه الفرصة مناسبة للغاية لتكشف نوايا اليهود تجاه المسلمين فقد تمادىٰ اليهود كثيراً بعد حادثتي الرجيع وبئر معونة وكانوا يقولون: إن الرسول الذي يرسله الله لا يهزم هكذا.

وعندما ذهب النبي﴿ﷺ﴾ إليهم وجلس بينهم، أجابوه بأنهم علىٰ استعداد لمساعدته، ولكنهم تشاوروا سراً، ولم يروا فرصة أفضل من هذه لاغتياله، حيث كان النبي واقفاً قرب أحد الجدران فأرسلوا رجلاً يرميه بحجارة من علىٰ السطح.

علم النبي بنيتهم الخبيثة تلك، ورجع إلىٰ المدينة، وقرر إخراج هذه القبيلة من المدينة. دامت محاصرتهم ست ليال، وفي النهاية أعلنوا استسلامهم.

أسلم رجلان منهم وردت إليهما أموالهما بينما ترك البقية أموالهم وأبعدهم النبي إلىٰ أذرعات في الشام.

وطبقاً لما يذكره ابن هشام فإن حكم حرمة الخمر قد نزل في هذه الأيام.

الحرب مع غطفان

في شهر جمادىٰ الأولىٰ من السنة الرابعة للهجرة أوكل النبي﴿ﷺ﴾ لأبي ذر الغفاري إدارة شؤون المدينة بينما انطلق النبي بجيش لقتال طائفة بني محارب وبني ثعلبة.

هاتان القبيلتان هم من طائفة غطفان التي تعيش في نجد.

تقابل المسلمون مع العدو وجهاً لوجه ولكن لم تنشب الحرب بينهم، ولأنهم كانوا يخشون مكر العدو وحيلته أقاموا صلاة الخوف. وفي شهر شعبان توجه النبي إلىٰ بدر طبقاً للوعد الذي قطعه في معركة أحد مع أبي سفيان، ولكن أبا سفيان وبعد أن خرج مع قومه من مكة ندم وعاد إليها.

وفي السنة الخامسة من الهجرة وقعت أيضاً غزوة دومة الجندل، وغزوة بني المصطلق. ومع أنه لم يحدث احتكاك مباشر في غزوة دومة الجندل ولكنها كانت في غاية الأهمية من جهة أخرىٰ.

كانت هذه الغزوة تمثل استعداداً واستعراضاً عسكرياً كبيراً بعد إخفاق المسلمين في معركة أحد. وكما نعلم فإن تلك المنطقة هي عبارة عن واحة نائية في سورية وتبعد عن دمشق بمقدار خمسة أيام. ولذلك فإن قطع هذه المسافة وخصوصاً في أحر أشهر الحر والقيظ لا يمكن أن يبقىٰ مستوراً عن أنظار القبائل، فقد أدركوا إلىٰ درجة ما أنه لا معنىٰ للخوف من قريش، وأنهم إن لم يسلموا سيتحملون عبء الانتظار الصعب.

ومن ناحية أخرىٰ فإن انتصارات المسلمين المتتالية في معارك بني النضير، وطرد اليهود وإبعادهم، والحصول علىٰ الغنائم، والأهم من ذلك عرض النبي لقدرة المسلمين العسكرية في غزوة دومة الجندل زاد من قلق قريش واضطرابها.

فتجارتهم وقعت في مأزق كبير، وكذلك فقد قتل أكثر من سبعين رجلاً من كبار قريش. والأهم من ذلك هو تلك الفجوة العميقة والاختلاف الكبير في الآراء الذي ظهر بين كبار رجال قريش الذين توسلوا في النهاية مضطرين إلىٰ محاولتهم الأخيرة.

غزوة الخندق

كما رأينا سابقاً، فإن أبا سفيان انطلق إلىٰ بدر مع جماعة من رجاله، ولكنه سرعان ما أصابه الندم في وسط الطريق، فولىٰ أدباره راجعاً. ورجوعه هذا أدىٰ إلىٰ تضعيف مركزه القيادي في نظر قريش مما اضطره إلىٰ القيام بإعداد جيش كبير ومنظم وفي السنة الخامسة للهجرة قوامه من سبعة إلىٰ عشرة آلاف رجل، وفيه أكثر من ستمائة فارس وتوجه هذا الجيش نحو المدينة وقد أطلق علىٰ هذه المعركة معركة الأحزاب لأن جيش قريش كان يتشكل متحزباً من قبائل العرب المختلفة. وفضلاً عن ذلك فإن جماعة من يهود بني النضير الذين يقطنون خيبر اتحدوا مع قريش وقبيلة غطفان ضد النبي﴿ﷺ﴾ في هذه المعركة. وأما يهود بني قريظة الذين يعيشون في أطراف المدينة والذين كانوا قد تعهدوا في السابق بأن لا يقدموا العون لقريش فنقضوا عهدهم وأعلنوا تضامنهم مع قريش وفي مقابل هذا الجيش الضخم كان جيش النبي﴿ﷺ﴾ لا يتعدىٰ الثلاثة آلاف رجل وأكثرهم راجلين عدا قلة قليلة.

وافق أهل المدينة هذه المرة وخلافاً لمعركة أحد علىٰ اتخاذ حالة دفاعية، وبناءاً علىٰ اقتراح سلمان الفارسي قام المسلمون بحفر خندق حول المدينة للدفاع عنها.

كانت المدينة محاطة بالنخيل والبناء من ثلاث جهات ولم يكن العدو قادراً علىٰ مهاجمتها من هذه الجهات؛ وبعد حفر الخندق من الناحية الشمالية، أصبحت هذه الجهة أيضاً في مأمن عن هجوم فرسان العدو.

وقبل أن تصل قوات مكة إلىٰ المدينة كان المسلمون قد انتهوا من حفر الخندق وعندما وصل المشركون إليها أصابهم الذهول، فهم لم يروا حتىٰ ذلك اليوم سداً كهذا يمنع التقدم العسكري.

لم يكن الفرسان قادرين علىٰ القفز من فوق الخندق وعندما يتقدمون كان الرماة

لهم بالمرصاد.

عقد عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل العزم علىٰ عبور الخندق. فقتل عمرو ذلك الفارس المشهور بين العرب علىٰ يد الإمام علي﴿عليه السلام﴾.

من الناحية الظاهرية كانت معركة الخندق خطراً كبيراً علىٰ المدينة، فما الذي يمكن أن يفعله جيش المسلمين أمام ذلك الجيش الضخم؟

أراد النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ في البداية أن يعزل قبيلة بني غطفان عن جمع العدو، فأرس لهم كتاباً وعدهم بموجبه بأن يعطيهم ثلث محصول المدينة بشرط أن يتخلوا عن مساندة قريش، فسأل الأنصار النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾: هل هذا الكلام وحياً سماوياً؟ فقال: لا. فقال سعد بن معاذ: «يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم علىٰ شرك بالله عزوجل، وعبادة الأوثان، ولا نعبد الله، ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة إلا قرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتىٰ يحكم الله بيننا وبينهم». فلم يتم ذلك مع غطفان.

كان هناك اثنان من المسلمين ممن لم يعلن إسلامه بعدُ: أحدهما في معسكر بني قريظة، والآخر مع قبيلته غطفان. قام هؤلاء بزرع الكراهية والتشاؤم بين هذين المعسكرين. وكذلك تدخل القضاء السماوي، فهبت ريح شديدة وساد طقس بارد قارس علىٰ تلك المنطقة فزاد من مهمة قريش صعوبة، فأصدر أبو سفيان الأمر بالتراجع، وبذلك زال الخطر عن المدينة بعد خمسة عشر يوماً من الحصار المتواصل. وبمقدار مازادت هذه الحرب من عزم المسلمين وتفاؤلهم فإنها جلبت علىٰ المشركين مصائب متعددة.

وأصبح من المسلم أن تجار قريش قد خسروا المدينة كسوق تجاري إلىٰ الأبد، وفضلاً عن ذلك فإن تعاظم قدرة المدينة قد ألحق خطراً كبيراً بالطريق التجاري بين مكة والشام وبذلك لم يعد تجار قريش قادرين علىٰ مزاولة مهنتهم بطمأنينة

وأمان، وكذلك فقد تزلزل المركز القيادي لأبي سفيان في قريش.

وكسرت شوكة قريش وحرمتها بين القبائل وبالإضافة إلىٰ ذلك فإن وقوع حوادث غير متوقعة كفشل جيش عظيم من عبور أبواب المدينة جذب بعض البدو من العرب نحو الإسلام حيث تيقن هؤلاء من وجود قوة عظيمة وغير عادية تساند المسلمين وبذلك تغير مسير الأمور لمصلحة المسلمين بعد هذه الحرب.

وبعد انتهاء هذه الحرب، توجه النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ بقواته تجاه يهود بني قريظة، وكما ذكرنا فإنّ هؤلاء اليهود وبموجب ميثاق المدينة، هم في أمان ما لم يتعرضوا للمسلمين. ولكن هؤلاء أعلنوا توحدهم مع أعداء الإسلام في معركة الخندق، وبذلك تبين للنبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ بأنه يجب الانتباه إلىٰ خطر هؤلاء، وعدم التساهل في ذلك أبداً، فقرر النبي محاصرتهم ودام حصارهم خمساً وعشرين ليلة إلىٰ أن أعلنوا استسلامهم.

فتواثبت الأوس وكانوا حلفاء بني قريظة فقالوا: يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج، وقد ندموا علىٰ فعلتهم، فعاملهم كما عاملت حلفاءهم (أي بني قينقاع)، وكان رسول الله قد وهبهم لعبد الله بن أبي بن سلول. فقال رسول الله : ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلىٰ! قال: فذاك إلىٰ سعد بن معاذ رئيس قبيلة الأوس، ورضي به أيضاً بنو قريظة، فلمّا انتهىٰ سعد إلىٰ رسول الله والمسلمين، قال رسول الله: قوموا إلىٰ سيدكم، فقال أحد الحاضرين في ذلك المجلس: أن مراد النبي من «سيدكم» أنه سيد الأنصار لا المهاجرين. فقاموا إليه فقالوا: إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيها ما حكمتُ؟، قالوا: نعم. وعلىٰ من ها هنا؟ (عرّض برسول الله إجلالاً له) فقال رسول الله: نعم. فقال سعد: فإني أحكم فيهم بأن تقتل الرجال، وتُقَسّم الأموال، وتُسبىٰ الذراري والنساء. وطبقاً لحكم سعد حفر للرجال خندق ضربت أعناقهم فوقه.

في الوقت الذي بين فيه ابن إسحاق مصير بني قريظة بهذا الشكل، وكذلك أورد الطبري نفس ذلك في كتابه، فإن الواقدي الذي توفي في ٢٠٧ للهجرة أورد صورة أخرىٰ للأمور الجارية بعبارة فيها ترديد واضطراب فهو يروي من جهة ويقول: حفروا خندقاً وراحوا ينقلون الأسرىٰ بشكل جماعات إلىٰ جانبه، وقام علي«عليه السلام» والزبير بن العوام بقطع رؤوسهم.

ويروي من جانب آخر: أن سعد بن عبادة وحباب بن المنذر قدما علىٰ رسول الله وقالا له : إن الأوس حلفاء بني قريظة، ولا يرضون بقتلهم، فقال سعد بن معاذ: ليس الأمر كذلك، لا رضي الله عمن لم يرض من الأوس بذلك، ثمّ قال للنبي: فرّق الأسرىٰ علىٰ بيوت الأوس، وليضرب رب كل بيت عنق أسيره، وأرسل أول مجموعة إلىٰ داري، وهكذا فعل النبي.

وقد تحدث ابن شهاب الزهري الذي ولد في سنة ٥١ للهجرة، وتوفي في سنة ١٢٤ عن حكم سعد، فلم يذكر شيئاً عن عدد القتلىٰ، ولكنّه صرح فقط بقتل حيي بن الأخطب[١] وكما نعلم فإن هذه القصة المحاطة بهالة من الإبهام والغموض أصبحت هدفاً للمفكرين المهتمين بالشرق، وخصوصاً اليهود المهتمين بالإسلام.

فما هي حقيقة الأمر؟ هل قتل الإمام علي«عليه السلام» في يوم أو نصف يوم سبعمائة رجل؟

إن تصديق ذلك بهذه الصورة أمر صعب.

فأولاً: ما يبعث علىٰ الترديد والشك هو عدد المقتولين، فقد ذكروا أنهم كانوا ٦٠٠، ٧٠٠، ٨٠٠، أو ٩٠٠، كيف قام رجل أو رجلين (علي«عليه السلام» والزبير) بقطع رؤوس تسعمائة رجل في هذه المدة الزمنية القصيرة جداً؟

إن تسعمائة رجل بالغين لقوم ما، يدل بشكل تقريبي علىٰ أن عدد أفراد هؤلاء

١- المغازي النبوية، صص ٨٢-٨٣.

القوم يناهز الأربعة آلاف أو أكثر. فهل كان عدد بني قريظة يصل إلىٰ هذا الرقم؟

فكم من الآلاف كانوا يعيشون في المدينة وضواحيها وأطرافها حتىٰ يقطن أربعة آلاف منهم في مناطق بني قريظة؟ وهنا نرىٰ بأن قصة مقتل يهود بني قريظة قد ارتكزت منذ البداية علىٰ أساس النزاع الكائن بين الأوس والخزرج. قالت الأوس للنبي: عامل حلفاءنا كما عاملت حلفاء الخزرج، وهب لنا أسرانا! فلم يقبل النبي، ووكل سعد بن معاذ بأمر التحكيم!

يحتمل كثيراً أن يكون ناقل هذه الرواية من طائفة الخزرج أو أنه ينقل الرواية بشكل ينصب في صالحهم، وهو يريد بهذا العمل أن يظهر قومه أكثر حشمة وحرمة في نظر الرسول﴿ﷺ﴾ من منافسيهم (أي الأوس).

كما أن الاختلاف في كيفية قتل الأسرىٰ أمر يبعث علىٰ الشك أيضاً! فابن إسحاق يرىٰ أنهم قتلوا الأسرىٰ قرب الخندق، وينقل الواقدي بأنهم قد وزعوا الأسرىٰ علىٰ أسر قبيلة الأوس ليظهر هؤلاء تقبلهم وطاعتهم وولاءهم للنبي﴿ﷺ﴾.

هذه الإشارات تمنع المتتبع الدقيق من قبول ما هو مشهور، أو تخلق لديه الشك والترديد.

وبعيداً عن ذلك فقد مررنا علىٰ سيرة النبي في الحروب التي تسبق بني قريظة وبعدها، فرأينا أنه كان﴿ﷺ﴾ يقدم الرحمة والصفح علىٰ الانتقام والقتل دائماً، ولو فرضنا أن نقض العهد الذي اقترفه بنو قريظة أدىٰ إلىٰ إيذاء النبي وجعله لا يتعامل معهم بتلك الخصلة الإنسانية الحميدة (في الحقيقة فإن هذا الفرض محال وغير قابل للتصور في حق من كان رحمة للعالمين) فمنذ أن دخل المدينة كان تعامله مع الأوس والخزرج مبنياً علىٰ رعاية رغبات الجانبين بنفس المقدار، ولذلك من المستبعد أن يميز بينهما في هذه الحالة، أو أن يأمر بشيء يؤدي إلىٰ التمييز وفي الحقيقة فإن تحكيم رئيس قبيلة الأوس في هذا الشأن وإصدار حكم غدا مبدءاً للتشريع، هو أمر يثير الانتباه وقابل للتأمل في حد ذاته.

والشيء الأقرب إلىٰ الواقع هو أن الحساسية والتنافس الكائن بين الأوس والخزرج قد تلاشىٰ بعد دخول النبي﴿ﷺ﴾ إلىٰ المدينة، ولكن بعد وفاته﴿ﷺ﴾ تمّ إحياء هذا التنافس من جديد، وكما سنذكر لاحقاً فإن أول علامة لهذا الاختلاف قد برزت في سقيفة بني ساعدة.

وبمحض وصول معاوية لإمارة المسلمين واستيلائه عليها وبلوغ قريش والمهاجرين لأمنيتهم السابقة وبأمر من معاوية بدأ المؤرخون والشعراء المحيطون به يبذلون جهدهم في سبيل تحقير الأنصار وأهل المدينة. وكان إحياء الحقد والكراهية القديمة بين الأوس والخزرج من أفضل السبل لضرب الأنصار وتفكيك وحدتهم.

وهكذا فقد تمّ التلاعب طوال فترة حكم بني أمية بتفاصيل الحروب التي وقعت في عهد النبي، وربما أيضاً في أخبار عهد الخلفاء حتىٰ سنة أربعين هجرية، وقد تم تحريف كل شيء يصب في مصلحة الأنصار.

أورد الزبير بن بكار، المتوفىٰ سنة ١٧٢ للهجرة، في كتابه الموفقيات نقلاً عن أبان بن عثمان قصة تؤيد هذا الرأي وخلاصة هذه القصة هي ما يلي:

توجه سليمان بن عبد الملك عندما كان ولياً للعهد إلىٰ المدينة وبعدما تفقد ساحات حروب النبي﴿ﷺ﴾ هناك طلب من أبان بن عثمان -وكان برفقته- أن يتم تدوين كتاب عن حروب النبي﴿ﷺ﴾، فقال أبان: ذلك الكتاب الذي تريد جاهز لديّ، فأمر سليمان أن يتم استنساخ ذلك الكتاب، ولكن عندما قرأ الكتاب لم يعجبه وصف الأنصار فيه، فأمر بحرق ذلك الكتاب، وعندما رجع إلىٰ الشام تحدث مع والده عبدالملك بهذا الشأن، فقال عبد الملك: لقد قمت بعمل جيد، فليس من المصلحة أن يقرأ أهل الشام هذا ويطلعوا علىٰ فضل الأنصار وأعمالهم.

وحتىٰ إن لم تكن هذه القصة صحيحة يمكننا القول أن الزبير قد اختلقها لكسب رضى العباسيين والمتوكل، ولكن في الحالتين تظهر وتتوضح حقيقة مهمة وهي أنه لا يجوز الإكتفاء بنقل الرواة لِقبول أسناد وقائع القرنين الأول والثاني (عهد ما قبل

الأسناد المكتوبة)، بل يجب مقايسة كل رواية مع الشواهد الأخرىٰ والقرائن الخارجية.

وأما فيما يخص يهود بني قريظة فإن القرائن الخارجية بشكل عام ترد أمر القتل الجماعي وترفضه وتنفيه.

وعلىٰ ما يبدو فقد تم تحريف هذه القصة بعد عدة سنوات من وقوعها، وذلك عندما تم محاصرة الجيل الحاضر في تلك الواقعة علىٰ يد راو من الخزرج الذي أعاد تدوينها وصياغتها ليبين من خلال ذلك أن حرمة طائفة الأوس عند النبي لا تضاهي حرمة الخزرج وهو السبب الذي دفع النبي للامتناع عن قتل حلفاء قبيلة الخزرج، ولكنه قتل حلفاء الأوس، وكذلك أراد أن يظهر أن رئيس قبيلة الأوس لم يراع حلفاءه ولم يكن وفياً لهم.

الفتح المبين أو صلح الحديبية

كان لمعركة الأحزاب، واستسلام يهود بني قريظة، والحروب التي وقعت في السنة السادسة للهجرة والتي انتهت لمصلحة المسلمين، والغنائم الحربية التي كسبوها من هذه الحروب، كل الأثر في تعاظم قدرة الإسلام في نظر سكان شبه الجزيرة العربية، بحيث أسلمت العديد من القبائل، أو أعلنت ولاءها وطاعتها للمسلمين. وحان الوقت المناسب ليبين الرسول لأهل مكة عزة الإسلام وقدرته، ويدعوهم للإسلام.

ولو أسلمت قريش ولم تظهر مقاومة أو معارضة لكان ذلك في مصلحها ومصلحة المسلمين؛ لأن هدايتهم ورشدهم يكمن في الإسلام من جهة، ومن جهة أخرىٰ فإن إسلام أهل هذه المدينة ذوي المكانة المرموقة بين العرب والذين يتمتعون بخبرة وتجربة كبيرة فيه أهمية كبيرة لمستقبل الإسلام.

في شهر ذي القعدة من السنة السادسة الهجرية توجه النبي يرافقه ألف وخمسمائة

رجل من المدينة صوب مكة قاصداً أداء العمرة. وعندما علمت قريش بمراده راحت تستعد لمنعه عن ذلك. وفي البداية أرسل أهل قريش خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ليمنعاه من الوصول إلىٰ مكة.

نزل النبي في مكان يسمىٰ الحديبية وهو أول مناطق الحرم وأرسل إلىٰ مكة كتاباً يعلمهم فيه أنه قادم للزيارة وليس للحرب فرفضت قريش ذلك، ولم تقبل به، وفي النهاية تم إمضاء صلح الحديبية بين النبي ورسول مكة الذي ينص علىٰ هدنة حربية لمدة عشر سنوات، وفي هذه السنة يجب أن لا يدخل المسلمون مكة، بل في السنة القادمة وفي مثل هذا الوقت سيخرج أهل مكة منها لمدة ثلاثة أيام ويتركونها للمسلمين لأداء العمرة والزيارة. ومن البنود الأخرىٰ في هذه الوثيقة هو أن يعيد النبي أي شخص يقدم عليه من مكة إليها، ولكن إن ذهب فرد من المدينة إلىٰ مكة، فمكة غير ملزمة بإعادته، وينص بند آخر فيها علىٰ أن القبائل حرّة في التحالف مع قريش أو التحالف مع محمد﴿ﷺ﴾.

تضايق بعض أصحاب النبي ممن لم يدركوا عمق وعواقب هذا الصلح، واعتبروه هزيمة لهم، ولكن في الحقيقة فإن إمضاء هذا الصلح كان بمثابة نصر عظيم للمسلمين، فالمشركون وحتىٰ ذلك اليوم لم يكونوا يعترفون بالنبي وأصحابه وكانوا يبغون القضاء عليهم، ولكن من الآن وفضلاً عن الاعتراف الرسمي بالنبي﴿ﷺ﴾ راحوا يتعاملون معه كندّ وطرف مقابل وكذلك فقد ورد في هذه المعاهدة أن القبائل حرة في تحالفها مع قريش أو مع محمد﴿ﷺ﴾، وفي هذه الحالة إن هبت قريش أو هبّ المسلمون لقتال حلفاء الطرف الثاني لبطلت تلك المعاهدة، وكما سنرىٰ لاحقاً فإن نقض قريش لهذا الشرط أدىٰ لاحقاً إلىٰ فتح مكة.

وبعد مدة وجيزة من إمضاء هذه المعاهدة تمّ تسليم رجل أعلن إسلامه طبقاً لصلح الحديبية إلىٰ مكة، ولكنه فرّ في وسط الطريق وتخلص من الحراس، ولكنه بدلاً من التوجه للمدينة استقر في نقطة تقع علىٰ مسير قوافل قريش إلىٰ الشام.

وشيئاً فشيئاً انضمّ إليه عدة رجال من مسلمي مكة وأصبحوا يشكلون خطراً جدياً لقوافل قريش، ولعدم وجود أي قانون يلزم النبي بتسليمهم لمكة، اضطروا لاحقاً إلىٰ التوسل إليه ليدعوهم إلىٰ المدينة، وهكذا تمّ إلغاء أمر إعادة اللاجئين من الطرفين، وأهم ما في ذلك هو أن نقض أحد بنود هذه المعاهدة من جانب قريش أدىٰ إلىٰ فتح مكة كما سنرىٰ لاحقاً.

معركة خيبر

كان ينتاب المسلمين شعور بالشك والريبة وعدم الثقة تجاه يهود خيبر، ولذلك كان عليهم درء الخطر المحدق بهم من آخر جماعة يهودية؛ فقد راح هؤلاء يتوسلون إلىٰ الفتنة لعرقلة مسيرة المسلمين بعد الذي حل ببني قريظة، ويشير بعض المؤرخين بصراحة إلىٰ أنهم كانوا يفكرون بمهاجمة المدينة، ولكن النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ حاصرهم في السنة السابعة للهجرة وبدأت قلاعهم تعلن استسلامها الواحدة تلو الأخرىٰ بعد عدة أيام، وبدلاً من إبعادهم عقد النبي معهم معاهدة تنص علىٰ أن يبقوا في مكانهم للعمل بزراعتهم علىٰ أن يرسلوا نصف محصولهم إلىٰ المدينة سنوياً.

زيارة بيت الله الحرام

وفي شهر ذي القعدة من السنة السابعة الهجرية وبناءاً علىٰ صلح الحديبية توجّه النبي نحو مكة.

إن دخول النبي والمسلمين إلىٰ المسجد الحرام، وأدائهم لأعمال العمرة، وعظمة المراسم، والاحترام، والحرمة التي كان المسلمون يظهرونها للنبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ أثار وشدّ انتباه قريش وإعجابها، وأصبح من المسلم تقريباً أنهم لا يملكون القدرة علىٰ

مواجهة محمد﴿ﷺ﴾؛ وأدرك من لديه عمق في التفكير واستشراف للمستقبل بأن نهاية العصر الذهبي لزعماء القبائل والتجار باتت وشيكة وقد فتح باب جديد أمام الناس، وهكذا توجه اثنان من زعماء قريش إلىٰ المدينة وأعلنا إسلامهما وهما: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

غزوة مؤتة

في السنة الثامنة الهجرية أرسل النبي﴿ﷺ﴾ كعب الغفاري إلىٰ ذات الأطلاح[١] فاصطدم هؤلاء الرسل مع جماعة فدعوهم للإسلام ولكن هؤلاء لم يقبلوا ذلك وشرعوا بتصويب ورمي السهام نحو المسلمين، فقتلوهم إلا واحداً استطاع أن يهرب ليلاً ويعود إلىٰ المدينة.

تقع ذات الأطلاح قرب حدود الشام وتكمن أهمية هذه السرية في أن المسلمين يذهبون إلىٰ أراضي خارج شبه الجزيرة العربية.

أرسل النبي﴿ﷺ﴾ في جمادى الأول من السنة الهجرية الثامنة جيشاً إلىٰ مؤتة[٢]. كانت مؤته تقع في الأراضي الخاضعة لنفوذ الامبراطورية الرومانية.

وكانت قيادة الجيش بعهدة زيد بن حارثة، وقد أوصىٰ الرسول بتولي جعفر بن أبي طالب القيادة في حالة مقتل زيد، وإن قتل هو الآخر فليتولّ عبدالله بن رواحة القيادة.

اطلع هذا الجيش في معان علىٰ مدىٰ قدرة العدو واستعداده الهائل، وقد ذكر ابن هشام أن جيش الروم كان يبلغ المائة ألف رجل، وبعد أن علم المسلمون بذلك

١- يقول ياقوت الحموي: ذات الأطلاح منطقة بعد ذات القرىٰ بالنسبة للمدينة.

٢- منطقة في جنوب شرقي البحر الميت وتقع حالياً في الأردن.

تشاوروا في أمرهم وقرروا ماذا عليهم أن يفعلوا.

قام عبدالله بن رواحه بتشجيعهم علىٰ الحرب مبيناً أن لها إحدىٰ فائدتين: الشهادة أو النصر، وقد قتل في هذه الحرب القادة الثلاثة[١] وانتخب الجيش خالد بن الوليد قائداً له، وقد استطاع خالد أن يرجع بالجيش إلىٰ المدينة بشكل ما.

فتح مكة

كانت كل قبيلة بناءاً علىٰ صلح الحديبية قادرة علىٰ التحالف مع أحد الفريقين: قريش أو المسلمين، فتحالفت خزاعة مع محمد﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ بينما تحالف بنو بكر مع قريش.

في السنة الثامنة الهجرية، دبّ نزاع بين خزاعة وبني بكر فتدخلت قريش إلىٰ جانب بني بكر ضد خزاعة، وهكذا تمّ نقض صلح الحديبية، لأن قريشاً أعلنت الحرب علىٰ حلفاء الرسول.

وعندما علم أبو سفيان بأن ما اقترفته قريش أمر لا يغفر، ولن يسكت المسلمون عليه، توجه نحو المدينة ليتمكن من تجديد الصلح والمعاهدة ولكنه فشل في ذلك.

انطلق النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ فى شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة بعشرة آلاف مقاتل نحو مكة وقد نظم حركته بطريقة لم تمكن أحداً من الاطلاع علىٰ سفره هذا.

عندما وصل الجيش إلىٰ مَرّ الظهران، خرج العباس عم الرسول في الليل من خيمته باحثاً عن رجل من مكة ليحمله رسالة إلىٰ قريش يطلب منهم فيها الإسراع

١- معان الحالية هي مدينة قوامها ٩٠ ألف نسمة، وهي مركز محافظة معان، ويقع مزار هؤلاء الشهداء خارج مدينة كرك، وهي بلدة كبيرة ومركز لمحافظة كرك في جنوب شرقي البحر الميت (بحيرة لوط) في الأردن.

بالالتحاق بمعسكر النبي﴿ﷺ﴾ قبل أن يهلكوا، وفي تلك الليلة التقىٰ العباس، بأبي سفيان فآواه في خيمته وأتىٰ به إلىٰ رسول الله. وهكذا أسلم أبو سفيان، وفي اليوم الثاني طلب الرسول من العباس أن يأتي بأبي سفيان إلىٰ مكان مناسب ليمر الجيش من أمامه. وعندما رأىٰ أبو سفيان عظمة المسلمين وقدرتهم قال للعباس مخاطباً:

لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً؟! فقال العباس له: تباً لك! إنها النبوة، وليست الملك. فقال أبو سفيان: أجل إنها لكذلك. ثم طلب العباس من النبي امتيازاً لأبي سفيان فقال النبي﴿ﷺ﴾من دخل بيته وأغلق عليه باب داره فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن.

ثم دخل الجيش العظيم إلىٰ مكة بهدوء ودون قتال.

روىٰ ابن هشام عن ابن إسحاق: عندما وصل سعد بن عبادة زعيم قبيلة الخزرج إلىٰ مكة قال: اليوم يوم الملحمة ! اليوم تسبىٰ الحرمة، كان سعد يريد الانتقام من قريش أو من العدنانيين وانتزاع حق يثرب وأهلها من قريش.

ولكي لا يتوهم المسلمون هذا ولا يربطوا بين الفتح الإسلامي والعداوة القبلية، أرسل النبي﴿ﷺ﴾ علياً وقال له: خذ الراية من سعد، فاليوم يوم المرحمة. ولم يحدث بين المسلمين والمشركين مواجهات بكل معنىٰ الكلمة، بل بعض مواجهات جزئية.

دخل النبي﴿ﷺ﴾ إلىٰ المسجد وطاف حول الكعبة وهو راكب سبع مرات ووقف في باب الكعبة، وقال:

«لا إِله إلّا اللّه وَحْدهُ لا شريكَ لَهُ، صَدَق وَعدهُ، وَنَصَرَ عَبدهُ، وهَزَم الأحْزاب وَحْدَهُ».

أهمل الناس كل شيء عدا خدمة الكعبة وسقاية الحجاج.

مكث الرسول في مكة مدة أسبوعين وقام بإصلاح أمورها وتنظيمها: ومن

جملة ذلك أرسل جماعة لتحطيم الأصنام المتوضعة علىٰ أطراف مكة، وقام بنفسه بتحطيم الأصنام الموضوعة في الكعبة. وقد بين النبي بسيرته ومعاملته لأهل مكة سماحة الإسلام وعظمة نبي هذا الدين.

كانت قريش التي لم تتوان عن إيذاء محمد وأصحابه لمدة عشرين عاماً تخشىٰ العقاب والجزاء، ولكنهم عندما سمعوا جوابه لهم بالعفو عنهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» عقدوا العزم علىٰ أن يقاتلوا ويحاربوا باسم الإسلام ضد غير المسلمين بدلاً من الوقوف في وجه الإسلام.

معركة حنين

بعد استسلام مكة، وبعد أن أعلن زعماء قريش إسلامهم راضين أو مرغمين. فمن الآن وصاعداً يجب أن لا تشب حرب هنا، وعلىٰ الأقل ينبغي أن لا تثور قبيلة قريباً من مكة، ومع ذلك اتحدت قبيلة هوازن مع بني ثقيف الذين يقطنون الطائف وقرروا مهاجمة جيش المسلمين .

ليس من الواضح بدقة هدف هذه القبيلة من هذه الحرب وخصوصاً بعد فتح مكة. وعلىٰ كل حال كان جيش الأعداء صغيراً أمام جيش المسلمين ولم يكن لدىٰ المسلمين أدنىٰ شك في قدرتهم علىٰ دحر العدو الجديد كما يخبر القرآن عن هذه الحادثة:

﴿...ويوم حُنين إذ أعجَبَتكم كَثرَتكم فَلَم تُغن عَنكم شَيئاً...﴾[1]

---

١ – التوبة/٩: ٢٥.

ولكن لم يحدث ذلك، ففي بداية الحرب فرّ المسلمون!! ولكن النبي وعدداً من المهاجرين والأنصار أظهروا مقاومة وثباتاً، وشيئاً فشيئاً عاد الفارون، وفي النهاية فرّ رجال هوازن ولأن نساءهم وأطفالهم كانوا مستقرين خلف الجبهة فقد أسروا جميعاً ولكن النبي أمر بإطلاق سراح الجميع وتحريرهم. وعند تقسيم غنائم حرب حنين أسرع بعض المحاربين الذين أعلنوا إسلامهم لتوهم لاستلام غنائمهم حتىٰ أنهم سرقوا رداء النبي عنه، فقال النبي: ردوا علي ردائي أيها الناس فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نعماً لقسمتها عليكم ثمّ ما لقيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً...أيها الناس! إنه ليس لي إلا الخمس والخمس مردود عليكم.

ثمّ قسّم النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ الغنائم، وأعطىٰ لبعض زعماء قريش سهماً أيضاً، علهم ينشدّون للإسلام، ويطلق علىٰ هؤلاء في الفقه اصطلاح " المؤلفة قلوبهم ".

وقد أقبل رجل من بني تميم، يقال له "ذو الخويصرة"، فوقف علىٰ رسول اللّه وهو يعطي الناس، فقال: يا محمد! قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم؟، فقال رسول اللّه: أجل، فكيف رأيت؟، قال: لم أرك عدلت، فغضب رسول اللّه، ثمّ قال: ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟ فقال عمر بن الخطاب: يا رسول اللّه ألا نقتله، فقال: لا دعوه، فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتىٰ يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية. وقد صار هذا الرجل قائد الخوارج في عهد علي﴿عليه السلام﴾، وقتل في معركة النهروان، ولأن النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ قام بإعطاء الغنائم إلىٰ المهاجرين دون الأنصار، علا تذمر بين الأنصار فذهب سعد إلىٰ الرسول وقال: «إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت: قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء، قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله! ما أنا إلا من قومي. قال: فاجمع لي قومك فى الحظيرة، فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاءه رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون، فردهم، فلما اجتمعوا إليه،

أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول اللّه، فحمد اللّه، وأثنىٰ عليه بالذي هو له أهل، ثم قال: يا معشر الأنصار! ما قالة بلغتني عنكم، وموجدة وجدتموها في أنفسكم؟، ألم آتكم ضلالاً فهداكم اللّه، وعالة فأغناكم اللّه، وأعداءاً فألف اللّه بين قلوبكم؟ قالوا: بلىٰ، للّه ولرسوله المن والفضل، فقال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول اللّه ؟ للّه ولرسوله المن والفضل، قال أما واللّه لو شئتم لقلتم، فصدقتم ولصدقتم، أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلىٰ إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعوا برسول اللّه إلىٰ رحالكم، فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم! ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، فبكىٰ القوم حتىٰ أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول اللّه قسماً وحظاً. ثمّ انصرف رسول اللّه وتفرقوا».

غزوة تبوك

وهي من أحداث السنة التاسعة الهجرية فقد وصل خبر للنبي﴿ﷺ﴾ مفاده أن الروم قد جهزوا جيشاً ضخماً في البلقاء ويريدون مهاجمة المسلمين.

كان الصيف شديد الحر والقيظ حينها، وقد حان موعد قطاف الثمار والفواكه، وكان أكثر الناس يريدون الراحة في بيوتهم، ولم يكن في بيت المال أموال كافية.

كانت عادة النبي هي عدم تعيين وتحديد الهدف من الحرب ولكنه ونظراً للصعوبات التي تواجهه هذه المرة فقد أعلن أننا سنذهب لقتال الروم، فقال البعض: إننا في فصل الحر لا تذهبوا في هذا الفصل! وهي الجماعة ذاتها التي أشير إليها في هذه

الآية:

﴿وَقالُوا لا تَنْفروا في الحرِّ قُل نارُ جَهنّم أَشَدُّ حَراً لَوْ كانوا يَفْقَهُونَ [١]

وقد ذكر أن قوام جيش المسلمين في هذه الغزوة بلغ ثلاثين ألفاً[٢] وهو أكبر جيش في تاريخ الغزوات الإسلامية بل إنه أضخم تجمع لجيش في شبه الجزيرة العربية حتىٰ ذلك اليوم.

في هذه الحرب استخلف النبي علي بن أبي طالب في المدينة ليدير شؤونها، فقال المنافقون إنه لم يحب أن يرافقه علي﴿عليه السلام﴾ في هذه الحرب، وعندما شكا علي للنبي ذلك، قال له: لقد جعلتك خليفتي، إنك مني بمثابة هارون من موسىٰ إلا أنه لا نبي بعدي».[٣]

وقد عانىٰ الجيش من العطش الشديد وعندما وصلوا إلىٰ تبوك تبين أن خبر استعداد الروم للحرب ليس صحيحاً.

كانت غزوة تبوك آخر مواجهة بين المسلمين وغير المسلمين في حياة الرسول﴿صلى الله عليه وآله﴾ وبعد هذا أعلنت كافة أنحاء شبه الجزيرة العربية استسلامها، وبعد هذه الحرب راحت كل قبيلة ترسل رسلها لإظهار الطاعة نيابة عنها ولقبول الدخول في الإسلام، ويمكن القول أن كافة القبائل أعلنت إسلامها تقريباً وبسبب وفود رسل القبائل علىٰ النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ سميت هذه السنة بسنة الوفود.[٤]

١- التوبة/٩: ٨١.

٢- المغازي، الواقدي، ج٣، ص٩٩٦.

٣- السيرة، ج ٤، ص ١٧٤؛ الطبري، ج ٤، ص ١٦٩٦.

٤- وفود جمع وفد بمعنىٰ جماعة مختارة للتقدم في لقاء ذوي الشأن، أو جماعة الضيوف.

توحد شبه الجزيرة العربية

عند تشريح الوضع الجغرافي والاجتماعي للجزيرة العربية تمت الإشارة بما يتسع له المجال هناك إلىٰ المنافسة بين الجنوبيين والشماليين وإلىٰ العداء المتبادل بين القبائل، وكما ذكرنا سابقاً فإنه لا معنىٰ للحياة الاجتماعية بمفهومها الشائع في هكذا محيط (أي المحيط الشمالي).

كانت وحدة الحكومة من المفاهيم التي لم يتصورها العرب سابقاً أبداً، بل كانت قمّة التضامن والاتحاد بين الناس في هذه المنطقة هي تحالف مؤقت بين عدة قبائل مشتركة في الأصل أو الصلة لقتال قبيلة أخرىٰ وقد وقعت معجزة التاريخ في بداية السنة العاشرة للهجرة فقد دخل أولئك الذين لا يعرفون سوىٰ القتل والغزو في نظام واحد، وقبلوا أن يعيشوا في ظل حكومة واحدة.

صحيح أن بعض القبائل في الشام ما زالت تخضع لحكم الإمبراطورية الرومانية وأنه ما زالت عبادة الأصنام أو المسيحية والأديان الأخرىٰ ما زالت منتشرة عند بعض القبائل العربية في الغرب والجنوب ولكن وكما ذكرنا فإن أغلب القبائل بعد معركة حُنين قد أسلمت أو أعلنت تحالفها مع النبي﴿ﷺ﴾ وهكذا انتهت الحروب وإراقة الدماء وحلّ مكانها الوفاق والتوحد والسلام والطمأنينة. وبترسيخه للأخوة بين المهاجرين والأنصار وظف خصلة الإيثار والتضحية أمام من يحب وهي إحدىٰ خصلتي البداوة في سبيل تقدم الدين، وخلق من ذلك الأخوة الإسلامية بينهما ولأن كل شبه الجزيرة قد دخلت تحت إمرة حكومة واحدة فقد استفاد من الخصلة الثانية (الخشونة والإباء) وهذبها وقومها في سبيل الجهاد الإسلامي لتراق الدماء هذه المرة في سبيل الله وتقدم الإسلام بدلاً من سفكها في الجاهلية من أجل الحفاظ علىٰ ناقة أوالاستيلاء علىٰ مرعىٰ.

الأنبياء المزيفون

نواجه في تاريخ الإسلام، في السنوات الأخيرة من حياة النبي﴿ﷺ﴾ وفي خلافة أبي بكر عدة أشخاص لقبوا بالمتنبي أي النبي المزيف؛ كمسيلمة من طائفة بني حنيفة في المنامة وطليحة في بني أسد، والأسود العنسي في اليمن فقد ادعىٰ كل منهم النبوة في قبيلته وجمع الناس من حوله، ولكنهم سرعان ما هزموا واحداً تلو الآخر واختفوا كلياً. وليس من المستبعد أن تكون عدة أخرىٰ غير الذين ذكرت أسماؤهم في التاريخ قد ادعوا مثل هذا الادعاء.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو أن النبي﴿ﷺ﴾ قد دعا الناس ثلاثة عشر عاماً في مكة للإسلام وحتىٰ هذا التاريخ (أي تاريخ ظهور الأنبياء المزيفين) قد عاش سنوات طوال في المدينة أيضاً، فلماذا لم يدع هؤلاء دعوتهم هذه منذ بداية الدعوة للإسلام في مكة أو علىٰ الأقل عندما دخل النبي﴿ﷺ﴾ إلىٰ المدينة؟

جواب هذا السؤال هو - كما ذكرنا في السطور السابقة - وهو أنه لم يكن للوحدة العربية مفهوم قبل الإسلام، ولو حدث أحياناً واتحدت عدة قبائل مع بعضها لغرض ما، سرعان ما انفكت عن بعضها ووقفت وجهاً لوجه. وعندما وحدت الوحدة الدينية كل العرب مع بعضهم البعض أدرك الطامعون في الزعامة والرئاسة أن سبيلاً جديداً قد شق للوصول إلىٰ الزعامة، وظنوا أنهم وبدعوتهم هذه يمكنهم أن يكونوا أنبياء بحق وقد قام هؤلاء بإيذاء المسلمين ومضايقتهم إلىٰ حد ما، ولكن سرعان ما تلاشىٰ جمعهم وهزم.

حج النبي﴿ﷺ﴾ الأخير

توجه النبي﴿ﷺ﴾ في ذي القعدة من السنة العاشرة الهجرية إلىٰ الحج، ليعلم

الناس أحكام الحج في سفره هذا.

كانت قريش قد خصّت نفسها بحقوق وامتيازات قبل الإسلام، فضلاً عن تملكهم لمفاتيح الكعبة وستائرها وقيامهم بأمور الضيافة وسقاية الحجاج كانوا مستقلين عن الناس في مراسم الزيارة وآدابها.

فقام النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ في سفره هذا بإزالة ما كانت قريش تتمتع به في الجاهلية وتعتبره امتيازاً لنفسها دون غيرها ومن ذلك ما كان يعتقده الناس في الجاهلية من لزوم الطواف حول الكعبة بلباس طاهر واللباس يكون طاهراً إن تم أخذه من قريش وإن لم تعط قريش لباس الطواف لأحد ما فينبغي عليه الطواف عارياً. ومن الامتيازات الأخرىٰ أن قريشاً لم تكن تفيض من عرفات كبقية الحجاج بل كان أهلها يفيضون من المزدلفة ويعتبرون هذا الامتياز فخراً لهم وقد أزال القرآن هذا الامتياز بالآية التالية:

﴿...ثُمَّ أفيضوا من حيث أفاض الناس ...﴾[1]

ورأىٰ الناس أن محمداً وهو من قريش يفيض مع الناس من عرفات وقد قال أيضاً في هذا السفر: لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا...إن دماءكم عليكم حرام إلىٰ أن تلقوا ربكم... وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دم أضع دم ابن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب، قتله بنو هذيل ...

وفي طريق عودته إلىٰ المدينة وفي منزل الجحفة وهو النقطة التي تتفرع منها طرق مصر والحجاز والعراق وفي مكان عرف بـ«غدير خم» نزل عليه أمر الله بأن نصّب علياً خليفة لك. وبتعبير آخر يجب أن يحدد مصير الحكومة الإسلامية بعد النبي، وقد خطب رسول الله في جمع المسلمين الذي قدر من ٩٠ إلىٰ ١٠٠ ألف قائلاً:

«مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعِلي مَولاهُ، اللهمَّ وال مَنْ والاهُ، وَعادِ مَنْ عاداهْ،

١- البقرة /٢: ١٩٩.

وأَحِبَّ مَنْ أحَبَّهُ، وَأَبْغض مَن أبغضهُ، وانصر مَن نَصَرَهُ، واخذل مَن خَذَلَهُ، وَأدر الحقَّ مَعَهُ حيثُ دار».[١]

بعد العودة من الحج ومع أن شوكة الإسلام وقوته كانت في ازدياد متصاعد إلا أن حالة النبي الصحية كانت في تدهور، ولكنه رغم المرض جهز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد، لجبران هزيمة مؤته.

ولكن وقبل أن يتوجه الجيش نحو هدفه توفي النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ وانتقل إلىٰ جوار ربه.

انطلق للقاء ربه بعد أن رسّخ الوحدة الإسلامية في كافة أنحاء شبه الجزيرة العربية وأوصل الإسلام إلىٰ حدود الإمبراطوريتين العظيمتين: الفارسية والرومانية.

وفاة النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾

كانت وفاة النبي بالنسبة لبعض المسلمين الجدد ولعدة من المسلمين القدامىٰ والسباقين أمراً غير قابل للتصديق، فقد رأوا بأم أعينهم كيف قام رجل باسم الله وفي سبيله بتوحيد شبه الجزيرة العربية التي كانت متفرقة ومضطربة ومخيفة سابقاً والتي لم تشهد وحدة ومركزية كهذه حتىٰ ذلك التاريخ؛ فقد وحد بين القبائل المتفرقة والمتصارعة والتي لم تعرف سوىٰ القتل والإغارة؛ وأقام حكومة علىٰ أساس الدين؛ وقضىٰ علىٰ الحرب والنزاع الداخلي في تلك المنطقة؛ وجعل الناس رحماء

١- حديث الغدير من الأحاديث المتواترة التي رواها منذ قديم الأيام علماء الشيعة وعلماء أهل السنة والجماعة، ونظم الشعراء الذين حضروا في ذلك الجمع فيه شعراً. لمزيد من الاطلاع يرجع إلىٰ الغدير، ج١ و ج٢ من تأليف العلامة الشيخ عبد الحسين الأميني.

وأخوة فيما بينهم. وبعبارة مختصرة فقد قام بأعمال لم يسبقه أحد إليها. إذاً فكيف يمكن أن يعيش هذا الرجل صاحب الأعمال الخارقة والمعجزات العظيمة ويموت كبقية الناس؟ لا يمكن أن يحدث هذا إنه لم يمت بل حي يرزق! كان هذا هو اعتقاد جماعة من الناس عندما وصلهم خبر وفاته﴿ﷺ﴾.

ذكر المؤرخون بمجرد أن سمع عمر خبر وفاة النبي﴿ﷺ﴾، قال: هذا كذب إنه لم يمت بل ذهب لجوار ربه وسيعود لاحقاً وكلِ من يقول بأنه مات فسأقتله بسيفي هذا؛ ولكن أبا بكر ذهب إليه وقرأ عليه هذه الآية:

﴿إنّك مَيِّتٌ وإنّهم مَيِّتون﴾[١]

ثمّ قال: أيّها النّاس مَن كان يَعبد محمداً فليعلم أنه قد مات، ولن يعود ومن كان يعبد رب محمد فإنّه حيٌّ لا يموت.

وأدرك المسلمون لاحقاً أنهم أمام حقيقة مرّة فقد انتقل النبي﴿ﷺ﴾ إلىٰ جوار ربه ولم يعد بينهم! إذاً ما الذي يجب أن يفعله المسلمون؟

من سيدبر هذه الدولة المترامية الأطراف؟

من المسلم أن الناس لن يجدوا قائداً دينياً نبياً بعده لأن محمداً قد قال قبل وفاته: «لا نبي بعدي». وقد أخبر القرآن الناس بأن محمداً هو خاتم الأنبياء[٢]

إذاً من سيتولىٰ قيادة الأمة الإسلامية بعده؟

١- الزمر/ ٣٩: ٣٠.

٢- الأحزاب/ ٣٣: ٤٠.

الفصل الرابع

الخلافة بعد النبي

خلافة أبي بكر

بينما كان علي بن أبي طالب وبنو هاشم مشغولين بمراسم تغسيل النبي﴿ﷺ﴾ ودفنه، راح بعض كبار القوم يتشاورون لتعيين وتحديد زعيم الأمة غير مكترثين بما قاله النبي قبل شهرين فقط من ذلك التاريخ. وتجمع عدة من المهاجرين والأنصار في مكان يسمىٰ سقيفة بني ساعدة. كان هدفهم الإسراع في تعيين خليفة للمسلمين، ولكن من الذي سيختارونه لهذا المنصب؟ دب الجدل والنقاش واشتد وطيسه.

كان النبي﴿ﷺ﴾ في حياته يشاور في الأمور الكبيرة والهامة من أسلم في بداية الدعوة الإسلامية ثمّ هاجر معه إلىٰ المدينة، وكذلك أولئك الذين دعوه من مكة إلىٰ المدينة (أي المهاجرين والأنصار)، إذاً يمكن لهاتين المجموعتين من المسلمين أن يبتوا في أمر الحكومة، ويجب أن يكون الخليفة من بين هؤلاء، هكذا كان يعتقد الحاضرون في السقيفة. وكانت كل فئة من هاتين الفئتين: المهاجرين والأنصار تعتبر نفسها أحق بهذا المنصب.

كان أهل مكة يقولون لقد ظهر الإسلام في مدينتنا وبيننا، والنبي من قومنا؛ نحن أهله وأقرباؤه، وقد قبلنا هذا الدين ودخلنا فيه قبلكم، فيجب أن يكون الخليفة من المهاجرين، وكان الأنصار يقولون إن مكة لم تقبل دعوة محمد بل قابلته بالعداء والمواجهة؛ ولقد عملت جهدها على إيذائه حتىٰ هاجر منها مضطرا مرغماً، وقدم إلينا في يثرب؛ نحن الذين وقفنا معه وقدمنا العون إليه ورفعنا كلمة الإسلام عالياً، فيجب أن ينتخب الخليفة من بين الأنصار.

وقبل بعض الأنصار أن تدار الحكومة بشكل مشترك من قبل كلا الفريقين، وقالوا: منا أمير ومنكم أمير، ولكن أبا بكر لم يقبل بذلك، وقال: إن عملاً كهذا سيخرق وحدة المسلمين، فليكن الأمير منا والوزراء من الأنصار، وأن لا يتم التصرف بشيء إلا بعد المشورة معهم، ونقل رواية عن النبي﴿ﷺ﴾ أنّ: الأئمة من قريش.

هذه الرواية من الأحاديث التي ذكرت في الاسناد بهذه العبارة، ومع أنها موضع نقاش وجدل كبيرين ولكن كان لها أثر كبير في ذلك المحفل العظيم، وقد أدت إلىٰ إسكات دعوة الأنصار.

وفضلاً عن رواية أبي بكر هذه يبدو أن العداء القديم بين قبيلتي الأنصار: الأوس والخزرج أثر في تقوية رأي المهاجرين، فلو فرض أن الرئاسة وصلت إلىٰ الأنصار فلن ترضى أي من هاتين القبيلتين بحكم الأخرىٰ ورئاستها. وكان كلام بشير بن سعد من قبيلة الخزرج في تأييد كلام أبي بكر وقبول حكم المهاجرين خير دليل علىٰ ذلك.

وعندما أصبح من المسلم أن الخليفة يجب أن ينتمي إلىٰ المهاجرين وقريش، بدأ النقاش والتشاور حول الشخص المناسب. كان اثنان أو ثلاثة أشخاص ممن كانوا يديرون الأمور في ذلك المجلس يلقون بذلك الأمر كلٌ علىٰ الآخر. وفي النهاية قبل عمر وأبو عبيدة بن الجراح أبا بكر وبايعاه. وقام أغلب الحاضرين باتباعهم في ذلك.

وفي اليوم التالي حضر أبو بكر إلىٰ مسجد النبي حيث خطب عمر خطبة في الناس تحدث فيها عن فضل أبي بكر وسبقته في الإسلام ومساندته للدين ورفقته للنبي من مكة إلىٰ المدينة، وطلب من الناس أن يبايعوه، فقبل الناس البيعة إلا عدة من الأنصار وأقرباء النبي﴿ﷺ﴾. وبهذا الشكل وصل أبو بكر في ذلك المجلس للخلافة. تجمع عدة من المهاجرين والأنصار في السقيفة في خلافة أبي بكر وتعيينهم للخليفة

وقبول الجمع وتسليمهم بذلك، أصبح سنة فيما بعد.

ثم خطب أبو بكر في المجلس وقال: قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.

وبعد مبايعة الناس لأبي بكر انتهىٰ أمر تعيين الخليفة علىٰ الظاهر، ولكن كان لطريقة الانتخاب هذه عواقب وخيمة لم تظهر في السنوات الأولىٰ بعد وفاة النبي بوضوح، ولكن كلما تقدمت السنوات أكثر علمت وبانت آثارها السيئة أكثر. يقول الشهرستاني في الملل والنحل:

«... إذ ما سلّ سيف في الإسلام علىٰ قاعدة دينية مثل ما سلّ علىٰ الإمامة في كلّ زمان.»[١]

وكلامه صحيح، وبحسب الظاهر فإن اختلاف المهاجرين والأنصار علىٰ مسألة الإمامة والحكومة قد انتهىٰ، ولكن شرارة هذا الخلاف بقيت في قلوب فئة (قليلة في الظاهر) وهذه الشرارة بعد مرور قرن واحد فقط تحولت إلىٰ شعلة ونار التهمت أنحاء الشرق الإسلامي، بل العالم الإسلامي كله.

بداية المشاكل

ذكرنا في الفصول الأولىٰ أن الإسلام كان مجرد دعوة دينية عندما كان في مكة،

١- الشهرستاني، الملل والنحل، تصحيح أحمد فهمي، (القاهرة: مطبعة الحجازي، ١٣٦٨هق)، ج١، ص١٦.

وفي المدينة شكلت حكومة على أساس الدين. صحيح أن المسلمين كانوا أحراراً في أغلب الأمور الاجتماعية، ولكن الأحكام كلها كانت تنبعث من القرآن والوحي.

لو لم يتخل هذا النظام (الحكومة المرتكزة علىٰ الدين) عن الصفاء والإخلاص والتضحية والأهم من ذلك التقوىٰ والعدالة، لكان للمسلمين اليوم شأن وحال آخر. إن العجلة التي أظهرها بعض كبار القوم حين وفاة الرسول، يدل علىٰ أن جل اهتمامهم كان ينصب على كيف يجب أن ينتخبوا الحاكم بأسرع وقت ممكن، وقلما التفتوا إلىٰ كيفية إدارة الحكومة وتسيير شؤونها.

لا مجال هنا للبحث الكلامي والتطرق إلىٰ موضوع الإمامة، فالهدف من هذا الكتاب هو الإشارة بإيجاز إلىٰ تاريخ الإسلام، ولكن لا بدّ هنا من الإشارة إلىٰ نقطة هامة، وهي لماذا لم يتم الالتفات إلىٰ آل النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ ودعوتهم إلىٰ مجلس الشورىٰ هذا ليتم تحديد مصير المسلمين؟ لماذا لم يُدع أحد من بني هاشم؟ ولماذا كل هذه العجلة؟

كان جسد النبي الطاهر في بيت عائشة، وقد تجمع أصحابه والتفوا حوله. يقول الفقه في الإسلام أنه يجب عدم التباطؤ والتلكؤ في أمر الغسل والصلاة علىٰ الميت. ومن المستحب أن يشارك المسلمون في إقامة الصلاة ومراسم دفن أخيهم المسلم.

وهذا يخص كل فرد مسلم فما بالك بمراسم دفن نبي المسلمين﴿صلى الله عليه وآله﴾.

لماذا حرم كبار القوم أنفسهم من تلك الفضيلة وذاك الشرف؟

لعلهم كانوا يخشون من الفتنة فأرادوا الإسراع في انتخاب زعيم للأمة! ولكن كم كانت تستغرق تلك المراسم من الوقت؟

علىٰ ما يبدو فإن تفكير البعض كان منحصراً بالحكومة فقط، وهي إحدىٰ القاعدتين اللتين يرتكز الإسلام عليهما: الحكومة والدين.

ويدل علىٰ ذلك كلام رئيس طائفة الأنصار، وبعض الأحاديث التي تكلم بها البعض، وطريقة كلام وتفكير بعضهم هي أقرب إلىٰ النظام القبلي منه إلىٰ الدين

الرباني، فلو كان في الجمع أو خارجه رجل يتمتع بمزايا قائد وزعيم وينتمي إلىٰ آل النبي، فلماذا لا يمكنه أن يتولىٰ الزعامة؟!

هذه عبارة عن مجموعة من التساؤلات التي بقيت بلا جواب أو أنه تم الرد عليها بأسلوب هدفه قهر الطرف الثاني في الجدل المنطقي وليس تبيين الحقيقة وإظهارها.

لقد مضىٰ علىٰ ذلك التاريخ قرابة أربعة عشر قرناً وأولئك الذين شقوا هذا الطريق أمام المسلمين، هل كانوا حريصين علىٰ الإسلام فعلاً أم أن الخوف من تفكك المسلمين وتفرقهم قد غلب عليهم؟ لا نعلم، وعلىٰ كل حال، فقد لفتهم المنية وحسابهم عند الله، ولكن وكما ذكرنا فقد ظهر في ذلك اليوم شرخ بين المسلمين لم يظهر قبل ذلك أبداً: بعض الذين لم يبايعوا كسعد بن عباده رئيس قبيلة الخزرج الذي امتنع عن مبايعة أبي بكر، ولم يحضر صلاته أبداً، وذهب إلىٰ الشام في أيام خلافة عمر، واستقر في منطقة حوران[1] وشوهد ذات ليلة وهو مقتول بسهم، فقالوا: لقد قتله الجان وراحوا يسردون الشعر في قتله:

قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة ورميناه بسهمين فلم نخط فؤاده

وهكذا وبنسج هذا الأسطورة خلصوا قاتله من القصاص.

وفضلاً عن سعد، فقد امتنع علي«عليه السلام» وبنو هاشم وعدد آخر من الصحابة عن مبايعة أبي بكر لمدة ما.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن علياً«عليه السلام» لم يبايع أبا بكر طوال ستة أشهر من حياة فاطمة بعد وفاة الرسول[2] ولكن ذلك يبدو ضعيفاً ومستبعداً:

١- منطقة في سورية.

٢- تاريخ الرسل والملوك، ج ١، ص ١٨٢٥.

أولاً : فاطمة الزهراء﴿عليها السلام﴾ توفيت بعد الرسول بمدة أقل من ستة أشهر.

وثانياً: إن حرص علي علىٰ خير الأمة وخوفه من التفرقة والتفكك كان يمنعه من التأخر في ذلك. وفضلاً عن ذلك فإن زعماء القوم الذين أرادوا أن يوطدوا أساس الحكومة بأسرع ما يمكن من المسلم بأنهم لن يتركوه وشأنه طوال هذه المدة الطويلة.

وعلىٰ كل حال تم انتزاع مبايعة العباس والزبير والآخرين ممن كانوا في تردد من أمرهم وهكذا انتهىٰ أمر الحكومة. وهدأت المدينة بانتخاب الخليفة؛ ولكن خليفة المسلمين فضلاً عن المسلمين أضحىٰ أمام مشكلة كبيرة!

المرتدون عن الدين

ذكرنا في الفصول الماضية بأن أغلب قبائل شبه الجزيرة العربية، وأطراف مكة، والمدينة والطائف، وكذلك القبائل القاطنة في جنوب وشرق شبه الجزيرة العربية قد أعلنت إسلامها حين استسلمت مكة أمام النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾وكسرت هيبة قريش التي كانت هي أقوىٰ قبيلة في تلك المنطقة، فبعد تسليم قريش أدركت تلك القبائل أنها غير قادرة علىٰ مواجهة الإسلام والوقوف بوجهه، ولم يمض وقت طويل من ذلك التاريخ حتىٰ توفي النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ وكما ذكرنا سابقاً فإن أغلب شيوخ القبائل قد أسلموا إما خوفاً أو طمعاً. وقد التقىٰ بعضهم بالنبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ لفترات قصيرة، ولكن أغلب أبناء هذه القبائل لم يروا شخص الرسول، ولم يسمعوا حديثه، ولم تكن الفرصة متاحة في تلك البرهة القصيرة من الزمن ليرسل النبي إليهم من يعلمهم كتاب الله وأحكام الإسلام، وبناءاً علىٰ هذا فقد كانوا بعيدين عن روح الشريعة الإسلامية.

كان أداء الكثيرين من هذه القبائل للزكاة أمراً شاقاً، وكانوا يعتبرون الزكاة

وهي أحد أركان الإسلام نوعاً من فرض الضريبة بالقوة، والتي كانت ترفضها طبيعة البدوي. وبمجرد أن سمع هؤلاء بأن النبي قد توفي أعلنوا التمرد والعصيان، وكما أشرنا سابقاً فإنه وفي السنوات الأخيرة من عمر النبي﴿ﷺ﴾ قام بعض الأفراد بادعاء النبوة، فكسبوا تأييد بعض القبائل، وهناك جماعة لم تكن تعلم بأن عليها إطاعة أبي بكر ويمثل قول الشاعر هنا طريقة تفكير هؤلاء:

أطعْنا رسولَ اللّه ما كان بيننا فيا لعباد اللّه ما لأبي بكر[1]

ومن بين القبائل التي بقيت علىٰ الإسلام هناك قريش في مكة وثقيف في الطائف.

حين وصل خبر وفاة النبي إلىٰ مكة، اختبأ عتاب بن أسيد حاكم مكة من خوفه واضطربت أمورها وكان يخشىٰ ترك أهل مكة للإسلام، وخروجهم عن هذا الدين وفي ذلك الوقت وقف سهيل بن عمرو علىٰ باب الكعبة ونادىٰ:

يا أهل مكة! لا ألفينكم آخر الناس إسلاماً وأولهم ردة! والله سيستقيم أمر هذا الدين وسيتحقق ما وعد به محمد.

وقد أدىٰ كلام سهيل هذا إلىٰ حفاظ أهل مكة علىٰ إسلامهم في ذلك اليوم.

١- هذا البيت للشاعر المشهور أبي مليكة حُطَيبة، والبيت الذي بعده هو:

أيورثها بكراً إذا مات بَعْدَهُ وَتلك وَحق اللّه قاصمةُ الظَّهرِ

ولكن في الأحكام السلطانية للقاضي أبي يعلىٰ نسبه للقوم الذين امتنعوا عن دفع الزكاة واعتبره مصحح الكتاب السيد محمد حامد الفقي للحارثة بن سراقة، وأضاف في آخر الصفحة بيتين أحدهما قافيته حرف الدال (ص٣٧). حارثة بن سراقة المشهور في التاريخ الإسلامي من الأنصار وقد استشهد في معركة بدر[!].

سهيل بن عمرو هذا هو نفس الرجل الذي حين رأىٰ متن صلح الحديبية قبل خمس سنوات وقد كتب في أعلاه «بسم الله الرحمن الرحيم» قال: أنا لا أعرف الرحمن والرحيم، ولا أقرّ بأنّ محمداً نبي، ولكنه أدرك في هذه المدة الوجيزة بأنه لا مجال لمقاومة هذا الدين الجديد وعدم إمكانية الرجوع إلىٰ الحكم القبلي مرة أخرىٰ.

من المسلم أن بعض رجالات قريش قد أسلموا عن قناعة واعتقاد وقد رأىٰ الكثير من كبار القوم أن مصلحتهم وصلاحهم مرتبط بالإسلام وأن عليهم التعاون مع الخليفة الجديد.

التفّت القبائل القاطنة في نجد واليمامة وكذلك بنو تغلب حول من ادعىٰ النبوة كذباً. وهكذا قويت شوكة هؤلاء كطليحة من بني أسد ومسيلمة من بني حنيفة وسجاح من بني تميم، وبعد أن وصل أبو بكر للخلافة، ومع أن مركز خلافته لا يبعد عن المخالفين كثيراً وكان يُخشىٰ في كل لحظة من هجوم القبائل المرتدة عن الدين علىٰ المدينة سعىٰ أبو بكر لإرسال جيش أسامة[1] إلىٰ مؤتة والتي كانت مسرحاً لإحدىٰ المعارك في حياة الرسول ومع أن أسامة وبعض كبار الصحابة أشاروا إلىٰ أن الشروط والظروف الحالية غير مناسبة، وليس من مصلحة المسلمين وصلاحهم إرسال ذلك الجيش، إلا أن أبا بكر أصرّ وقال: «لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاءاً قضىٰ به رسول اللّه ...» وفي النهاية أرسل جيش أسامة هذا وقد أظهرت الحوادث التالية أن إرسال الجيش في هذه الظروف والأحوال كان له كل الأثر في إسكات المرتدين، فقد قال هؤلاء لأنفسهم: لو لم يكن الإسلام يتمتع بقدرة وقوة كبيرة لما أرسل أبو بكر جيشه في هذه الظروف وهذا الوقت إلىٰ منطقة نائية.

١- كان هذا الجيش في آخر أيام النبي ﷺ قد تهيأ واستعدّ للتوجه نحو مؤتة وهو المكان الذي استشهد فيه جعفر بن أبي طالب، ولكنه بقي في مكانه خارج المدينة عندما توفي النبي ﷺ.

بعد إرسال جيش أسامة سعىٰ الخليفة وأصحابه إلىٰ نزع فتيل الاضطرابات واحدة تلو الأخرىٰ. وكان لخالد بن الوليد أثر كبير في إعادة الهدوء إلىٰ شبه الجزيرة العربية.

ولكن هذا الرجل الشجاع - وللأسف - لم يكن يتمتع بتقوىٰ الإنسان العابد.

في النهاية ألقي القبض علىٰ من ادعىٰ النبوة كطليحة، وسجاح، ومسيلمة وإياس بن عبدالله وفرّ البعض الآخر وخضعت المدن والقبائل القاطنة في الجنوب والشرق لحكم المدينة ثانية، وهدأت حضرموت وأعلن اليمن تسليمه بعد نزاع طفيف.

الحدث المهم الذي وقع بعد إخماد هذه الاضطرابات هي أن البدو وزعماء القبائل أدركوا بأن زمن المقاومة الفردية والنزاعات الداخلية قد ولّىٰ وأن من مصلحتهم في الوقت الحاضر أن يخضعوا للحكومة الإسلامية، وأن يطيعوا أبا بكر.

ونتيجة لتبدل الوضع العقائدي والاجتماعي، بعد الحروب التي عرفت في التاريخ الإسلامي بحروب الردة، فقد انتهىٰ الصراع في شبه الجزيرة العربية، وظهر جيش يتشكل من كافة القبائل ليدافع عن الخليفة في المدينة باسم الإسلام، ونتيجة لإخماد نار الحروب الداخلية، رأىٰ هذا الجيش القوي والموحد نفسه علىٰ حدود الإمبراطوريتين العظيمتين الفارسية والرومانية، وبذلك بدأت مرحلة حرجة وحساسة وأصبح اصطكاك العرب المسلمين واحتكاكهم بالفرس والروم حتمي ولا مفرّ منه.

الإسلام في إيران

عندما تحدثنا عن طبقة سكان البادية والصحاري قلنا أن ضرورة الحياة قد عودتهم علىٰ الصراع والحرب، وبعدما اعتنقوا الإسلام بدلوا الحقد والكراهية فيما بينهم إلىٰ الأخوة ورأوا أنفسهم مكلفين بالجهاد في سبيل دين الإسلام، وفي سبيل

الله، ليبذلوا دماءهم هذه المرة في سبيل الله بدل أن تسفك من أجل ناقة أو شاة كما كانوا يفعلون في الماضي.

وهكذا شكلت علىٰ الحدود الإيرانية قوة موحدة ذات عقيدة وفكر واحد. قوة ذات اعتقاد راسخ بهذا الدين والتي إذا وظفت في حرب ستنال إحدىٰ الغنيمتين العظيمتين النصر أو الشهادة.

ذكرنا في الفصول الماضية، أنه وبعد سقوط الدويلات الجنوبية هاجر بعض سكان هذه المنطقة إلىٰ بقية أنحاء شبه الجزيرة العربية وأينما وجد هؤلاء أرضاً مناسبة للعيش قطنوها في شمال الجزيرة أو في شرقها.

ومع ازدياد وتعاظم نفوذ القوىٰ الخارجية من روم وفرس في شبه الجزيرة العربية، التحقت كل منطقة من هذه المناطق بجارتها من إحدىٰ هاتين الدولتين العظيمتين وراحت تساندها إذا نشبت حرب بينهما.

كانت البلاد التي تسمىٰ العراق[١] حالياً خاضعة لنفوذ الدولة الساسانية في ايران وكانت تعتبر سداً أمام هجوم القبائل الصحراوية إلىٰ داخل إيران، ولكن الملك الساساني خسرو پرويز قضىٰ علىٰ الحكومة المحلية فيها، وبسقوط تلك الحكومة لم يعد هناك مانع وسد أمام القبائل الصحراوية.

بعد النزاع الذي نشب بين طائفة بكر بن وائل وبني شيبان مع بعض القوات الفارسية في عهد خسرو پرويز والذي أدىٰ إلىٰ هزيمة الفرس، وعرفت تلك الواقعة في تاريخ العرب بموقعة ذي قار فقد شعر العرب الساكنون في الطرف الشرقي من شبه الجزيرة العربية بأن قدرة الدولة الساسانية ليست بالقدرة التي لا يمكن التغلب عليها.

ذكر المؤرخون القدامىٰ أن المثنىٰ بن حارثة الشيباني رئيس قبيلة بكر بن وائل

١- كان العراق في ذلك الزمان من الناحية الجغرافية أصغر من العراق اليوم.

والذي أسلم في السنة التاسعة للهجرة، ويسكن مع قبيلته ضفاف الفرات، والذي كان يغير علىٰ الحدود الإيرانية كلما سنحت له الفرصة بعث بكتاب إلىٰ أبي بكر أطلع الخليفة فيه علىٰ تدهور الوضع الداخلي في ايران وعجز وفشل الملوك الساسانيين في إدارة البلاد وطلب منه الموافقة علىٰ مهاجمته المناطقة الخاضعة لنفوذ الفرس؛ وهكذا وافق الخليفة وعين خالد بن الوليد قائداً عاماً للجيش علىٰ أن يكون المثنىٰ تحت إمرته. لو فرضنا صحة هذه الرواية أو أن المثنىٰ قد ذهب بنفسه إلىٰ المدينة وأطلع أبا بكر علىٰ الحالة الداخلية في ايران فمن المسلم أنه لا الخليفة ولا قادته ولا أصحاب رسول الله، كان يفكر بفتح ايران والهجوم علىٰ هذه الدولة المترامية الأطراف.

كما نعلم وكما ذكرنا في الفصول السابقة فإن الحروب الداخلية في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام كانت حروباً محلية تتحد فيها إحدىٰ القبائل مع عدة قبائل أخرىٰ ومن ثم تعلن الحرب علىٰ عدوتها، ومثل هذه الحروب لا تحتاج إلىٰ رؤية استشرافية مستقبلية ولا إلىٰ خطط معقدة وطويلة الأمد. وكذلك فإن الحروب في عهد النبي ﷺ كانت تقع في أماكن محددة ومدة قصيرة. ويمكننا القول أن التفكير العسكري أثناء الإعداد للهجوم علىٰ بلاد فارس كان يتمحور علىٰ أساس الحروب الهجومية المحلية أو الدفاعية المحدودة وبعد الصدام في جسر بويب ومعركة القادسية والهزيمة النكراء التي مني بها الفرس راح الخليفة ومعاونوه يفكرون بجدية أكبر في توسيع نطاق الفتوحات. وأدت تلك الانتصارات الخاطفة إلىٰ تعاظم الخوف عند الحكومات المحلية الإيرانية من مد القدرة الإسلامية وأيقنوا أنهم غير قادرين علىٰ مقاومة هذه القوة وازداد خوفهم من المسلمين إلىٰ درجة أنهم كانوا يظنون بأن الأسنة لا تؤثر وليس لها مفعول علىٰ أجساد الفرسان

العرب.[١]

وبعيداً عن قوة الإيمان التي كان لها الأثر الأكبر في انتصار العرب في هذه الحروب، فإنه لا يجب أن نغفل عن العوامل السياسية المساعدة والأهم منها العامل الاجتماعي السائد في ايران في ذلك الزمان.

إن مطالعة الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة في ايران في ذلك الزمان يبين أن نظرة العرب إلىٰ هذه الدولة بعد معركة ذي قار ليست بعيدة عن الواقع والحقيقة حيث واجه الشعب الإيراني في نهاية العهد الساساني أوضاعاً صعبة للغاية، وكان الفرس يتمنون الخلاص منها.

الفترة الممتدة بين موت خسرو پرويز وجلوس يزدجرد علىٰ العرش حوالي أربع سنوات تقريباً وفي هذه السنوات الأربع إن غضضنا النظر عن حكم شهربرازا والذي عرف بلقب غاصب السلطنة، فإن أحد عشر ملكاً تناوبوا علىٰ عرش هذه البلاد.

تظهر هذه الحكومات المهزوزة والمضطربة إلىٰ أي درجة كانت الفوضىٰ وعدم الاستقرار في حكم البلاد وتدبيرها وكيف أن هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف تفتقد إلىٰ القدرة اللازمة للحفاظ علىٰ نظم البلاط الملكي علىٰ الأقل.

إن الحروب المستمرة بين الفرس والروم خلال أكثر من عشرين عاماً ألحقت الأذىٰ والدمار بإيران ولا سيما بعد السنوات الأولىٰ، كما أنها زادت من الضغوط علىٰ الشعب. وكم التهمت هذه الحروب من القوىٰ الإنسانية، وكم دمّرت وخرّبت من المدن والقرىٰ. وكم أجبر هذا الشعب علىٰ دفع الضرائب الكثيرة لتأمين نفقات هذه الحروب!

وقد نتج عن هذا الوضع انعدام الأمن في المدن والطرق كما أن سوء الوضع

١- يمكن الرجوع إلىٰ: فتوح البلدان، ص ٢٦٠.

التجاري والأزمة الاقتصادية المزمنة عاملان كل منهما بمفرده كاف لتذمر الشعب ونقمته وثورته.فما بالك إن توفر كل ذلك مع بعضه البعض؟.

ومن البديهي في هذا الوضع أن تستفيد الحكومات من شبكة جاسوسية منظمة لضمان استمراريتها وثباتها، ومنع الشعب المتذمر من القيام والثورة، ولكي يأمن الناس شر الجواسيس عليهم التوسل بالنفاق والرياء والتظاهر بالوفاء للحكومة رغم كونهم في الخفاء غير راضين ويسعون للخلاص.

في مجتمع كهذا تقوم الحكومة والشعب بخداع بعضهما البعض، وبالابتعاد عن الحقائق والوقائع.

يمكن القول بأنه من النصف الثاني لعهد حكم الملك خسرو پرويز وحتىٰ تسلم يزدجرد الثالث لمقاليد الحكم فإن شعب إيران انقسم إلىٰ أقلية وأكثرية: أقلية تشمل البلاط ومن يرتبط به بدءاً من أفراد الجيش ورجال الدين وحتىٰ الإقطاعيين، والذين كان يتوفر لهم كل شيء، وأكثرية لا تملك أغلب ما تحتاج.

وليس لزاماً علينا أن نقول أن وصول "پوراندخت" إلىٰ الحكم قد جعل العرب يظنون بأن ايران قد خلت من الرجال فتسلمت النساء زمام الأمور وهكذا قاموا بمهاجمة ايران. كان الشعب الايراني هو الذي لم يعد قادراً علىٰ تحمل المزيد من الضغوط وكان يسعىٰ وراء الخلاص وكان ذلك الخلاص هو صوت الإسلام الذي علا في المناطق العربية الخاضعة لإيران أولاً، ثمّ ما لبث أن سمع في المناطق الجنوبية والغربية أيضاً.

إن لم تكن قصة الحوار بين المغيرة بن شعبة مع القائد الإيراني رستم من إنشاء ونسج القصاصين والتي من المستبعد أن تكون غير صحيحة، فإن التأثير الذي تركه سلوك ذلك القائد العربي في ذلك المجلس والحوار الذي دار بينه وبين ذلك القائد الإيراني وردة الفعل والصدىٰ الذي سببه هذا الحوار في نفوس الحاضرين وكل من وصل إليه الخبر لأقوىٰ وأشد من تأثير العمليات الحربية التي يقوم بها جيش قوي

ومنظم.

يقول الطبري: «عندما أقبل المغيرة بن شعبة، والقوم في زيهم، عليهم التيجان، والثياب المنسوجة بالذهب، وبسطهم علىٰ غلوة لا يصل إلىٰ صاحبهم حتىٰ يمشي عليهم غلوة، وأقبل المغيرة يمشي حتىٰ جلس معه علىٰ سريره ووسادته، فوثبوا عليه فتروه وأنزلوه ومغثوه، فقال المغيرة: كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرىٰ قوماً أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسىٰ وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم ولكن دعوتموني، اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون، وأن ملكا لا يقوم علىٰ هذه السيرة ولا علىٰ هذه العقول. فقالت الرعية: صدق واللّه العربي، وقالت الدهاقين: واللّه لقد رمىٰ بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل الله أولينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة...».

وبدون شك فإن ذلك النداء والصوت كان يبشر بالمساواة والعدل وقد ساعد في إيصال جيش العرب من ضفاف الفرات حتىٰ ضفاف نهر هيرمند في سيستان في أقل من ربع قرن.

لقد حاول كتاب الـ « شاهنامه »[1] جاهدين إلىٰ الربط بين هزيمة الفرس في معركة القادسية والعوامل الجوية غير المساعدة (ونرىٰ مثل هذه التحليلات والتبريرات في المعارك السابقة التي هزمت فيها ايران أيضاً).

بل لا يوجد عامل أهم وأشد تأثيراً من نقمة الناس وعدم رضاهم عن أوضاعهم لاحتلال هذه البلاد الواسعة بواسطة مئات قليلة وفي مدة زمنية قياسية.

١- (= رسالة سيرة الملك) [وهي غير شاهنامة الفردوسي].

ذكر المؤرخون أن عدد أفراد الجيش الذي تحرك من الحيرة قاصداً بلاد فارس يتراوح بين ثمانية إلىٰ عشرة آلاف رجل، ومن المسلم أن رقم ثمانية آلاف مبالغ فيه، ولو فرضنا صحته، فإنه أقل من عدد الجنود المتمركزين فى أي نقطة من نقاط الحدود العسكرية الايرانية، وأكثرهم من المشاة الذين لا يملكون من أنواع الأسلحة سوىٰ الحراب والأسنة.

فما الذي حدث حتىٰ استطاعت تلك القوىٰ المتواضعة أن تحقق تلك الانتصارات في مدة زمنية قياسية كهذه؟

من البديهي أن القوة الدينية كانت سر قوة جيش العرب (في الغالب)، وقلة منهم كان غرضها الحصول علىٰ الغنائم، أما في الجانب الآخر، وفي تلك البلاد الواسعة فإن المقاومة اقتصرت علىٰ القادة والجنود، بينما لم يحرك عموم الناس ساكناً، ولم يُظهروا أية مقاومة، وهي دلالة علىٰ سخطهم علىٰ الحكومة الساسانية.

وما أن فرغ خالد والمثنىٰ من أمر المرتدين من المسلمين حتىٰ أصبح التقدم نحو الحيرة ومدن الضفة الغربية للفرات مسلماً.

وكما ذكرنا سابقاً وبناءً علىٰ طلب المثنىٰ أصدر أبو بكر الأمر بالتحرك نحو مدن العراق الحالية، وقد توجه المسلمون في البداية إلىٰ الحيرة. وكانت الحيرة مدينة تقع بين الكوفة والنجف الحالية، وعندما توجه العرب نحو الحيرة، فضل حاكم المدينة الصلح علىٰ الحرب، وقام بدفع تسعين ألف درهم لدرء خطر التعرض للمناطق التابعة له.

وقد ذكر أن هذا المال هو أول مال مصالحة يؤخذ فى الإسلام من ايران. وبعد الحيرة سلمت مدن أخرىٰ: كابلة، وعين التمر بعد حرب أو معاهدة صلح.

وفى كتابات الطبري والبلاذري نرىٰ فتح مدينة ما مقسم علىٰ نوبات، وكذلك نرىٰ بعض الاختلافات في أسناد تاريخ الحرب والفتوحات!

بعيداً عن أن المؤرخين القدماء لم تكن لديهم دقة كافية في تسجيل الأحداث

والوقائع، فإنه من الطبيعي أنه عندما تستسلم بعض المدن، ويخرج الجيش الفاتح منها أن تقع مرة أخرىٰ في أيدي حراس الحدود الايرانيين، وأن يثور الناس المحليون فيها، فترسل إليها قوة من جديد لإخماد الثورة، أي أنه من الطبيعي في هكذا نزاعات أن يتم تبادل هذه المدن أو القرىٰ لمرات عديدة، وبناءاً علىٰ هذا، فقد سجل تاريخ فتح بعض المدن بصور مختلفة، وبعد الفراغ من أمر الحيرة استدعى أبو بكر خالد بن الوليد من العراق، وأرسله إلىٰ الشام لمساندة المسلمين، وذكر البعض أن خالد ذهب إلىٰ الحج دون إذن من أبي بكر، فأراد الخليفة وتأديبه، فعزله من قيادة جيش العراق، ولكن لا يبدو هذا التحليل والتعديل أمراً منطقياً، لأن أبا بكر، ومعاونيه لديهم من بعد النظر والخبرة ما يمنعهم من عزل قائد مناسب مثله في وضع حرج وصعب كهذا أو تفويض مهمة جديدة له.

والذي يبدو صحيحاً هنا هو أن تثبيت أقدام المسلمين في الناحية الشرقية من خلال صلح الحيرة، وتسخير الأنبار، وعين التمر، والمدن الأخرىٰ، والخوف من هزيمة الجيش المكلف بالسيطرة علىٰ ممتلكات ومتصرفات الإمبراطورية الرومانية من جهة أخرىٰ كل هذا جعل أبا بكر يرسل خالداً إلىٰ الشام. وكما سنرىٰ لاحقاً في حوادث الشام فإن تغيير مهمة خالد قد صب في صالح المسلمين في النهاية.

وبعد ترك خالد للعراق، تولىٰ المثنىٰ قيادة الجيش بمفرده، وانتقل من الحيرة إلىٰ بابل، وهي المدينة التي إلىٰ تقع إلىٰ جانبها حالياً مدينة الحلة.

يقول الطبري: في هذه الأثناء وصله كتاب من شهربراز: أنني أرسلت جيشاً لقتالك عملهم تربية الخنازير والطيور، وسوف أقاتلك بمثل هذا الجيش. فكتب له المثنىٰ: لا يخلو الأمر من اثنين إما أنك متجاوز وظالم، وهذا بضررك ونفعنا وإما أنك كذاب، وأسوأ الكذابين عند الله والناس هم الملوك. ومنه يعلم أنك فعلت ما فعلت عن عجز وعي، وأشكر الله الذي جعل مكرك ينقلب علىٰ رعاة خنازيرك وطيورك.

لو كان أمر كتابة هذه الرسالة للمثنىٰ صحيحاً (ومن المؤكد أنه ليس كذلك) فإن شهربراز هذا هو أحد القادة أو حراس الحدود الإيرانيين، وقد ذكر ابن الأثير اسمه شهريران غلطاً، لأننا لا نرىٰ هذا الاسم في سلسلة الملوك الساسانيين، وشهربراز هذا قتل قبيل توجه المسلمين نحو العراق.

والذي يبدو صحيحاً هنا هو أنه إن كانت هذه الرسالة قد كتبت بحق فإن شهربراز قد كتبها إلىٰ أحد زعماء العرب الذي كان يغير علىٰ مناطق نفوذ الامبراطورية الفارسية من حين لآخر، وقد كتبها شهربراز بعد ذهابه إلىٰ تيسفون، ومقتل اردشير الثالث، ولكن لم يكن مخاطبه المثنىٰ بل زعيماً آخر.

وبينما كانت الحرب في العراق تسير شيئاً فشيئاً لمصلحة المسلمين توفي أبو بكر في الثاني والعشرين من جمادىٰ الآخرة من السنة الثالثة عشرة للهجرة. وكما ذكر فإنه قد عين قبل وفاته عمر بن الخطاب خليفة بعده.

إن تقدم المسلمين السريع في العراق أظهر للقادة الايرانيين من جهة أن قتال العرب ليس بالأمر السهل. ومن جهة أخرىٰ جعل المسلمين أكثر تفاؤلاً وثقة بإمكانية التوغل في أراضي الحكومة الساسانية الأصلية.

وكما ذكرنا مرات عديدة في السابق فإن الإيمان المرفق بتعاليم نبي الإسلام والذي ظهر في أصحابه، والاعتقاد بأن نتيجة الحرب مع غير المسلمين هي الشهادة أو النصر هو العامل الرئيسي في تقدم العرب وفتوحاتهم المتتالية.

ولكن ومن جهة أخرىٰ فإن التاريخ يبين أن كل محاولات القادة والحكام لإجبار الجنود علىٰ المقاومة باءت بالفشل. فما هو سبب هذا الانهيار والتقصير في العمل يا ترىٰ؟

من خلال المقارنة بين شروط وظروف هذا النزاع مع مثيلاتها في العهود السابقة تتضح لنا نقطة هامة، وهي أنه في كل هذه النكسات والهزائم كان سخط الناس علىٰ الحكومات أكثر تأثيراً في تسهيل الطريق أمام القوىٰ المهاجمة من نفس

القوىٰ ذاتها وقوتها. وخصوصاً في حملة العرب المسلمين هذه، حيث راح الناس يقايسون بين بساطة الفاتحين وعفويتهم من جهة، وبين أبهة وجبروت القوة المتسلطة عليهم من جهة أخرىٰ.

ومن ناحية أخرىٰ وفي مقابل النظام الطبقي الحاكم علىٰ الناس كانت تصل إلىٰ مسامعهم القصص عن العدالة والمساواة الإسلامية.

فلو وقف الناس في هذا الصراع مع قوات بلدهم وقادتهم العسكريين، بل لو لم يمهدوا الطريق أمام دخول الإسلام لما وقعت تلك الهزائم المتتالية في تلك الفاصلة الزمانية القصيرة.

كان قادة ايران كـ"هرمزان" و"بهمن جادويه" و"رستم فرخ زاد" يحاولون منع تقدم الفاتحين من خلال تحريك المزارعين والسكان الحدوديين. ولكن جماهير الشعب من مزارعين وحدوديين لم يكونوا راضين عن الحكومة حتىٰ يتفاعلوا معها. وعلىٰ كل حال فقد تابع المثنىٰ ما قام به خالد كما أن عمر قد أرسل أيضاً جيشاً بقيادة أبي عبيدة الثقفي لمساندته.

وفي تلك السنوات كان يزدجرد يتربع علىٰ عرش الإمبراطورية الفارسية وكان شاباً شجاعاً قوي الإرادة وكثير النشاط وقد استطاع في مدة قصيرة ترميم البلاط الساساني المضطرب وإعادة الروح إليه ولكن يبدو أنه كان غير مطلع علىٰ ما يجري داخل بلاده ولا علىٰ حالة الناس، ولم يكن يعرف بأنهم غير راضين عن المؤسسات الحكومية أو أنه كان عالماً بذلك ولكنه كان عاجزاً ولا حيلة له غير الذي قام به.

وبدون أن يعرف يزدجرد السبب الذي يجعل شعبه يرجح ويفضل دين الإسلام وجيش العرب علىٰ نظام دولته والقادة الإيرانيين، قام بتجهيز القادة بجيوش ضخمة لمنع تقدم المسلمين.

ومن الطبيعي أن يكون قد تشاور مع من حوله قبل هذا الإقدام، ومع أن قادته هؤلاء كانوا رجالاً مؤهلين، ولكنهم هزموا الواحد تلو الآخر، وقتلوا أو أنهم نجوا

بأرواحهم من خلال التسليم والصلح، والمرة الوحيدةالتي انتصروا فيها هي معركة الجسر (پل) فقط، فقد نزل هذا الجيش الذي يقوده بهمن جادويه في الجهة الشرقية من الفرات (قس الناطف) وكان الجيش الإيراني قد جلب معه عدداً من الفيلة التي زرعت الخوف في خيول العرب التي فرت هرباً، وفي تلك الحرب قام أبو عبيدة قائد الجيش بمهاجمة الفيلة ولكنه قتل تحت أقدامها فهرب أفراد الجيش بعد أن شهدوا مقتل قائدهم. ومن جهة أخرىٰ قام رجل من المسلمين بتدمير الجسر ليمنع هروب جيش الإسلام من مواجهة الأعداء ودعا الجيش إلىٰ مقاومة العدو، ولكن ذلك لم ينفع أبداً فقد ألقىٰ جماعة من الفارين بأنفسهم إلىٰ الماء وكاد الجيش أن يهلك بأكمله ولكي يقلل المثنىٰ من خسائر المسلمين أمر ببناء جسر آخر، فقام بعمله الشجاع بإنقاذ بقية الجيش من الفناء الكامل.

انتصر القائد الإيراني في هذه الحرب ومن الطبيعي أن يتابع تقدمه ولكنه أجبر علىٰ العودة بسبب ما حل بتيسفون، وهذا الحادث يظهر بوضوح كم كان الشعب الإيراني في ذلك الزمان ساخطاً علىٰ حكومته بحيث استغلّ فرصة بُعد الجيش وانشغاله بالمعارك وانتفض علىٰ الحكومة.

سببت حرب الجسر التي وقعت في السنة الثالثة العشرة للهجرة انتشار القلق بين أفراد جيش المدينة، ولكن في السنة التالية انتصر جيش المثنىٰ في البويب[1] وبذلك عوضوا الهزيمة التي تكبدوها في حرب الجسر السابقة.

ونشبت حرب القادسية بعد معركة البويب. وقد تولىٰ فيها سعد بن أبي وقاص قيادة جيش المسلمين، بينما كان رستم فرخ زاد قائداً لجيش الفرس.

وقد أشار المؤرخون إلىٰ أرقام مختلفة فيما يتعلق بعدد أفراد كل من الجيشين، والتي لا تخلو من مبالغة، ولكن من المسلم أن الجيش الفارسي كان أكبر بكثير من

١- نهر في العراق، قرب الكوفة، ينشعب من الفرات.

جيش المسلمين؛ فالبلاذري مثلاً يشير إلىٰ أن الجيش الإيراني كان يبلغ قرابة ١٢٠ ألف رجل بينما يتراوح عدد جيش المسلمين من ٩-١٠ آلاف رجل، بينما يعتقد ابن الأثير بأن مجموع جيشي المثنىٰ وسعد وبقية الملتحقين بهم من العرب يبلغ ٣٠ ألفاً وأن تعداد أفراد الجيش الإيراني الذي توجه من ساباط إلىٰ القادسية بقيادة رستم يصل إلىٰ ١٠٠ ألف رجل.

من الطبيعي في ذلك الزمان أن يبتعد أمر نقل هذه الأحداث الهامة بأرقامها وأعدادها عن الواقعية (وهكذا للأسف في عصرنا هذا).

والأمر المسلم هنا من خلال الالتفات إلىٰ الموقع الجغرافي للمنطقتين وقيادة العمليات العسكرية، ومقرها وقوات التعبئة وإمكانات الجيشين العسكرية، وكما ذكرنا سابقاً أن جيش فارس أكبر بكثير من جيش العرب.

وقد روىٰ المتأخرون من المؤرخين العرب العديد من الروايات عن المحادثات التي دارت بين قادة جيشي العرب والفرس قبل شروع المعركة، وعن مجيء رسل المسلمين إلىٰ يزدجرد وإغضابه وجوابهم له.

ومع أنه لا شك في أصل الحديث الذي دار بينهما ولكن الرواة قد أضافوا إليه الكثير من المبالغات فيما بعد.

ومن المسلم أن الحوار ومهما تضمن قد دار بين رسل سعد بن أبي وقاص ورستم قائد جيش الفرس، وأنه لم يذهب رسول من العرب إلىٰ تيسفون ولم يلاق يزدجرد، وقد جاء الحوار في الـ «شاهنامه» للفردوسي[1] بصورة أشعار تحكي مضمون الرسائل التي أرسلها رستم إلىٰ سعد وأجوبته عليها.

وعلى كل حال فمن الطبيعي أن يتجنب رستم الحرب مع العرب في البداية من خلال الوعود لأنه كان علىٰ اطلاع بما يدور داخل البلاد وعلىٰ أحوال الناس بشكل

١- ملحمة شعرية ضخمة جداً وواسعة الشهرة في الوسط الفارسي والعالمي. م

أفضل من يزدجرد ولكن عمله وكلامه في تلك الظروف كان مفعماً بالأنانية أكثر من عمق الرؤية المستقبلية، وفي ذلك اللقاء طلب جيش المسلمين أحد الأمرين:

إما الدخول في الإسلام أو دفع الجزية. وكان رستم يقول: لن نكف عن الحرب حتىٰ نقتلكم جميعاً. فقال مبعوث المسلمين: من يقتل منا في الجنة ومن يقتل منكم في النار ومن سيبقىٰ منا سينتصر عليكم. وهكذا باءت المراسلات قبل الحرب بالفشل ونشبت الحرب.

وقد حاول الرواة والمؤرخون جاهدين الربط بين هزيمة جيش الفرس والقضاء السماوي وزعموا أنه في ليلة الحرب رأىٰ رستم في منامه ملاكاً قام بالختم على أقواس الجيش الفارسي (لكي لا تفيد) ثم عاد إلىٰ السماء، وذكروا أيضاً أنه في الليلة الأخيرة من ليالي الحرب هبت ريح قوية علىٰ الجيش وتسببت في إخفاقه. ولكن حتىٰ لو هبّت مثل هذه الريح فعلاً فإن رياح المعارضة التي علت في الداخل ووصلت إلىٰ المعسكر نفسه وقامت بتضعيف الروح القتالية للجيش لأشد وأقسىٰ من الريح المعاكسة تلك.

أولئك الجنود الذين تربوا في جلالة البلاط الساساني وعظمته والذين كانوا يرتدون أفضل ملابسهم في الحرب وجبهات القتال والمجهزين بأفضل الأدوات والأسلحة قد أصابتهم الدهشة والذهول عندما التقوا بجنود العرب ذوي اللباس الرث والحراب المتكسرة والسيوف المتآكلة التي لا غلاف لها، أنه كيف استطاع هؤلاء القوم الاستيلاء علىٰ نصف العراق حتىٰ هذا اليوم؟ عندها تيقنوا من وجود قوة سماوية تمدهم، وتقدم لهم يد العون.

عندما سأل رستم رسول سعد: لماذ يأتي إلي في كل مرة واحد منكم برسالة من سعد؟ ردّ عليه قائلاً: إن أميرنا يريد مراعاة المساواة والعدالة بيننا ولا يرغب بتحميل أحدنا بمفرده مشقة المهمة هذه!

كان الحاضرون ينظرون إلىٰ كل هذه المساواة بين الجيش وإلىٰ هذه العدالة

الحاكمة بين الرعية بالإعجاب والذهول.

دامت حرب القادسية أربعة أيام وانتهت لمصلحة جيش المسلمين (محرم سنة ١٣هـ ق) وكان سعد مريضاً في تلك الحرب، ولم يستطيع المشاركة في القتال، وكان يقود الجيش من مسافة بعيدة.

ويتبين لنا من بعض أشعار[١] الـ «شاهنامه» أن الرواة امتنعوا عن نسبة قتل رستم وهو القائد المشهور إلىٰ عربي مغمور.

وفي نهاية هذه الحرب أصبحت هزيمة الفرس في العراق أمراً مؤكد ومسلماً به، وأصبح الطريق ممهداً للوصول إلىٰ تيسفون عاصمة الساسانيين الشتوية.

وباءت الجهود التي قام بها بعض قادة الفرس لمنع تقدم جيش سعد بالفشل، وكان مصيرهم كمصير من كان قبلهم حيث فر أحدهم إلىٰ نهاوند، وفرّ الآخر إلىٰ الأهواز بينما قتل عدة منهم في الطريق.

وبفتح تيسفون وقعت القصور الساسانية في أيدي المسلمين، ومع أن قيمة الغنائم التي ذكرت والتي نالها الفاتحون العرب من هذا النصر فيها كثير من المبالغة ولكن من المسلم أنها كانت كبيرة جداً وقد ذكر المؤرخون اللاحقون، أو من الأفضل أن نقول القَصَّاصون أموراً تبدو غريبة وعجيبة عن السيطرة علىٰ هذه القصور والغنائم، فهل وقعت تلك الحوادث بحق أم أن الكتاب كانوا يرمون إلىٰ تحقير القوة المهاجمة؟ الله أعلم.

فذكروا أن العرب كانوا يضيفون الكافور إلىٰ قدور الطعام بدلاً من الملح أو يطعمون الكلاب في أوعية ذهبية، وأنهم مزّقوا بساط بهارستان «بساط خسرو» إرباً إرباً لتوزيعها علىٰ الجنود، وتبدو القصة الأخيرة بالخصوص مصطنعة

١- أورد منها المؤلف في الأصل ثلاثة أبيات مضمونها أن سعداً هو الذي نازل رستم وقتله.م

وموضوعة فلو فرضنا أن الخليفة كان بسيطاً إلىٰ هذه الدرجة ولكنّ مستشاريه والتجار ذوي الخبرة والمعرفة لا بدّ أن يقولوا له: بأن تمزيق هذا البساط سيفقده قيمته، وأنه يمكنه تقسيم قيمة هذا البساط علىٰ الفاتحين بدلاً من تمزيقه وتقطيعه ثم توزيعه عليهم. وعلىٰ كل حال ففي مثل هذه الحرب ستقع حوادث كهذه لا محالة.

بعد الفرار من تيسفون انتقل يزدجرد إلىٰ الناحية الغربية من ايران وكان يريد حسب زعمه جرّ العرب إلىٰ سفوح جبال ايران الغربية ومن ثم القضاء عليهم بعد تجميع قوة ضخمة وبذلك يعوض الهزائم السابقة! ولكن لم يحدث ذلك.

فالمسلمون توجهوا إلىٰ الأهواز من جهة وقاموا بالسيطرة عليها، ومن جهة أخرىٰ تلقىٰ الجيش الفارسي هزيمة أخرىٰ في معركة جَلَولا التي نشبت في غرب البلاد، وعقد يزدجرد العزم علىٰ القيام بمحاولته الأخيرة، فقام بتجهيز جيش كبير في نهاوند ولكن هذه القوة تلاشت أيضاً وانتهىٰ الأمر بانتصار المسلمين، وقد وقعت تلك الحرب في السنة الحادية والعشرين للهجرة.

ولأن هذه الحرب كانت آخر محاولة يبذلها الفرس مقابل العرب فقد أطلق عليها في التاريخ الإسلامي لقب «فتح الفتوح».

وبعد معركة نهاوند توجه يزدجرد مع نسائه وأقربائه وحاشيته من مطربين وطباخين ومربي الفهود إلىٰ فارس ومن ثم إلىٰ خراسان وقد ذكر أن تعداد كل فئة من تلك الفئات بلغ ألف شخص، ثمّ قتل يزدجرد في مرو في السنة الحادية والثلاثين للهجرة.

وبعيداً عن الإيمان بالذات والدين فإن العوامل التي مكنت العرب من القضاء علىٰ الإمبراطورية الفارسية في مدة أقل من عشر سنوات ومن خلال تلك القوة غير المنظمة وذات الأدوات والأسلحة البدائية، هي كما يلي:

١- سخط الشعب علىٰ الحكام الساسانيين في أواخر عهدهم.

٢- الضغط الكبير الذي مارسته الطبقة الحاكمة والمؤسسات التابعة لها علىٰ الناس.
٣- الامتيازات الطبقية وتمتع فئة خاصة بهذه الامتيازات وحرمان الأكثرية من الناس منها.
٤- قدم الأحكام الزرداشتية وفقدانها للروح اللازمة منذ عهد قباد وما بعد.
٥- انتشار المبادىء الإسلامية في ايران، وسهولة وبساطة ويسر هذا الدين، وخصوصاً مناداته بالعدالة والمساواة حيث كان الناس يرون تلك المساواة ويبشرون بها هذا وذاك.

التقدم في الشمال والغرب

كما ذكرنا في الفصل الماضي فإن معركة مؤتة التي وقعت في السنة الثامنة للهجرة وتعرض فيها المسلمون للهزيمة، وقتل فيها جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ كانت مقدمة النزاع مع إمبراطورية الروم القوية.

كان النبي ﷺ قد قام في أواخر أيام حياته بتجهيز جيش بقيادة أسامة بن زيد وأمره بالتوجه إلىٰ مؤته، ولكن بسبب وفاة الرسول تأخرت حركة هذه القوة حتىٰ بداية خلافة أبي بكر وعاد أسامة بعد رحلة دامت ٤٠-٧٠ يوماً بغنائم وفيرة.

ومع نهاية السنة الثانية عشرة للهجرة، حين اقترب أمر الحرب مع المرتدين من نهايته، أرسل أبو بكر قوتين إلىٰ وادي الأردن وفلسطين حيث انتصر المسلمون في مواجهتهم لجيش الروم المستقر علىٰ الحدود، فقام هرقل إمبراطور الروم الشرقية (٦١٠ - ٦٤١م) بتجهيز جيش كبير استعداداً لقتال المسلمين والتقى الجيشان في

منطقة اليرموك[١].

في البداية لم تتضح معالم الحرب ولا الجهة التي تميل إليها كفتها، وأدرك أبو بكر أن عليه اختيار قائد شجاع للجيش ولذلك أمر خالد بن الوليد الذي كان في العراق بالتوجه إلىٰ الشام. فعبر خالد مع بعض الجنود بادية الشام وهي أرض قاحلة وجافة والتحق بجيش المسلمين. وما قام به خالد في ذلك اليوم كان يعد عملاً بطولياً. فعبور تلك البادية الجافة والطويلة من دون وسائل كافية أمر لا يتحقق إلا بعزم جبار واندفاع كبير.

وهذا ما ساهم في تعاظم مقام خالد في نظر الجيش، وبانضمامه إليهم ووصوله إلىٰ اليرموك ارتوىٰ المسلمون جرعة جديدة وراحوا يقاتلون بشجاعة لا مثيل لها حتىٰ تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالروم[٢] وإجبارهم علىٰ التراجع إلىٰ دمشق.

وفي تلك الأيام توفي أبو بكر ووصل عمر إلىٰ الخلافة؛ وأما هرقل الذي لم يكن يحب أن يعترف بهذه الهزيمة فقد قام بتجهيز جيش كبير للانتقام، ولكنه هزم أيضاً، وهكذا استولىٰ المسلمون علىٰ مدن سورية والأردن الواحدة تلو الأخرىٰ.

وكانت السيطرة علىٰ فلسطين في السنة السابعة عشرة للهجرة وفتح القيسارية في السنة التاسعة عشرة[٣] في خلافة عمر من أهم الأحداث في ذلك الصراع.

كان لفتح فلسطين بالنسبة للمسلمين أهمية كبيرة من الناحية العسكرية والإعلامية فكما نعلم المسجد الأقصىٰ وهو قبلة المسلمين الأولىٰ يقع في هذه المنطقة. وبسبب هذه الأهمية قام عمر بالسفر إلىٰ تلك المنطقة شخصياً حيث عقد معاهدة

١- صحراء بين نهر الأردن وبحيرة طبرية.

٢- ذكر البلاذري أن فتح اليرموك تمّ بعد فتح دمشق.

٣- هناك اختلاف في الرأي بين الطبري والبلاذري في تعيين السنة، حيث يرىٰ الطبري أن فتح فلسطين والقيسارية قد تم في السنة الخامسة عشرة للهجرة.

مع المسيحيين في قرية الجابية التي تقع علىٰ بعد ٨٠ كيلومتر عن دمشق الحالية تضمنت اعترافاً منه بحقوقهم واحترامه لها.

تعجب أهل الشام وفلسطين كثيراً - وكانوا قد شاهدوا استعلاء حكومة الروم وجلالها وتكبرها - من بساطة جيش المسلمين ومعاملة خليفة المسلمين الحسنة لهم.

أسباب النصر

ذكرنا في الفصل المتعلق بحروب المنطقة الشرقية لشبه الجزيرة العربية وفتح ايران أنه بعيداً عن القوة الإيمانية والاعتقاد الديني الذي كان العامل الأهم في تلك الانتصارات فإن الأوضاع والظروف كانت مهيأة من حيث الظاهر لتحقيق ذلك النصر في سرعة كبيرة وفي مدة قياسية. ويمكن رؤية العديد من العوامل الظاهرية في حروب المنطقة الشمالية لشبه الجزيرة العربية ونذكرها هنا بشكل مختصر:

١- مع أن السكان المحليين الذين كانوا يعيشون في تلك المناطق ليسوا عرباً ولم يكونوا يتكلمون اللغة العربية، ولكنهم كانوا أقرب للعرب منهم إلىٰ الروم من حيث العادات والتقاليد وكانت هناك صلة قوية بين لغاتهم المحلية واللغة العربية.

٢- كما ذكرنا سابقاً فإنه ومنذ العصور الجاهلية وصل العديد من الجماعات من الجنوب وأطراف الصحراء تدريجياً إلىٰ تلك البلاد للتجارة أو العمل وامتزجوا بسكان تلك المنطقة. وكان من الطبيعي أن يساند السكان المحليون العرب في حروبهم مع الروم.

٣- كانت معاملة الجيش الفاتح مع السكان أفضل وأبسط بكثير من معاملة الحكومات المعينة من قبل الإمراطورية الرومانية وقد شهد السكان مثالاً علىٰ ذلك بأم أعينهم عند مجيء خليفة المسلمين إلىٰ بيت

المقدس.

٤- كانت المبالغ الضريبية التي عينت لسكان المناطق المفتوحة أقل بكثير مما كانوا يدفعونه لحكوماتهم. وباختصار يمكننا اعتبار البساطة وعدم التعقيد والعدالة الإسلامية هي العوامل الأصلية لجميع الفتوحات.

٥- علينا أن لا نغفل عن عامل مهم آخر فقد ذكرنا سابقاً أن السكان الذين كانوا يعيشون في سورية الحالية ووادي الأردن وفلسين قد دخلوا المسيحية، وكذلك فعل سكان مصر، ولكن ومع مرور الزمان وانتشار الأبحاث الكلامية في المسيحية وازدياد حدتها، وظهور المذاهب الفكرية المتفرقة وتبني كل فرقة لمذهب محدد. أدّت المجادلات والمنازعات اللفظية الشديدة إلىٰ ظهور تعصبات شديدة. وكانت الكنيسة المسيحية تعامل من يخالفها من الفرق الفكرية بشدة وقسوة وبسبب هذه المعامة المتشددة أهمل السكان الكنيسة. وقد وصلت تلك النقاشات الجدلية إلىٰ ذروتها في القرن الخامس الميلادي، وتزامناً مع ظهور الاسلام حاول هرقل إمبراطور الروم الشرقية (٦١٠ - ٦١١) جاهداً التقريب بين هذه الفرق، ولكن محاولته لم تثمر بل أدت إلى زرع بذور الكراهية له في نفوسهم. وعندما وصل المسلمون إلىٰ تلك المناطق ومنحوا المسيحيين الحرية الدينية الكاملة مقابل دفع الجزية وتخلص هؤلاء من نير الكنيسة المسيحية تنفسوا الصعداء ولكي لا يخضعوا لسطلة الروم ثانية قاموا بمساندة العرب للإطاحة بهم.

هناك وثيقة من أيام فتح هذه البلاد (سورية) في متناول أيدينا تظهر معاملة العرب المسلمين العادلة لهؤلاء الناس في مقابل تشدد الروم وقسوتهم. عندما سمع أبو عبيدة بن الجراح -الذي عين قائداً علىٰ القوات المتواجدة في سورية من قبل عمر- بأن هرقل قد جهز جيشاً كبيراً لقتاله أمر حكامه في البلاد المفتوحة بإعادة ما أخذوه من المسيحيين باسم الجزية إليهم،

وأن يقولوا لهم أننا أخذنا المال منكم لحمايتكم والآن مصيرنا غامض وربما هُزمنا ولم نتمكن من الوفاء بعهدنا، فقال المسيحيون الذين شهدوا هذا التصرف من فاتحي بلادهم: نحن نتمنىٰ انتصاركم علىٰ الروم، ونحب عدالتكم ونفضلها علىٰ الظلم الذي يمارسه أولئك، وسنساندكم في الحرب ضدّ هرقل.[١]

فتح مصر

في السنة التاسعة عشرة للهجرة طلب عمرو بن العاص الذي كان يعيش في بيت المقدس من الخليفة عمر السماح له بمهاجمة مصر. ويقال أيضاً أنه فعل ذلك بدون إجازته.

كان لمصر بين الدول التي فتحت في ذلك الزمان وضع يشابه الوضع الكائن في سورية وايران.

وقد أصبحت هذه البلاد قسماً من إمبراطورية الروم في نهاية القرن الأول قبل الميلاد، وكان الروم يولونها أهمية خاصة نظراً لأنها أرض خصبة وكثيرة الخيرات.

بعد انتقال مركز القدرة إلىٰ القسطنطينية وتأسيس امبراطورية الروم الشرقية وبعد أن دخلت الإمبراطورية في المسيحية، ازداد نفوذ المسيحيين فيها. ومن جانب آخر كان يعيش فيها بعض اليهود الذين خرجوا من فلسطين قبل مئات من السنين خلت.

وهكذا تهيأت الظروف المناسبة للاختلاف العرقي في مصر: الأقباط والمسيحيون واليهود.

١- فتوح البلدان، ص١٤٣.

وفي سنة ٦١٥ قبل الميلاد أرسل خسرو پرويز شهربراز إلىٰ مصر وبسط سيطرته عليها في سنة ٦١٩ بشكل كامل.

وهكذا اضطربت مصر بشكل أكبر بعد هذه الحملة ومن ناحية أخرىٰ دبّ الاختلاف بين المسيحيين في هذه المنطقة مع الكنيسة الكاثوليكية حول المسائل الكلامية من قبيل:

هل امتزج الجانب اللاهوتي للمسيح مع الجانب الناسوتي في البدن البشري؟

هل ولد الابن من الأب قبل العالم وكان كروح اتحدت مع مريم؟

وأبحاث أخرىٰ من هذا القبيل والتي بقيت معلقة دون حل بعد جلسات متعددة، وازداد ضغط الكنيسة الكاثوليكية بعد تعيين رئيس متعصب للأساقفة هناك. ومن كان يخالف البابا من حيث العقيدة الدينية والمذهبية كان يعذب ويعرض للتبعيد أحياناً.

المطران بنيامين -مثلاً- الذي لم يكن مستعداً لاتباع الكنيسة الكاثوليكية عاش ١٣ سنة في صومعة متخفياً ولم يخرج منها ويظهر نفسه إلا بعد أن تم فتح الإسكندرية، وبذلك فقد أدت الاختلافات العرقية والدينية والضغوط الضريبية والاقتصاد العليل إلىٰ تأزيم الأوضاع في مصر واضطرابها وقد أدرك عمرو هذا الأمر وكان يعلم أن مصر لا تملك قدرة دفاعية معتبرة فتوجه إليها في شهر رجب من السنة التاسعة عشرة وتقدم من دون أي مقاومة حتىٰ بلبيس.[١] وهناك جرت مناوشات خفيفة بينه وبين عسكر العدو، وبعدها تقدم حتىٰ أم دنين[٢] وفي ذلك المكان حدث صدام بينه وبين جيش الامبراطورية الرومية فاضطر عمرو مرغماً

١- مدينة تقع علىٰ الطريق المؤدي من الشام إلىٰ مصر وتبعد عن الفسطاط ١٠ فراسخ (معجم البلدان).

٢- مكان قرب القاهرة الحالية.

إلىٰ ترك التقدم حتىٰ تصله قوة جديدة، فأرسل عمر لمساندته جيشاً مؤلفاً من ١٤ ألف رجل ويضم الكثير من الصحابة كالزبير بن العوام، والمقداد وعبادة بن الصامت. فتغلب عمرو بتلك القوة علىٰ جيش الروم وعقد معاهدة صلح مع أسقف الروم هناك، ولكن هرقل رفض تلك المعاهدة واعتبرها نوعاً من الخيانة. وأدى موت هرقل في (٦٤١م) أي في السنة الحادية والعشرين للهجرة، وكذلك موت ابنه بعد مدة وجيزة، وتسلم حفيده ذي الأحد عشر عاماً لزمام الأمور إلىٰ سحب قدرة اتخاذ القرار من قوة مصر الدفاعية.

وقام عمرو بفتح عين شمس باب اليون (أو بابليون) ولم يبق سوىٰ الاسكندرية المجهزة بأسوار وقدرات دفاعية ضخمة والمدعمة بخمسين ألف محارب.

ومع أن عمرو لم يكن يملك أكثر من ١٢ ألف محارب ولكنه قام بمحاصرة الاسكندرية وفي النهاية وبعد ١٤ شهر من الجهد والسعي سقطت تلك المدينة في أيدي المسلمين.

لم يظهر المصريون من مسيحيين ويهود حزناً علىٰ رحيل قوات الروم من بلادهم. وكانوا مسرورين لأن المسلمين قد تركوا لهم الحرية التامة في ممارسة طقوسهم الدينية. وعندما هاجم الروم الاسكندرية في سنة ٦٤٥م (٢٥ هـ) هبّ المصريون لمساندة المسلمين وقاموا بطرد الروم وإبعادهم عنها.

اتساع الانتصارات وظهور المصاعب

كما ذكرنا مراراً في تحليل الحوادث، فإن جيش المسلمين ومنذ أول صدام له مع غير المسلمين (معركة بدر) كان يفتقد إلىٰ المعدات والوسائل الكافية وكان بقية المسلمين من غير الجنود يعيشون حياة بسيطة وقاسية أحياناً.

واستمر ذلك في العهود التالية أي في عهد أبي بكر وعمر. وكان المسلمون

يهدفون من الحروب التي قاموا بها في عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر إلىٰ نشر التوحيد. ولكنه لا يمكن انكار أن البعض كان وراء الغنائم والدنيا أيضاً.

وطيلة ربع قرن أدت التعاليم القرآنية والتربية النبوية إلىٰ تربية المسلمين الأوائل (المهاجرين) والأنصار وتنشئتهم بطريقة بحيث لا يريدون من خلالها إلا إعلاء كلمة الله والإسلام.

ونجد في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي نزلت في مدح هاتين الفئتين، ومن المشهور أن النبي قد توفي وهو راض عن عدة أشخاص وكان المسلمون يحترمون هؤلاء لسبقتهم في الإسلام، ولكن لم يحدث أبداً أن يتعالىٰ هؤلاء علىٰ المسلمين. وكانت قياده الجيش أو تعليم أحكام الإسلام للآخرين وظيفة وواجب عليهم وليس من منطلق الرتبة والمنزلة.

لم تكن هناك مناصب ورتب بين أصحاب النبي ﷺ ولم يكن العرق والنسب أمراً ذا أهمية فيما بينهم. حتىٰ أن قدم الدخول في الإسلام من الناحية الاجتماعية لم يكن يعدّ فضيلة.

وقد رأينا في الفصل السابق كيف تولىٰ أسامة بن زيد وهو ابن مولىٰ وشاب في مقتبل العمر إمارة وقيادة جيش يضم شيوخاً ومسنين وأحراراً والكثير من أوائل المسلمين.

كان المسلمون في عصر رسول لله ﷺ لا يولون شيئاً أهمية مثل ما يولونه للتقوىٰ. وكانوا يطلبون جزاء التقوىٰ وثوابها من الله، لا من الناس، هذه حالة المسلمين الذين يقول القرآن فيهم: ﴿امتحن الله قلوبهم بالإيمان﴾[1].

ولكن وللأسف الشديد عندما انتقل النبي ﷺ إلىٰ جوار ربه، وخلف وراءه هذه الجزيرة المسلمة لم يكن المسلمون جميعهم قد تلقوا تلك التربية بل كان عدد

١- الحجرات / ٤٩: ٣.

المسلمين الراسخين كشعيرات سوداء علىٰ بدن بقرة بيضاء. أجل! "عندما يحل الامتحان يقل الديانون" ودائماً كان كذلك.

أولئك البدو الذين أسلموا في الأمس ولم يروا محمداً أبداً ولم يتعرفوا عليه جيداً، أو أولئك المسلمين الذين قابلوا النبي ﷺ مرة أو مرتين، إلىٰ أي درجة يمكنهم التأقلم مع الإسلام والتمسك به؟ ولو وصل إلىٰ أيديهم مال لم يحلموا به من قبل - كما حذر القرآن من ذلك[1] - ألا يؤدي إلىٰ طغيانهم؟ وإلىٰ أية درجة يمكن لهذا الإسلام الذي لم يتجذر في قلوبهم بعدُ من تثبيط هوىٰ أنفسهم؟ الله أعلم.

مع كل ذلك فقد مرت مدة خلافة أبي بكر بهدوء، فالجيش مشغول بإخماد طغيان المرتدين من جهة ومن جهة أخرىٰ لم تدخل إلىٰ الخزانة (بيت المال) أموال تذكر وبذلك لم يتغير الوضع الاجتماعي للمسلمين بينما ظهرت المشاكل الاجتماعية في عهد عمر. ولكنه استطاع التغلب عليها إلىٰ حد معين وأهم تلك المشاكل هي كما يلي:

١- دخل الإسلام في مدة خلافة عمر (١٠ سنوات) شعوب وأمم مختلفة. ولم تكن تلك الشعوب تشبه أهالي شبه الجزيرة العربية من حيث الثقافة والعادات والتقاليد، وليس هذا فحسب بل كانت تختلف عن بعضها البعض من هذه النواحي. وعلىٰ أثر ذلك بدأت تلك العادات بالتسرب شيئا فشيئاً إلىٰ شبه الجزيرة العربية وحياة السكان فيها.

وكان عمر يسعىٰ جاهداً إلىٰ منع العرب من تقليد غير العرب في العادات والتقاليد. وكان يتشدد في ذلك قدر المستطاع، وأحياناً كان يجيىء إليه بعض كبار قريش يطلبون منه السماح لهم بالخروج من شبه الجزيرة للجهاد ذريعة أو حقاً، ولكنه وخوفاً من تغيرهم وتبدل طباعهم كان يقول لواحدهم: إن الجهاد الذي قمت به في عهد رسول الله ﷺ يكفيك، ومن الأفضل أن تجلس في بيتك لا ترىٰ أحداً

١- ﴿... إنّ الإنسان لَيَطغىٰ* أن رَآه استَغنىٰ﴾ العلق /٩٦: ٦-٧.م

ولا يراك أحد.

٢- الأراضي والبلدان المفتوحة تتمتع بإمكانات كبيرة تحتاج لمن يستثمرها بشكل مناسب وصحيح، والاستثمار الصحيح لهذه الأراضي يتطلب رجالاً وولاة علىٰ قدر من الاطلاع والتجربة ومثل هؤلاء إما أنهم غير موجودين في المدينة أو أن عددهم قليل جداً.

٣- إدارة البلدان التي تمت السيطرة عليها بعد توقيع معاهدات صلح لم تكن بالأمر الصعب علىٰ الحكومة، فهي محكومة بدفع مال معين يسمىٰ بمال المصالحة ولكن إدارة البلدان التي تم فتحها بالقوة خلقت مشكلة للحكومة، لأنه في هذه الحالة ينبغي تقسيم الأرض المفتوحة بين الفاتحين. ومن الواضح أنه من غير الممكن لمسلمي الحجاز أن يأتوا كل سنة لزراعة تلك الأراضي ثم العودة إلىٰ بلادهم بعد جني المحصول، فرأىٰ عمر أن من الأفضل الإبقاء علىٰ هذه الأراضي في أيدي المزارعين الذين كانوا يعملون فيها. وفي المقابل يتم عقد اتفاقات معهم تنص علىٰ أن يدفعوا سنوياً مبلغاً معيناً من قيمة المحصول للحكومة.

وليس معلوماً أنه هل كانت تلك الفكرة من اقتراحه هو أو ناتجة عن المشاورات التي قام بها مع كبار الصحابة، وعلىٰ كل حال فقد أجريت علىٰ أرض الواقع.

لم تبدو مشاكل هذا الإجراء في البداية علىٰ قدر من الأهمية، ولكن وكما سنرىٰ لاحقاً فإنها تبدلت إلىٰ طوفان كبير في عهد عثمان.

٤- أما الأراضي المتعلقة بالحكومات وأبناء الملوك وكبار موظفي البلاط الساساني والمالكين الذين تركوا أراضيهم وهاجروا، فقد اعتبرت أراضٍ حكومية وكان يعود ريعها إلىٰ بيت المال (الخزانة) مباشرة.

كان عمر يرىٰ أنه من الأفضل أن تدار تلك البلدان من الناحية السياسية بواسطة أفراد كانوا يعملون فيها، ولكن بشرط أن يبقوا تحت نظر الحاكم المعين من

قبل الخليفة وأن يمارسوا فعالياتهم ونشاطهم تحت إشرافه.

بالنسبة لنا نحن الذين ندرس هذه الحوادث ونحللها علىٰ ضوء مطالعتنا للأنظمة السياسية المختلفة في العالم وبعد ١٤ قرناً ربما يبدو هذا الإجراء ليس في غاية من الأهمية ولكن إن التفتنا إلىٰ أن المسؤولين في ذلك الزمان [أي المسلمين العرب] عن إدارة تلك البلدان الكبيرة لم يخرجوا حتىٰ ذلك التاريخ من محيطهم المحدود في الجزيرة، ولم يكونوا يعرفون عن علم الإدارة شيئاً سوىٰ خدمة الأقارب وأحياناً العشيرة والقبيلة. ومن ثم نضع في حسابنا كيف تولى هؤلاء القوم حكم أكثر من نصف آسيا وأفريقية، وتولوا مسؤولية تحديد مصيرها، وكان يؤدون وظيفتهم تلك في شروط وظروف ذلك الزمان بنجاح لما استطعنا أن نخفي إعجابنا.

عندما وصل أول مبلغ ضخم من ايران إلىٰ المدينة، وكان مبلغاً لم ير المسلمون مثله حتىٰ ذلك اليوم أبداً، سأل عمر أصحابه قائلاً: ماذا ينبغي أن نفعل بهذه الأموال؟

كان البعض يعتقد أنه يجب المحافظة علىٰ السنة النبوية، وأن يتم توزيع تلك الأموال علىٰ الناس دفعة واحدة.

وفي النهاية قرر افتتاح مكاتب تقوم بتعيين حصة ونصيب كل مسلم.

كان هذا القرار منطقياً ومعقولاً جداً، ولكنهم لم يلتفتوا إلىٰ المستقبل وغفلوا عنه حينما شرعوا في تسجيل الاسماء والحصص المخصصة. ويبدو أن الخليفة والمسلمين الذين رأوا المصلحة في هذا الإجراء لم يكونوا عالمين بمصير هذا النوع من التوزيع والتقسيم، أو أنه لم يكن يخطر في بالهم أن العديد من الشخصيات الكبيرة ستستفيد من الخزانة حصة ثابتة وبمقدار أكبر وأكثر من حاجتهم.

هناك اختلاف كبير بين المؤرخين في ترتيب تسجيل أسماء الذين سيحصلون علىٰ المبالغ ومن المؤكد أن للقدم والسابقة في دخول الإسلام أثر في المبلغ المقرر.

وقد خصصت مبالغ المحاربين بناءاً علىٰ مشاركتهم في الحروب والمعارك، فمثلاً

كانت المبالغ المخصصة للمحاربين الذين اشتركوا في معركة بدر وحتىٰ صلح الحديبية أكبر من المبالغ المخصصة لمن اشتركوا في الحروب التالية.

ولم تمض عدة سنون علىٰ فتح المدائن والشام حتىٰ أحسّ عمر بالخطر الكبير الذي يحدق بالمجتمع الإسلامي.

لقد أسلمت قريش وهي القبيلة العربية القوية والتي تضم أشراف العرب وبطونها بعد أن دخل جيش المدينة إلىٰ مكة. وبمجرد أن أعلنوا إسلامهم واشتركوا كالبقية في الحروب مع ايران والروم راحوا يتمتعون بعوائد الحروب وغنائمها من مال وأراض بناءاً علىٰ مقررات الفقه الإسلامي. وكما ذكرنا في الفصول السابقة فقد كان لهذه القبيلة باع طويل في التجارة قبل الإسلام. وبمجرد أن قويت شوكتهم الاقتصادية من جديد بعد بسط الفتوحات الإسلامية، أرادوا أن يرجعوا إلىٰ أسلوبهم القديم ثانيةً.

يقول الطبري في إحدىٰ رواياته: كان عمر قد حجر علىٰ أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل ...: «ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده! ألا وأما ابن الخطاب حي فلا، إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار».

وكان بعض زعماء قريش يمتنعون عن ذلك مهما أمكن إما بسبب تشدد عمر أو خوفاً من مراقبة أصحاب رسول الله الأتقياء، أو لأن إيمانهم لم يضعف حتىٰ ذلك الوقت، ولكنهم كانوا غير راضين عن سلوك عمر وخشونته معهم.

وقد أدرك عمر أيضاً أن منح هؤلاء المرتبات والمال من الخزانة بناءاً علىٰ القدم والسابقة في الإسلام والمشاركة في الحروب أمر غير صحيح.

ولهذا قال: لو كنت أعلم في بداية الأمر ما حصل في عاقبته لكنت أخذت ما زاد من أموال المسلمين وجعلته في بيت المال. ومن الواضح أن تحمل مثل هذه السياسة لتلك الفئة من قريش التي عرفت طعم كنز الأموال وادخارها لم يكن ممكناً، وهكذا

كان في النهاية أن لقي الخليفة عاقبة أسلوبه في التعامل مع هذه الفئة.

ذكر المؤرخون العرب أن مقتل عمر كان نتيجة لحقد الايرانيين علىٰ العرب، وقالوا أن أبا لؤلؤة كان ساخطاً علىٰ عمر: فبلاده قد وقعت بيد عمر وجيشه من جهة، ومن جهة أخرىٰ لم يلتفت عمر إلىٰ شكواه بخصوص مالكه، فهدده في البداية وبعدئذ أقدم علىٰ قتله في الفرصة المناسبة.

ليس من المستبعد أن يكون الحوار الذي دار بين أبي لؤلؤة وعمر صحيحاً ولكن الأمر الذي يبدو أكثر صحة ودقة من ذلك هو أن بعض زعماء قريش كانوا أكثر سخطاً علىٰ عمر من أبي لؤلؤة، وقد زاد من قلقهم تشدده في معاملته معهم، ومنهم المغيرة مالك أبي لؤلؤة، وتأسفه وندمه علىٰ السياسة المالية التي اتبعها سابقاً.

وليس من المستبعد أيضاً أن يكون عمر قد قتل علىٰ يد أبي لؤلؤة بناءاً علىٰ مؤامرة أناس آخرين.

من الأعمال الهامة التي أنجزت في خلافه أبي بكر هي تعيين مبدأ التاريخ للمسلمين.

كما ينقل ابن الأثير فقد تم ذلك في السنة السادسة عشرة للهجرة بناءاً علىٰ مشورة علي﴿عليه السلام﴾ واتخذوا هجرة النبي كمبدأ للتاريخ علىٰ أن يكون شهر محرم في السنة التي جرت فيها الهجرة أول شهور السنة، ويُرىٰ في بعض المصادر رسائل مؤرخة في الخامسة والتاسعة والثالثة عشرة.

ولكن أصالة بعض هذه الرسائل موضع شك وترديد. ولو فرضنا صحتها فيمكننا القول أن منح الصفة الرسمية للتاريخ من أجل الدواوين و الأعمال الحكومية قد تم في السنة السادسة عشرة للهجرة بناءاً علىٰ أمر الإمام علي﴿عليه السلام﴾.

خلافة عثمان

توفي عمر في شهر ذي الحجة من السنة الثالثة والعشرين للهجرة، وقبل وفاته عين ستة أشخاص من أصحاب النبي ﷺ وهم: علي عليه السلام، وعثمان، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيدالله -الذي كان مسافراً- للتشاور فيما بينهم واختيار أحدهم للخلافة في غضون ثلاثه أيام.

كان واضحاً منذ البداية أن الخلافة ستكون لعلي أو لعثمان. لكن الأمويين كانوا يخالفون ويعارضون خلافة علي. أما عبدالله بن عوف الذي كان عضواً في تلك الشورىٰ، فهو من أقارب عثمان، ولذلك لم يتوان عن مساندته وتأييده.

بدأت النقاشات والزيارات، وفي النهاية قال عبد الرحمن لعلي عليه السلام: هل تقبل بأن تعمل بكتاب الله وسنة النبي وسيرة أبي بكر وعمر لكي أبايعك؟

من المسلم أن علياً كان لا يقبل الشرط الأخير؛ فقد طرأ تغيير وتبديل علىٰ سنة النبي طوال الـ١٣ سنة الماضية ولذلك لم يوافق علىٰ ذلك.

و قال في جواب عبد الرحمن: سأحكم بكتاب الله وسنة النبي ﷺ واجتهادي، وعندما عرض عبد الرحمن ذلك الشرط علىٰ عثمان قوبل بموافقته، فقام أعضاء الشورىٰ باختياره للخلافة، ولكن هل نجح عثمان في العمل بـ«ذلك الشرط» أم لا؟ بين المستقبل هذه الحقيقة المرة، وهي أن ذلك الشرط كان سهلاً في القول وصعباً في التطبيق والعمل.

كانت كيفية انتخاب عثمان أمراً لا سابقة له حتىٰ ذلك اليوم. فقد رأينا أن الجماعة الحاضرة في سقيفة بني ساعدة (وهم المهاجرون والأنصار) قد بايعوا أبا بكر للخلافة بينما عين أبو بكر عمراً خليفة بعده. وكما يذكر الرواة فإن عثمان أحضر كتاب أبي بكر للمسلمين وقال: أتبايعون الشخص الذي كتب اسمه في هذا الكتاب؟ فقبلوا. ولكن الشورىٰ السداسية كانت نوعاً من الوكالة في التوكيل. والشخص الذي سينتخبونه يجب علىٰ المسلمين لا محالة قبوله. وهكذا لم يتم الالتفات والاعتناء بآراء جماعة أصحاب الحل والعقد (المهاجرين) سوىٰ ستة أشخاص، فلماذا فعلوا ذلك؟

بنظرهم كانت مصلحة المسلمين تقتضي ذلك فينبغي إتمام الأمر في أسرع وقت ممكن لكي لا يتعرض مركز القيادة للتزلزل والاضطراب. ولكن إذا كان من المفترض أن تتولىٰ الشورىٰ أمر تعيين الخليفة فلماذا لم يزيدوا عدد أعضاء المجلس ؟

ولماذا لم يشترك الأنصار في هذا المجلس؟ ألم يقل أبو بكر أن الأنصار وزراء؟

ينبغي الإشارة هنا إلىٰ أن هذه التساؤلات ومثيلاتها قد طرحت علىٰ مرّ التاريخ ونتج عنها أبحاث كلامية كثيرة، أجاب البعض عنها. ويجب الإشارة أيضاً إلىٰ أنّ هذه الحلول الجزئية التي كانوا يتصورون ظاهرياً أنها بنفع المسلمين من جهة لكنها في الحقيقة قد خلقت مشاكل كبيرة في جهة أخرىٰ فيما بعد.

وكذلك لا بد من القول بأن ظهور هذه المشاكل كان نتيجة التسرع في تقدير الأمور أيضاً، وعلىٰ كل حال وبعد هذه المقدمات أصبح تجنب ذلك أمراً غير ممكن.

أصبح عثمان بقبوله لتلك الشروط خليفة للمسلمين، ولكن واجه ومنذ الأيام الأولىٰ لخلافته موجة من تذمر بعض أصحاب رسول الله ومعارضتهم. فقد وصل إلىٰ مسامع عبيدالله بن عمر أن أبا لؤلؤة قد شوهد مع هرمزان، الأسير الايراني الذي أعلن إسلامه، وجفينة النصراني يتبادلون أداة قتل عمر فيما بينهم.

ذهب عبيد الله سراً إلىٰ هرمزان وقتله، ثم ذهب إلىٰ جفينة وقتله أيضاً، ومن ثم ذهب إلىٰ بيت أبي لؤلؤة وقام بقتل ابنته.

كان من الواضح أن أصحاب النبي الأتقياء لن يستطيوا أن يغضوا النظر عن هذا المنكر. فَطُلب من الخليفة في أول أيامه أن يقوم بمجازاة عبيدالله علىٰ ما اقترفت يداه من قتل غير مشروع.

كان عثمان يتصف بطبيعة هادئة ولطيفة، وقد زاد تقدمه في السن من هدوئه، وكذلك لم يكن يود أن يُقدم علىٰ قتل ابن شخص له عليه حق في بداية خلافته، وكان يساند أقاربه وقبيلته أيضاً، قال: كيف يكون مناسباً أن يقتل الأب في الأمس والابن اليوم؟ سأدفع الدية عن عبيدالله من بيت المال.

عثمان من حيث الظاهر أنقذ مسلماً من الموت باجتهاده هذا، ولكن بعض الصحابة اعتبروا ورأوا أن عثمان قد عطل حداً من حدود الله. وليس من المستبعد أبداً أن البعض في ذلك المجلس تبادر إلىٰ ذهنه أن التمييز والتبعيض والازدواجية اعتماداً علىٰ التأويل والاجتهاد مقابل النص في إجراء أحكام الإسلام أمر جائز.

ومع أن عدم مجازاة عبيدالله من حيث الفقه الإسلامي موضع نقاش، ولكنه لم يكن مهماً إلىٰ درجة توجد خللاً في النظام الاجتماعي.

ولو انتهىٰ الأمر هنا لأمكن في المستقبل أن ينضم مخالفو عثمان ومعارضوه إلىٰ مؤيديه، ولكن وللأسف الشديد قام مشاورو الخليفة (الأمويون وقريش) أي أولئك الذين كانوا تحت مراقبة عمر الشديدة بالتدخل بالأمور السياسية وإدارة شؤون البلاد شيئاً فشيئاً، وقد أدت دخالتهم هذه إلىٰ إبعاد الأنصار عن حقل السياسة. ومع أن عثمان وافق علىٰ أن لا يعزل عمال عمر من مناصبهم، ولكنه سرعان ما قام بعزلهم جميعاً وعين أقاربه مكانهم.

هل تمّ ذلك بإرادته أم بناءاً علىٰ مشورة مروان وبني أمية؟ الله أعلم.

ولكن المسلم أن من بين الذين تمّ انتقاؤهم لهذه المناصب أناس يفتقدون للتقوىٰ المالية أو التقوىٰ السياسية أو التقوىٰ الدينية أو الثلاثة معاً!

تحدثنا في الأبحاث السابقة عن العرب الساكنين في جنوب وشمال العراق، وقد بينا سابقاً بأن عشائر وقبائل العرب المختلفة التي تعيش في شبه الجزيرة العربية وطبقاً لأسناد شفهية وكتابيه تمت المحافظة عليها من جيل إلىٰ آخر ينقسمون إلىٰ فريقين عدناني وقحطاني. وقد أطلق علىٰ القحطاني والعدناني في العهود التالية لقب قيسي ويماني. فسمي سكان الجنوب باليمانيين والشماليين بالقيسيين. وكان التنافس والحقد والكراهية القبلية أمراً طبيعياً وكانت العداوة القائمة بين هاتين الطائفتين تعود إلىٰ قرون عديده قبل الإسلام.

مع انتشار الدين وتعاليم النبي﴿ﷺ﴾ وخصوصاً بعد تآخي المهاجرين

والأنصار بأمر من النبي﴿ﷺ﴾ والمساواة التي نادىٰ بها الإسلام وإلغاء الإمتيازات الطبقية زال هذا التعالي والتفاخر مؤقتاً، ولكن شيئاً فشيئاً وخصوصاً بعد أن أصبح من المسلم أن يكون خليفة المسلمين من قريش ظهر هذا التفاخر والتعالي من جديد، ولكن بساطة نظام عمر الحكومي وإيثار الصحابة، والأهم من ذلك تواضع الأموال المدخرة في بيت المال لم يسمح لذلك بالظهور، ولكن في الفترة الثانية من خلافة عثمان اتخذ الأمر شكلاً آخر، فقد ابتعد الناس عشرين سنة عن عهد النبي﴿ﷺ﴾ وبساطة عصر أبي بكر، ومن جهة أخرىٰ اندثرت طريقة عمر في التشدد بحق قريش، والأهم من ذلك أن الحكم في العهود السابقة كان عملاً مضنياً يبغي منه المتصدي له التقرب إلىٰ الله وتحمل المسؤولية ولكنه تبدل إلىٰ شغل مهم وكثير الدخل، ومنصب فيه الكثير من العظمة والأبهة والجلال يحلم به الكثيرون ويسعون للوصول إليه.

ومع أن الأنصار وهم من اليمانيين قد غضوا النظر وتنازلوا عن حقهم في الخلافة في سقيفة بني ساعدة وفضلوا كسب رضىٰ المهاجرين علىٰ رغبتهم في الخلافة، ولكن لايوجد هناك مبرر يجعل أبناءهم أو بقية المسلمين يغضون النظر عن حكم مصر والبصرة والكوفة والشام ليبقىٰ ريع هذه الولايات وأموالها بيد القيسيين (تجدد الصراع بين القيسي واليماني في الإسلام بعد موت عمر وتوسع نطاقه وزادت حدته وقد ألقىٰ بظلاله في حروب صفين والنهروان وحروب العصرين الأموي والعباسي، إلىٰ أن نفذ العنصر التركي إلىٰ داخل الحكومة في عهد المعتصم وابتعد العرب عن السياسة).

وهناك مشكلة أخرىٰ ظهرت في عهد عمر ولكنها بقيت غير محسوسة أو مرئية بسبب الرقابة والتشدد الذي كان يتصف به عمر والتعديلات المالية المستمرة التي تصدر عن الخليفة، وما لبثت أن بانت نتائجها السيئة في عهد عثمان وهي ما يلي:

١. امتحان المنصب

كما رأينا فإن المساواة هي أحد أصول الإسلام المهمة، بل إنها الأصل الاجتماعي الأساسي، ومنذ أن تمّ إمضاء ميثاق المدينة تقرر أنه كلما عقد مسلم مع شخص آخر عهداً توجب علىٰ كافة المسلمين رعاية ذلك العهد والالتزام به.

في عهد النبي﴿ﷺ﴾ كان بلال ذلك الأسود الحبشي والذي يتعذر عليه نطق الكلمات العربية كالعرب، كان مؤذن المسلمين.

ومع كونه ابناً لعبد إلا أنه كان يتسلم قيادة جيش المسلمين، وكان المهاجرون والأنصار يذهبون إلىٰ الحرب تحت إمرته وقيادته.

وحتىٰ الذي حمل سيفه في وجه الإسلام في فترة ليست بالبعيدة ولكنه وبمجرد أن شهد بوحدانية الله ونبوة محمد أصبح من حيث الحقوق الاجتماعية متساوياً مع أوائل المسلمين الذين ساندوا الرسول﴿ﷺ﴾ في أقسىٰ وأشدّ أيامه وكما رأينا فإنه في الليلة التي تمّ فتح مكة في فجرها أجار العباس عم النبي﴿ﷺ﴾ أبا سفيان ثم جاء به إلىٰ معسكر المسلمين وقد أسلم أبو سفيان في اليوم التالي وصار آمناً علىٰ ماله ونفسه وبعد مدة دخل شخصياً في جهاز الحكم فصار حاكماً. تعد هذه العدالة إحدىٰ فضائل الإسلام وامتيازاته وفي حروب العرب مع ايران تظهر نماذج كثيرة لمثل هذه المساواة.

وقد ذكرنا سابقاً بأنّ الإيرانيين قبل أن يهزموا من قبل العرب المسلمين كانوا متعطشين للإسلام، وفي الحقيقة فإن المساواة والعدالة الإسلامية هذه هي التي سهلت أمر فتح إيران. فلو لم يكن هناك عشق للدين الجديد، وتذمر وسخط علىٰ الحكومة الساسانية لما تمكنت فئة قليلة مجهزة بأسلحة وأدوات بسيطة من بلوغ ذلك النصر العظيم، وكما نوهنا سابقاً فمنذ أن عقد النبي عهد الأخوة بين المهاجرين وهم من العدنانيين والأنصار الذين يعتبرون أنفسهم من القحطانيين زالت العداوة

والكراهية بين هاتين الفرقتين دفعة واحدة إلىٰ درجة أن اليمانيين لم يساووا أنفسهم بالعدنانيين فحسب بل فضلوهم علىٰ أنفسهم. فلو استمر هذا الإيثار والتواضع من كلا الفريقين أو لو لم تحصل أسباب الخصام والجدال بينهما لاستمرت وبقيت أخوتهم الإسلامية قائمة وراسخة ولكنه كان من الطبيعي أن ذلك لن يدوم.

وبعد وفاة النبي ﷺ تقدم اليمانيون الذين يعتبرون أنفسهم شركاء في تقدم الإسلام ونشره للحصول علىٰ منصب الخلافة وقبلوا الشراكة أيضاً في ذلك، ولكن كلام أبي بكر والظروف الخاصة في ذلك الزمان أوقفت دعوتهم هذه.

حرص عمر في خلافته أشدّ الحرص علىٰ حفظ التعادل والتوازن بين هاتين الطائفتين فإن قام بتعيين أحد اليمانيين حاكماً علىٰ مدينة ما كان يقوم من جهة أخرىٰ بتعيين أحد العدنانيين (المضريين) حاكماً علىٰ مدينة أخرىٰ.

وقد تعهد عثمان سلفاً باتباع سيرة عمر وأن لا يعزل الحكام الذين قام عمر بتعيينهم؛ ولكن لم يمض وقت من الزمن حتىٰ قام عثمان بزج أقاربه في المراكز الهامة وكفّ أيادي اليمانيين عن الحكم مهما أمكن، ولم يعزل اليمانيين وحسب، بل لم يعين أحداً من الطوائف الأخرىٰ غير بني أمية حاكماً علىٰ المدن المهمة، فقد عزل سعد بن أبي وقاص مثلاً عن ولاية الكوفة وعين مكانه الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

ووصل الأمر إلىٰ درجة أن قيل أن رجلاً أموياً عندما رأىٰ أن حكم الولايات الثلاث الكبرىٰ وهي الشام والكوفة ومصر بيدهم وأما البصرة فكانت بيد أبي موسىٰ الأشعري ذهب إلىٰ عثمان وقال له: أما لكم صغير فتستشبوه، فتولوه البصرة؟ حتىٰ متىٰ يلي هذا الشيخ البصرة؟ (يعني أبا موسىٰ).[1]

١- يمكن الرجوع إلىٰ: بعد خمسين عاماً (النسخة العربية تحت عنوان: نهضة الحسين) ص ٧٢.

كان لهذه التغييرات في سنة النبي﴿ﷺ﴾ وسيرة أبي بكر وعمر أشدّ الأثر علىٰ المسلمين وخصوصاً علىٰ المسلمين الجدد، وخاصة أولئك الذين دخلوا الإسلام من البلاد غير العربية والذين أعجبوا بالعدالة الإسلامية فرأىٰ هؤلاء أن المساواة وهي شعار الإسلام قد بدأت بالزوال، وليس فقط العرب بل طائفة خاصة منهم قد استلمت زمام الأمور دون أن تكون أهلاً لذلك.

كانوا يرون أن قريشاً تعتبر أموال المسلمين ملكها الشخصي وتحرم أولئك الذين جلبوا تلك الأموال إلىٰ الخزانة بتقديم دمائهم وأرواحهم وتحمل المصاعب.

كانوا يرون أن التعالي والتفاخر الجاهلي قد بعث من جديد وأن جماعة خاصة تريد فرض زعامتها علىٰ الآخرين.

وبدأ التذمر والسخط يظهر في المدينة وخارجها وعند ذلك أدرك الخليفة أن الأمر ازداد صعوبة. وكما أشير سابقاً فلو كان للخليفة مشاورين أكفاء وذوي خبرة وبعد في التفكير لأمكن التغلب علىٰ بعض هذه المشاكل.

ولكن التف حوله أناس قد أعمىٰ التعصب العرقي والطائفي أعينهم وبدلاً من أن يقولوا له: توقف عن البذل والعطاء العشوائي، ووزع الدخل والأموال بين المحتاجين، وأشرك اليمانيين في الحكم، قاموا بتحريضه علىٰ إرسال الساخطين والمتذمرين إلىٰ ميادين الحرب والقتال وإبعاد الآخرين إلىٰ المدن النائية ليوقفهم الحكام هناك عند حدهم.

إن هذه التصرفات الخاطئة أدّت إلىٰ زيادة تذمر القوم وسخطهم ومهدت السبيل أمام الثورات والمخالفات.

٢. امتحان المال

عندما هاجر النبي من مكة إلىٰ المدينة كان بعض المهاجرين فقراء إلىٰ درجة أنهم

لا يملكون لباساً مناسباً، ولكن إيثارهم بلغ درجة أنهم وبالرغم من الفقر المدقع الذي كانوا يعيشون فيه كان واحدهم يقدم أخاه المسلم علىٰ نفسه. وبعدما تحسنت أحوالهم قليلاً جعلوا من حياة النبي مثلاً لهم يقتدونه. وفي عهد خلافة عمر ومع أن أموالاً كثيرة قد دخلت بيت المال، وبالرّغم من أنه تم تخصيص مقررات ورواتب للناس، إلا أن طبيعة الخليفة وحياته البسيطة من جهة وتشدده ومراقبته لكبار قريش والسباقين إلىٰ الإسلام من جهة أخرىٰ، لم تفسح المجال أمامهم لادخار الكثير من الأموال.

وأما عثمان فلم يسير علىٰ خطا سلفه، بل كان كما ذكرنا رجلاً ذا طبيعة هادئة ومحباً للأقارب، وعلىٰ خلاف من سبقه من الخلفاء كان يعتبر بيت المال ملكاً شخصياً للخليفة وكان يرىٰ نفسه حراً في التصرف في هذه الأموال كيفما أراد، ومتىٰ ما رأىٰ مصلحة في ذلك، وقد أدىٰ العطاء الزائد وإغراق هذا وذاك بالأموال إلىٰ تحريض الفئات المحرومة وفسح المجال أمام الاعتراض.

عندما قام عمر بتأسيس ديوان لمستحقي الرواتب، عين المبلغ المقرر للجنود بناءًا علىٰ عدد مرات اشتراكهم في المعارك من جهة، ومن جهة أخرىٰ فضل المهاجرين والأنصار علىٰ الآخرين، ويمكن القول أنه بفعلته هذه قد وجه لطمة كبيرة للمساواة الإسلامية، ولكن كما ذكرنا فقد كان عمر حريصاً علىٰ أن لايحصل السباقون إلىٰ الإسلام ذوو الإستقراطية المعنوية على استقراطية المادة. وكان يراقب أوضاعهم المالية بقدر استطاعته، وبمجرد أن قتل عمر تنفست قريش الصعداء وراحت تدخر الأموال الطائلة ولم تمض مدة حتىٰ أدرك الجنود بأن في المدينة جماعة راقدة تعيش حياتها بهناء وسرور وتحصل علىٰ أموال أكبر من التي يحصلون عليها بينما ينشغلون هم في ميادين الحرب والقتال والتصدي للأعداء وكذلك وجد المسلمون الجدد أن نصيب بعض القاعدين والذين يعيشون في سرور وهناء من الخزانة أكثر وأكبر بكثير من نصيبهم هم، والسبب الوحيد أنهم قد دخلوا الإسلام قبلهم بعدة سنوات.

في السنة الثلاثين للهجرة أقدم عثمان علىٰ أمر ظن أنه لمصلحة المسلمين، وفرح أهل المدينة لعمله هذا بشدة ولكنّ الأحداث التالية أظهرت أن هذا الإجراء ومع أنه يبدو مناسباً وصالحاً، ولكنه سبب مصاعب ومشاكل لم يلتفت إليها الخليفة ومعاونوه ومشاوروه حينما اتخذوا تصميمهم ذلك، وكما أشير في الفصول السابقة وكما هو مقرر في الفقه الإسلامي فإنه لو تمّ عقد معاهدة صلح بين سكان بلاد غير إسلامية مع المسلمين، فإن ما يؤخذ منهم من أموال يتم تحويله إلىٰ بيت المال بعنوان جزية، ولكن لو فتحت تلك البلاد بالقوة العسكرية (فتحت عنوة) فينبغي تقسيم تلك البلاد بين الفاتحين.(١)

إن الاستفادة من محاصيل وخيرات الأراضي المفتوحة عنوة في خارج الحجاز كان أمراً شاقاً علىٰ المسلمين لأن ذلك يتطلب منهم البقاء والإقامة فيها أو السفر باستمرار في موسم جني المحصول إليها، وهذا الأمر يوجب توجه أعداد كبيرة وتجمعها هناك.

قال عثمان للناس: أرىٰ أن أعيد لكم فيأكم ليكون كل شخص في أرضه ومنزله. فقالوا: وكيف يكون ذلك ؟ فقال : أصحاب الأراضي عدا أولئك الذين في خارج بلادهم من العسكر إذا شاؤوا مبادلة سهمهم مع غيرهم في الحجاز أو اليمن أو غيرهما فلهم ذلك. فسّر أهل المدينة لسماع ذلك الكلام وظنوا أن باب خير قد فتح أمامهم علىٰ مصراعيه ففي هذه الحالة يمكن لكل شخص أن يبقىٰ في الأرض الأقرب بالنسبة إليه. وبدأ أمر تبادل الأراضي بين المالكين الصغار وقام أشخاص من قبيل طلحة ومروان بن الحكم والأشعث بن قيس وغيرهم بمبادلة أراضيهم مع صغار المالكين، ولم يمض وقت حتىٰ ظهر بعض كبار الملاك في الحجاز والذين كانوا

١- هذه المسألة محل خلاف، والرأي المذكور هو رأي الشافعي ولكن رأي الشيعة وبعض المذاهب الأخرىٰ هو أن هذه الأرض مشاع لكل المسلمين.

يحصلون علىٰ فوائد كبيرة من أراضيهم الخصبة وبسبب سبقتهم إلىٰ الإسلام كانوا يتمتعون بنصيب وسهم أوفر من الآخرين وكذلك كانوا يستفيدون من العطايا الكبيرة التي كان الخليفة يقدمها إليهم بين الحين والآخر.

وذكر قائمة بأسماء الأثرياء والأغنياء هنا أمر يخرج عن وظيفة التأريخ، ونقطة أخرىٰ كان لها أثر كبير جداً علىٰ اضطراب المجتمع الإسلامي، ويجب أن تؤخذ بعين الاعتبار، وهي أن بعض المسلمين الذين كانوا يظهرون نوعاً من الإيثار والفداء لرفع اسم الدين في أيام الإسلام الأولىٰ وفي عهد النبي ﷺ وفي خلافة عمر بمجرد أن توفي رسول الله وبمجرد أن لم يروا تشدد عمر ازدانت الدنيا أمام أعينهم وأظهرت زخارفها وغلبت عليهم أهواؤهم النفسية فغفلوا عن الله ونسوه واعتبروا مال عباد الله كأموالهم الشخصية حتىٰ وصل الأمر إلىٰ ارتفاع أمواج التذمر من كل حدب وصوب. في السنوات العشرة الأولىٰ من خلافة عثمان ولأن الجنود كانوا منشغلين بالفتوحات في إيران وأفريقية ولأن هذه الطبقة لم تتكون بشكل واضح ومحدد فإن التذمر لم يتعد حد الشكوىٰ اللفظية.

لو أن الخليفة قلل من محاباته لأقاربه بعض الشيء، أو أنه منع الأمويين وقريش من الإغراق في استغلال بيت المال كعمر ولو أنه اختار بدلاً عن مروان وابن أبي مشاورين من أصحاب التقوىٰ والتجربة لكان من الممكن إخماد نار الفتنة بماء التدبير، ولكن ليس عبثاً أن يطلق المؤرخون المسلمون علىٰ السنوات الأخيرة من فترة حكم عثمان اسم سنوات الامتحان، امتحان أصحاب رسول الله في تلك السنوات -وللأسف الشديد- لم ينجح منهم في هذا الامتحان إلا القليل.

وفي ذلك الزمان لم يستطع أبو ذر الغفاري ذلك الصحابي التقي والزاهد والذي رأىٰ بأم عينه بساطة عصر الرسول وخلافة عمر، وشاهد الحياة الإستقراطية التي يعيشها بعض المسلمين السباقين إلىٰ الإسلام غض النظر عن الانتقاد والمعارضة وكان يقول: المال الذي تأخذونه من الأراضي المفتوحة ليس مالاً لشخصكم، بل هو

مال المسلمين، ويجب أن يكون لبيت المال، وكل من يقوم بعمل في سبيل الدولة الإسلامية يجب أن يأخذ من هذا المال فقط بقدر حاجته، والباقي يجب أن ينفق في سبيل الله.

كان أبو ذر يقيس ويقارن أفعال الجميع بأفعال النبي وأفعاله وأفعال كبار الصحابة ولم يقدر علىٰ قبول أنه عندما يحل موعد الامتحان فانه سيقل الديانون. ولأن قريشاً والأمويين لم يتحملوا انتقاده ومعارضته شكوا للخليفة أمره وقالوا له بأن أبا ذرّ يحرض الناس عليك، وفي النهاية قام مشاورو الخليفة الأنانيون بفعلتهم، ولم يلتفتوا إلىٰ كلام أبي ذر، فتم إبعاد أبي ذر إلىٰ الشام! ولكنه لم يتوقف هناك عن لوم معاوية وانتقاده، فاضطروا إلىٰ استدعائه إلىٰ المدينه، ومن ثم أبعدوه إلىٰ الربذة حيث توفي هناك غريباً.

إن أنانية مشاوري الخليفة، وتهافت الأمويين إلىٰ المدن الكبرىٰ، واستغلالهم لمناصبهم وتطاولهم على بيت المال، زاد من تذمر الناس وسخطهم، فعلت أمواج المعارضة والمخالفة. بدأ التذمر والانتقاد أولاً من قبل الجنود، كانوا يقولون:

أن موارد الأرض المفتوحة أو الحاصلة عن طريق المصالحة (الفيء) هي ملك لنا، في حين أن ولاة عثمان وحكامه كانوا يعدونها ملكاً لهم، والأراضي المفتوحة هي عطايا لهم.

دققوا في هذا النزاع وهو واحد من عشرات النزاعات، وقد أورده ابن الأثير كما يلي: «قدم سعيد بن العاص الكوفة .. وسمر عنده ليلة وجوه أهل الكوفة وفيهم مالك الأشتر فقال سعيد : انما هذا السواد بستان لقريش، فقال الأشتر (وهو من اليمانيين): أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك؟ فقال عبدالرحمن الأسدي -وكان علىٰ شرطة سعيد-: أتردون علىٰ الأمير مقالته؟ وأغلظ لهم، فقال الأشتر: من ها هنا؟ لا يفوتنكم الرجل، فوثبوا عليه، فوطؤوه وطأً

شديداً حتىٰ غشي عليه[١]. ومنذ هذا التاريخ ظهرت النزاعات ثانية بين اليمانيين والمضريين.

وبدل أن يقوم مشاورو عثمان بوضع الحل المناسب وأن يطلبوا منه أن يمتنع عن التصرف في بيت المال كما يحلو له، وأن لا يسمح لآل أبي معيط - وهم من أقاربه - بالتعدي علىٰ الناس، والتعالي عليهم، سعوا جاهدين -عن جهل أو عن عمد وقصد- إلىٰ إبعاد ذوي التقوي والزهد عنه، ولو قام أحد في سبيل إحياء السنة ونبذ البدعة بنصيحته أو لومه، كانوا يجبرون عثمان علىٰ تبعيده أو ضربه كما فعلوا بحق ابن مسعود وأبي ذر وعمّار بن ياسر وبعض الأفراد الآخرين أو أنهم كان يطلبون منه أن يرسل الجنود وأكثرهم من الموالي للقيام بعمليات الفتح[٢] وقد تدخل علي«عليه السلام» لمرات عديدة وسيطاً بينه وبين القوم، وقبل عثمان بتغيير أسلوبه هذا ولكن وفي كل مرة كان المحيطون به وخصوصاً مروان بن الحكم يمنعون من ذلك حتىٰ انتقل التذمر وتسربت الثورة من الحدود إلىٰ الداخل.

وفي النهاية توجه المعارضون إلىٰ المدينة وراحوا يطالبون ببسط العدالة والمساواة فتعهد الخليفة بالاستجابة لمطالبهم ولكن معاونيه منعوه عن فعل ذلك ثم ما لبث أن تحول هذا التذمر إلىٰ ثورة فنهض البعض لحل الأمور ولكنهم تأخروا في ذلك وقد ذكروا أنه عندما كان المصريون في طريق عودتهم بعد تلقيهم وعود الخليفة الإصلاحية التقوا في الطريق بفارس يحمل رسالة من عثمان إلىٰ حاكم مصر يأمره فيها أن يقتلهم فرجع المعارضون والثوار فحل قضاء الله في آخر الأمر وقتل عثمان بأيدي المسلمين (٣٥ هـ ق).

والعجيب أن بعض أبناء كبار قريش والطائفة الأموية لم يكونوا علىٰ اطلاع أو لم

١- الطبري، ج ٢، ص ٦٣٧.

٢- الطبري، ج ٦، ص ٣٩٣٢.

يرغبوا بمعرفة أصل وسبب ظهور هذه الفتنة ولم يودوا أن يقبلوا بأن التمييز والتطاول علىٰ بيت المال وفي النهاية أنانيتهم هي التي أدت إلىٰ هجوم سكان الحدود علىٰ مركز الخلافة.

كانوا يظنون أن عثمان قتل بسبب التنافس العشائري وأن بني هاشم هم الذين أرادوا الإنتقام من بني أمية.

عندما قتل عثمان علىٰ يد المعارضين الثائرين قال الوليد بن عقبة (أخو عثمان من أمه) في رثائه مخاطباً بني هاشم:

بني هاشمٍ إيه فما كان بيننا
وَسيَفْ اُبن أَرْوىٰ عِندكُمْ وَخَزائنُه
بني هاشمٍ رُدَّوا سِلاح ابن أُختكم
ولا تنهبُوهُ، لا تَحلُّ مناهبُه
بني هاشم كيف الهوادةُ بَيْننا
وَعنْد عليٍّ دِرْعُهُ وَنَجائبُهُ
لَعَمْرُك لا أَنسىٰ ابن أَروىٰ وَقَتْلَهُ
وَهَلْ يُنْسئن الماء ما عاش شارُبه؟[1]

دققوا النظر في هذه الأبيات جيداً، إن قائلها هو أخو عثمان، خليفة ذلك الزمان، وهو الشخص الذي جعله الخليفة والياً علىٰ الكوفة.

إن الفارق الزمني بين تاريخ وفاة الرسول ﷺ وتاريخ سرد هذه الأبيات لا يتجاوز ربع قرن.

١- الطبري، ج ، ٣٩٣٢.

ونرىٰ هنا كيف تموت السنة الإسلامية علىٰ لسان هذا الرجل المسلم في ظاهره في المدينة – مركز نشر الدعوة و نشوء الإسلام –.

لا توجد أي إشارة في هذه الأبيات إلىٰ كيفية قتل عثمان: هل قتل علىٰ حق أم علىٰ باطل؟ وعندما قتل هل كان ملتزماً بسنة النبي﴿ﷺ﴾ وسيرة الخلفاء من قبله أم أنه عدل عن ذلك؟ ولا أحد يسأل لماذا هاجم المعترضون الخليفة وأقدموا علىٰ قتله؟

الشيء الوحيد الذي يشاهد في الأبيات هو منافسة بني أمية لبني هاشم.

ولو كان للهاشميين دور مباشر في قتل عثمان أيضاً لاستطعنا أن نعذر القائل ولكنه يتهم علناً ويقول:

وسيف ابن أروى[١] عندكم وخزائنه!

ونحن نعلم أن علياً قد ساند عثمان في أيام محنته ولو قبلنا زعم أقارب عثمان بأن علياً﴿عليه السلام﴾ لم يسانده، فإنه لم يحاربه ولم يعلن دعمه للثائرين، فهل هناك سبب آخر غير ضيقه من بني هاشم لأن النبي كان منهم؟ وهل هناك علة أخرىٰ غير اختيار الناس لخليفة المسلمين الجديد من بني هاشم بعد مقتل عثمان؟ فلم يسعه تحمل ذلك!

وهل يمكننا أن نقول شيئاً غير أن بعض زعماء القبائل والطوائف لم ينسيا حتىٰ الآن الحقد والعداء مع القبائل الأخرىٰ، وإن غضوا النظر عنه مؤقتاً نظراً لتوفر شواغل أخرىٰ جديدة ولكنهم بمجرد أن سنحت لهم الفرصة وفتح أمامهم المجال عادوا إلىٰ تقاليدهم الماضية؟ وهو نفس الأمر الذي كان القرآن يحذرهم منه:

﴿وَما مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبله الرُّسُل، أَفَإن ماتَ أَو قُتل انقَلبْتُم علىٰ أَعْقابِكُمْ، وَمَنْ ينقلب عَلىٰ عَقبيه فَلن يَضُرَّ اللّه شَيئاً

١– أروىٰ: اسم أم عثمان.

وَسَيَجزي اللهُ الشاكرين».[١]

من الأعمال المهمة التي حصلت في عهد خلافة عثمان هو أن الخليفة وخوفاً من ظهور اختلاف في قراءة القرآن وما يجر من تأثير علىٰ كلام الله زيادة ونقصاناً أمر بإعداد عدة نسخ من المصحف الذي كتب في عهد أبي بكر والذي كان محفوظاً عند حفصة بنت عمر. ثم أرسلت هذه النسخ إلىٰ المدن الإسلامية الهامة وتم إحراق البقية.

وقام معاوية في خلافة عثمان بتشكيل قوة بحرية كبيرة وأقدم علىٰ مهاجمة قبرص ثم حاول السيطرة علىٰ القسطنطينية ولكنه لم يفلح.

خلافة علي«عليه السلام»

بمجرد أن خفّت حدة الغضب الجماهيري، وفرغ المعارضون من أمرهم، أدرك أهل المدينة أن البيت الإسلامي بات يفتقد إلىٰ المشرف والمدير وأنه لا بد من تعيين خليفة للناس.

كان بعض أصحاب النبي والسابقون إلىٰ الإسلام يفكرون بتولىٰ زمام الأمور بشكل جدّي كطلحة والزبير، ولكن الثوار لم يوافقوا علىٰ ذلك نظراً لكون عقد الأمور في أيديهم. كانت الأغلبية الساحقة والكثيرون من أهل المدينة من مهاجرين وأنصار ينظرون إلىٰ علي«عليه السلام» علىٰ أنه الخليفة المناسب.

يذكر بعض المؤرخين أنهم طلبوا في ذلك اليوم من علي أن يقبل تولي الخلافة وبعدها قاموا بمبايعته. ويرىٰ آخرون أن النقاشات دامت أكثر من ثلاثة أيام.

١- آل عمران| ٣: ١٤٤

وعلىٰ كل حال فقد تمت مبايعة علي﴿عليه السلام﴾ وبذلك تم تعيين إمام المسلمين. ولكن خلال مدة ربع قرن بعد رحلة النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ ربما لم يأت زمان كهذا يصعب فيه إجراء العدالة. وكان ﴿عليه السلام﴾ مدركا وعالماً بالمشاكل الجاثمة أمامه في المستقبل ولذلك لم يقبل وكان يقول: دعوني والتمسوا غيري.

دولة مترامية الأطراف، وولايات تتألف من أقوام وأعراق مختلفة، وأعداء مترقبون في جمع الأنحاء، والأهم من ذلك مطالبة البعض في المدينة بالخلافة.

لقد تبدلت سنة النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ وسيرة بعض أصحابه خلال ربع قرن من الزمن وعليه أن يعيد الأمور إلىٰ مجاريها ويحي سنة رسول الله السائرة نحو الزوال.

ولكن من غير الممكن أن يعود القوم الذين تعودوا علىٰ الراحة والرفاهية وتكديس الأموال والذين اكتسبوا العديد من الامتيازات والذين كانوا يديرون عجلة السياسة في الحجاز والأراضي الإسلامية الأخرىٰ إلىٰ حياتهم البسيطة النقية وإلىٰ المساواة في عهد النبي. وكانوا يريدون خليفة مهادناً ومسالماً وكان من المسلم أن علياً﴿عليه السلام﴾ ليس من أهل التسليم الذي يريدون.

كان علي﴿عليه السلام﴾ يريد العودة بالإسلام إلىٰ بساطة عصر رسول الله وهو الشئ الذي لم يتمناه أثرياء الحجاز وأغنياؤه أبداً.

كانت طريقة تصرفه في نظر القوم الذين اعتادوا علىٰ طريقة وأسلوب خاص غير مجدية، فقد كان ينظر إلىٰ الجميع بعين واحدة من حيث تقسيم بيت المال وكانت المبالغ توزع بشكل متساوٍ.

بعد أن فرغ أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ من أمر البيعة أرسل رجاله إلىٰ الولايات الإسلامية فأرسل عثمان بن حنيف إلىٰ البصرة، و عمارة بن شهاب إلىٰ الكوفة، وعبدالله بن عباس إلىٰ اليمن وقيس بن سعد بن عبادة ومحمد بن أبي بكر وبعده مالك الأشتر إلىٰ مصر وسهل بن حنيف والياً علىٰ الشام.

ولكن أياً من هؤلاء لم يكن موفقاً في عمله كما ينبغي ويجب، لأنه ظهر في المدن

تفرق واختلاف عمل علىٰ صنعه حاشية عثمان والذين كانوا محيطين به ومؤيدين له.

المخالفون لعثمان كانوا يقبلون عامل علي«عليه السلام» و من كان مؤيداً لمعسكر الأمويين ومرتبطاً بقريش راح يظهر معارضته ومخالفته كما قتل بعض هؤلاء بأيدي عملاء معاوية.

طلب طلحة والزبير من علي السماح لهما بمغادرة المدينة. فقد كانا يتوقعان أن يعهد إليهما بولايتي الكوفة والبصرة، وأن يكون لهما رأي ونظر ومشاركة في أمور الخلافة، ولكنهما فوجئا بعدم تحقيق علي«عليه السلام» لأحلامهم.

وكان معاوية قد قام بترسيخ جذور حكمه منذ مدة طويلة، ومع أنه تخلىٰ عن عثمان في أيام محنته ولم يقدم إليه أية مساعدة ولكنه بمجرد أن قتل وصفه بالخليفة المظلوم وهبّ للانتقام له، ولم يستطع أن يتهم علياً بقتله لما كان علي يعرف به من تقوىٰ وزهد لا مثيل لهما وكذلك لم يستطع أن يغفل عن بيعة المهاجرين والأنصار له ولذلك أرسل إليه كتاباً يعلمه فيه أن قتلة عثمان متواجدون عندك، فابعثهم إلي لأقتص منهم، وعندها سأكون في طاعتك.

وكانت عائشة - زوجة النبي«صلى الله عليه وآله وسلم» - من أشد المعارضين لعثمان، وعندما سمعت أن الناس قد بايعوا علياً بالخلافة أظهرت معارضة وعدم رضى واعتبرت عثمان مظلوماً.

في بداية الأمر لم يكن يُتوقع أن المعارضين في جدية من أمرهم إلىٰ هذه الدرجة وأن يقوموا بالوقوف في وجه الخليفة الذي بايعوه في الأمس، ولكن طلحة والزبير وبعض الأمويين الآخرين الذين أصيبوا بخيبة أمل من عدالة علي ومساواته قاموا باصطحاب عائشة معهم الىٰ البصرة وراحوا يعدون أنفسهم للحرب.

كان تجمع هؤلاء في البصرة تهديداً حقيقياً للقدرة المركزية فتوجه الخليفة من الحجاز إلىٰ العراق وعمل جهده علىٰ التفاهم مع المعارضين بالحوار ولكن ذلك لم ينفع. وفي النهاية نشبت الحرب بينهما، ومع أن نتيجة الحرب كانت في صالح الخليفة،

ولكنها كانت أول حرب تقع داخل الكيان الإسلامي فبعد حروب الردة وإلىٰ تاريخ حصولها كان العرب يحاربون غير المسلمين في الأراضي غير العربية.

بعد انتهاء حرب البصرة عم البلاد أمن مؤقت وبعث علي﴿عليه السلام﴾ بحكامه إلىٰ الولايات الكبيرة وعقد معاهدة صلح مع الروم من جهة وشرع بإعداد القوىٰ وتجهيز الجيش من جهة أخرىٰ.

كان وضع الشام والعراق في نهاية حرب الجمل يتطلب إمعاناً ودقة كافيين.

وقد روي أنه قتل في معركة الجمل ما يقارب العشرة آلاف رجل، ومن الطبيعي أن هذا الرقم قد أثر في الوضع العام للناس فضلاً عن تقليل حجم القدرة والقوة (كلهم كانوا من سكان العراق).

بينما كان معاوية يحكم قوماً يتمتع المسلم والمسيحي فيهم بحياة مرفهة وهانئة.

كان قوام جيش علي يتشكل من سكان الكوفة وبعض سكان البصرة.

هؤلاء القوم جاؤوا إلىٰ هاتين المدينتين من بوادي الحجاز أثناء الحروب الإسلامية.

ولم تكن التربية الاسلامية والنظم الديني قد أثّرا جيداً في معظمهم حتىٰ ذلك الوقت ولذلك كان للعراقيين أهواء وأهداف وطبائع مختلفة خلافاً للوحدة والتضامن اللذين يتصف بهما أهل الشام.

وكان واضحاً مدى الصعوبات والمشاكل التي ستواجه قادتهم والعاملين علىٰ ضبطهم.

والشكوى التي نراها في كلام الإمام (في خطبه) تظهر تفاوت سكان هاتين المنطقتين من حيث إطاعة الحاكم.

وعلى كل حال فقد جهز معاوية جيشاً كبيراً وانطلق به إلىٰ العراق زاعماً الطلب بالثأر لدم عثمان، فالتقىٰ جيش العراق مع جيش الشام في صفين، ولكن عندما اتضح في آخر أيام الحرب أن النصر سيكون حليف جيش العراق التجأ عمرو بن العاص،

مشاور معاوية إلىٰ الحيلة، فطلب من وجهاء الشام أن يرفعوا المصاحف على رؤوس أسنتهم وسيوفهم ودعوة جيش العراق إلىٰ حكم الله.

وقد رحب عدد من المنافقين في جيش علي عليه السلام بهذا الإجراء بالرغم من أن علياً قد أخبرهم بأنها حيلة توسل بها معاوية لتخليص نفسه من هزيمة نكراء، ولكنهم لم يقبلوا وقالوا: إن لم تقبل اقتراح أهل الشام ودعوتهم سنقدم علىٰ قتلك، فاضطر علي لقبول كلامهم. ثمّ حان وقت تعيين حكم من كل طرف.

يجب انتخاب هؤلاء الحكام واستقرارهم في مكان يدعىٰ دومة الجندل[١] وهناك يرجعون إلىٰ كتاب الله وسنة الرسول لتعيين ما إذا كان عثمان قد قتل بحق فلا يحق لمعاوية المطالبة بثاره أم بغير حق فيكون مظلوماً ولمعاوية الحق في المطالبة بدمه. وكان مسلماً أن حكم الشام سيكون عمرو بن العاص.

أراد علي انتخاب ابن عمه عبد الله بن عباس لهذه المهمة، ولكن المنافقين من أهل العراق تدخلوا هنا أيضاً، ولم يقبلوا به ولا بأي رجل آخر ممن يملكون لياقة هذه المهمة، وقاموا بترشيح أبي موسىٰ الأشعري وهو رجل ساذج ويخفي ويكن عدم ارتياح تجاه علي عليه السلام، كما أنه خذل الناس عنه ولم يشترك معه في معركة البصرة. وفي النهاية أجبروا علياً أن يقبل كلامهم بعد إلحاح وإصرار شديدين.

وكانت نتيجة هذا التحكيم هي أن مبعوث الشام خدع مبعوث العراق!! فقد اتفق الاثنان علىٰ خلع علي ومعاوية من الخلافة ليتسنىٰ للمسلمين اختيار خليفة جديد، وعندما حان موعد إعلام رأيهما طلب عمرو من أبي موسىٰ أن يصعد المنبر أولاً ويعلن رأيه، فصعد أبو موسىٰ إلىٰ المنبر، وقال إني أخلع علياً ومعاوية من الخلافة كما أخلع خاتمي من إصبعي (وأخرج خاتماً من إصبعه). وبعدها حان دور عمرو، فقال وأنا أيضاً أخلع علياً كما قال وأنصب معاوية مكانه خليفة، فثار أبو موسىٰ

١- قلعة تقع في وادي سرحان في الشمال الغربي من نجد.

قائلاً إن ما تقوم به يخالف اتفاقنا؛ ولكن كان الوقت قد فات وانتهىٰ كل شيء.

عندها عاد العراقيون إلىٰ وعيهم وأدركوا أنهم قد خدعوا من قبل أهل الشام وطلبوا من علي أن يستعد لقتال معاوية ولكن علياً﴿عليه السلام﴾ قال لقد عقدنا مع أهل الشام معاهدة متاركة لمدة سنة. فقام المنافقون الذين كان لهم علاقات مع معاوية بتحريض جماعة من المسلمين الأتقياء السذج بأنه لا حقّ لعلي أو معاوية بالتحكيم في دين الله فالحكم لله وليس لعلي وغيره حق في ذلك. ولم تمض برهة من الزمن حتىٰ تحول هذا الكلام الذي بدا في بداية الأمر ليس بذي أهمية إلىٰ منشأ لفتنة كبرىٰ فخرج البعض عن طاعة علي وقالوا لقد كفرت بقبول التحكيم في دين الله ويجب أن تتوب حتىٰ نطيعك من جديد !

قام علي بتحذيرهم أكثر من مرة ورجع بعضهم والتحقوا به ولكن ذلك لم ينفع مع جماعة أخرىٰ استقرت في مكان يسمىٰ النهروان[١] وقالوا: بعد أن يتوجه علي إلىٰ الشام سنهاجم الكوفة، فاضطر علي لمحاربتهم وكانت هذه الحرب هي ثالث حرب في الكيان الإسلامي.

وقد سببت نتائج سيئة وخطيرة[٢] وكما ذكرنا سابقاً فإن أغلب الفرق السياسية والدينية في ذلك الزمان كانت تتوسل بظاهر الآيات القرآنية لتثبيت ادعائها وقهر خصمها.

عندما أرسل علي﴿عليه السلام﴾ عبدالله بن عباس لمحاججة الخوارج قال له: «لا تخاصمهم بالقرآن، فإن القرآن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون... ولكن حاججهم بالسنة،

١- مدينة تقع قرب بغداد علىٰ بعد ٤ فراسخ.

٢- لمزيد من الاطلاع علىٰ التفاصيل يفضل الرجوع إلىٰ أثر المؤلف التالي: بعد خمسين عاماً (= نهضة الحسين).

فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً».

كان الخوارج -والذين يسمون أيضاً بالمارقين[١]- من جملة الفرق السياسية الدينية التي اكتسبت أهمية خاصة في تاريخ الإسلام السياسي والاجتماعي، وكذلك فقد خصوا أنفسهم بفصل من التاريخ وقسم من الفقه[٢] الإسلامي.

كما رأينا فإن الخوارج كبقية الفرق قد طرحوا[٣] في البداية مسألة جزئية محدودة ظاهرياً ولكن لم يلبثوا أن وسعوا من دائرة فكرهم ونطاق عملهم كبقية الفرق السياسية وطرحوا أبحاثاً تتضمن مسائل عن هذا العالم وذاك.

إن أهمية أمر الخوارج تعود إلىٰ أنه قد ورد في أحاديث الشيعة والسنة أن النبي ﷺ قد ذكرهم وأخبر عنهم وعن الرجل الذي سيتولىٰ قيادتهم في معركة النهروان.[٤]

١- مارق اسم فاعل من المصدر مروق ويعني السهم الذي تجاوز الهدف ولم يصبه وقد لقب الخوارج بذلك لأنهم خرجوا عن طاعة إمام زمانهم في أمر الاحتياط في الدين.

٢- فقه الإباضية وهو فقه جماعة كبيرة من الخوارج ومن تبقىٰ من الفرق المختلفة وقد دون هذا الفقه بجانب فقه المذاهب الإسلامية الأخرىٰ في كتب خاصة.

٣- مسألة الحكمين.

٤- يرجع إلىٰ المعجم المفهرس [للحديث الشريف] تحت كلمات «خرج» و«ثدي» و«مرق»؛ وليرجع إلىٰ سفينة البحار، ذيل «خوارج» (القسم الأول، ص ١٣١).

الفصل الخامس

النظام الإسلامي بعد شهادة علي عليه السلام

ما الذي كان الخوارج يبغونه في الحقيقة؟

كما نسنذكر لاحقاً فإنه عندما طرح أمر التحكيم وافقت الجماعة التي تسمىٰ بالخوارج علىٰ هذا التحكيم ولكنهم بعد عدة أشهر وما أن أعلن الحكمان رأيهما حتىٰ شرعوا بانتقاد عليعليه السلام أن لماذا قبلت التحكيم في دين الله؟ وبعد أن قال لهم عليعليه السلام: نحن مستعدون لمحاربة أهل الشام ولكن ينبغي أن تنقضي المتاركة أولاً؛ لم يقبلوا ذلك.(١)

فلماذا غفل هؤلاء الذين يزعمون الدقة في أمور الدين والذين رفضوا أمر التحكيم عن قوله تعالىٰ «... أوفوا بالعقود...»؟(٢).

عند مراجعتنا للمصادر التاريخية إن اقتصرت هذه المراجعة علىٰ بعض الأسناد فسنعجز عن معرفة سبب هذا التغيير في الرأي . والحقيقة هي أن الخوارج ومنذ بداية قبول التحكيم وحتىٰ نهاية الاعتزال عن عليعليه السلام لم يتفقوا علىٰ رأي واحد، ولم يكونوا يداً واحدة، فهؤلاء قبلوا في البداية شيئاً، وأنكروا في النهاية شيئاً آخر.

وقد قام المؤرخون علىٰ طول التاريخ بمزج هاتين العقيدتين، أو هذه الموافقة والمخالفة وإدغامهما في بعضهما البعض.

تخلو النصوص التاريخية الأصلية من تصريح مباشر بهذه الثنائية. ولكن المتتبع للحقيقة من خلال الحوارات ومقارنة الأحداث مع بعضها سوف يحصل علىٰ الحقيقة

- الطبري، تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبرى)، «حوادث سنة ٣٧» ج٦، ص٣٣٦٢.
- المائدة/٥: ١.

الواقعية.

وكما ذكرنا فإن الحلم والتفكير بالخلافة كان يملأ كيان معاوية وكان يعد نفسه للاستيلاء علىٰ العراق وعزل الخليفة الشرعي لذلك الزمان، ولكنه لم يكن يصرح بذلك علانية، لأنه كان يرىٰ أن معظم المهاجرين والأنصار الذين كانوا يمتلكون بأيديهم أمر الحل والعقد متفقين علىٰ خلافة علي عليه السلام.

ولو فرضنا أنه لم يقبل نص إمامة علي عليه السلام فهو مضطر لقبول الخضوع لسنة الإسلام وهذا ما جعله يتخذ من المطالبة بدم عثمان وسيلة وذريعة فكان يقول أنّ الذين يقفون إلىٰ جانب علي قتلوا عثمان ظلماً، وهو لم يرتكب جرماً عقابه القتل في الإسلام، وأنا ولي دمه والطالب بثاره فيجب القصاص منهم ولكنهم يقفون إلىٰ جانب علي وهو بإيوائه لهم قد نقض حكم الله في حين كان قتلة عثمان يقولون أنه ارتكب ذنوباً عقابها القتل.

الشعار الذي رفعته الشام في البداية ظاهرياً لخداع الناس هو دعوة المسلمين إلىٰ حكم القرآن، وبعبارة أخرىٰ هو أن يحدد هل كان قتل عثمان علىٰ أيدي المعارضين بحق أم بغير حق؟ وتقرر أن يجتمع الحكمان وينظرا في كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليصلا إلىٰ الحقيقة، فلو كان قَتَلَة عثمان علىٰ حق فلا يجوز أن يهب معاوية للمطالبة بدمه. ولو كان قتلهم له باطلاً وعدواناً ففي هذه الحالة سيكون معاوية هو ولي دمه والمطالب بدم الخلفية المظلوم. هذا ما اتفق عليه جيشا العراق والشام. والجماعة التي أطلق عليها لاحقاً اسم الخوارج قبلت ذلك في اليوم الأول.

وطبقاً لما يذكره الطبري عندما كان الأشعث بن قيس يقرأ كتاب المتاركة علىٰ الجيش فإن الشخص الوحيد الذي قال: ليس لكم الحق في تحكيم الرجال في دين الله هو عروة بن أُدَيَّة، ولكن أصحابه قاموا واعتذروا عن صاحبهم.[1]

١- الطبري، نفس الكتاب «حوادث سنة ٣٧» ج٦، ص ٣٣٣٨.

وقد استشاط الخوارج غيظاً بعد صدور رأي حكم الشام وقالوا: إن الحكم لله! فلماذا قالوا هذا؟ هذا سؤال لم يجيبوا عليه بوضوح.

من مقايسة جميع الأسناد التاريخية وغير التاريخية يظهر أن الخوراج ظنوا بأن تدخل الحكمين في أمر الخلافة وتشخيص صلاحيتهم أيضاً تمّ بموافقة علي عليه السلام.

كان الخوارج يقولون لقد تدخل الحكام في أمر لا يدخل ضمن صلاحياتهم (عزل ونصب الخليفة). وعندئذ حمّلوا الخليفة مسؤولية هذا التحكيم الخاطىء - جهلاً أو عن سوء نية - وقالوا أن الخليفة قد قبل أمر التحكيم هذا.

كانوا يقولون: تعيين صلاحية الخليفة حق عام لجميع المسلمين ولا يحق لعلي أن يوكل لأي شخص حق تعيين صلاحية تصدي المنصب الذي منحه إياه المسلمون. والآن و قد فعل ذلك فقد أذنب وينبغي أن يتوب عن ذلك!

لا شك بأنه لم يتم اختيار الحكمين لهذا الأمر. وفي الحقيقة لم يكن هذا الأمر مطروحاً في البداية. لقد تجاوز الحكمان حدودهما المعينة لهما، وأقدما علىٰ أمر ليس من صلاحياتهما. أما علي عليه السلام فلم يكن قد قبل هذا التحكيم مطلقاً! لماذا؟

لأن هذا الأمر لم يكن مطروحاً في البداية، بل كل ما في الأمر أنه عارض معاودة الحرب قبل انتهاء مدة المتاركة فقط!

هنا يجب توضيح الأمور بشكل أعمق لكي ندرك الخداع والمكر الذي حصل.

الحقيقة هي أن مكر واحتيال حكم الشام وسذاجة حكم العراق هو الذي مهد الطريق أمام هذا النزاع، وفي أول جلسة التقىٰ فيها هذان الحكمان سأل عمرو بن العاص أبا موسىٰ الأشعري قائلاً:

- ألست تعلم أن عثمان قل مظلوماً؟ - أشهد !

- ألست تعلم أن معاوية وآل معاويه أولياؤه؟ - بلىٰ.

- فإن الله تعالىٰ قال: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا

يسرف في القتل إنه كان منصوراً﴾[١] فما يمنعك من معاوية (أي: فلم لا تقف إذن إلىٰ جانبه).[٢]

كما نرىٰ فإن التحكيم في بداية الحوار كان يدور حول معاوية وهل يملك حق المطالبة بدم عثمان أم لا؟

فلو لم يتعدّ الحكمان وظيفتهما لكان من الممكن أن ينتهي أمر الخوارج بهذا الشكل، ولكن هؤلاء تدخلا أيضاً في أمر عزل ونصب الخليفة.

وفي الجلسة النهائية قام أبو موسىٰ بخلع عليعليه السلام ومعاوية من الخلافة، ثم قال عمرو بن العاص: أنا أيضاً أخلع علياً من الخلافة، وأنصب معاوية خليفة بدلاً عنه، فغضب أبو موسىٰ، وقال: لم يكن اتفاقنا هكذا. وراح الحكمان يشتمان بعضهما البعض.

وهنا طرح الخوارج أمراً آخر نتيجة التفكير الخاطىء، أو بسبب تحريض الأعداء المتظاهرين بحب عليعليه السلام والمتواجدين في جيشه، فقد زعم هؤلاء أن علياً قد أصيب بحالة من التردد والشك في أمر خلافته بقبوله للتحكيم.

لقد اختار المسلمون علياًعليه السلام للخلافة عن طريق المبايعة والرضىٰ ولا يملك هو ولا غيره حق التحكيم في هذا المجال. دققوا في هذا الحوار الذي دار بين ابن عباس والخوارج:

- ما نقمتم على الحكمين والله تعالىٰ يقول: ﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾[٣]؟

- وأما ما جعل حكمه إلىٰ الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر

١- بني إسرائيل/:٣.

٢- الطبري، نفس الكتاب، ج٦، ص٣٣٥٥.

٣- النساء/٤: ٣٥.

به، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه.[١]

يبدو أن كلام الخوارج النهائي كان هو أن المسلمين لم يرسلوا أبا موسىٰ وعمرو بن العاص لتحديد من هو أحق بالخلافة: علي أم معاوية؟ لماذا؟ لأن المسلمين اختاروا علياً خليفة مسبقاً، وعلىٰ معاوية وغيره الإذعان بذلك، وليس لديه الحق بتعيين حكم لينظر في أنه كان أهلاً للخلافة أم لا؟

أورد اليعقوبي الذي دوّن التاريخ قبل محمد بن جرير الطبري بقليل:

« وتنادىٰ الناس حكم و اللّه الحكمان بغير ما في الكتاب، والشرط عليهما غير هذا، وتضارب القوم بالسياط، وأخذ قوم بشعور بعض، وافترق الناس، ونادت الخوارج: كفر الحكمان لا حكم إلا اللّه»[٢].

إن هذا التقرير يظهر بشكل جيد في أي مجال كان الانتقاد الأول للخوارج. من الواضح أنهم كانوا يقولون: التحكيم في الخلافة والحكومة ليس مما يعهد به إلىٰ الحكمين لأن تعيين الخليفة حق أعطي لجميع الناس، ولهذا كانوا يقولون لعليعليه السلام: أنت بقبولك وبعثك للحكم صرت متردداً في عملك فأذنبت. إذا كنت أهلاً للخلافة فلماذا انتخبت الحكم وأوكلت أمرك إليه؟ وإذا كنت شاكاً في أهليتك فالآخرون أولىٰ منك بأن يكونوا في شك من هذا الأمر.[٣]

يتضح لنا من هذه الحوارات أن انتقادات الخوارج في بداية الأمر لم تكن نتيجة تنصيب الحكمين بل كانوا ينتقدون رأي الحكمين.

فإذا كان هذا هو رأي الخوارج، وعلىٰ ما رأينا كان انتقادهم يصب علىٰ الحكم

١- تاريخ الطبري، ج٣، ص١٠٩.

٢- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي (النجف مطبعة الغري ١٣٥٨ هـ ق)، ج٢، ص ١٦٦.

٣- محمد جواد مشكور، تاريخ مذاهب الإسلام (ترجمة الفرق بين الفرق) (تبريز: مكتبة الحقيقة ١٣٣٣هـ ش) ص٧٣.

الصادر في مسألة الخلافة، وليس علىٰ قتل عثمان، لذلك يجب القول أن هؤلاء لم يكونوا يعرفون أو لم يودوا أن يعرفوا أن علياً عليه السلام اختار هذين الحكمين (مع أنه كان مكرها) ليس من أجل التحكيم في أمر الخلافة، ولو كان يُظن في البداية أن نتيجة الأمر ستكون هكذا، فلا هو ولا أي رجل من المسلمين كان سيقبل بذلك، ولكن الحكمين ارتكبا خيانة كبيرة في وظيفتهما.

ويجب الإشارة هنا إلىٰ أنه كانت هناك جماعة لم تكن تدري معنىٰ التحكيم أبداً، ولم تكن علىٰ اطلاع بالتحزبات السياسية المستورة عن الأنظار العامة.

هؤلاء اكتفوا بالشعارات ولم يكونوا علىٰ معرفة تامة بما يريدونه من ورائها. كانوا يقولون « لا حكم إلا لله» وكان علي عليه السلام يجيبهم: كلمة حق يُراد بها باطل. وعلى كل حال فإن هذا الانتقاد كان محدوداً في البداية. وكما ذكرنا سابقاً فإن الخوارج قد هبّوا لمحاربة علي عليه السلام، وتفرقوا وتشتتوا بعد أن تلقوا هزيمة نكراء، بينما لجأ من بقي منهم إلىٰ المناطق البعيدة. ولكن ومع مرور الزمان أدىٰ هذا البحث الصغير (تعيين الحكمين) إلىٰ ظهور أبحاث كثيرة، وساعدت جاهزية المحيط علىٰ انتشار حوارات ونقاشات كهذه شيئاً فشيئاً، وأدت إلىٰ اتساع نطاق السؤال والجواب.

رأينا كيف زعم الخوارج أن علياً عليه السلام قد كفر بقبوله للتحكيم، ثمّ طوروا من هذا الاستنتاج الخاطىء بحثاً جديداً: لو كفر مسلم ومات وهو غير تائب فكيف سيكون حاله؟ وماذا سيفعل الله به؟ وهل يبقىٰ خالداً في الجحيم كالكفرة أم لا؟

وعقبوا علىٰ هذا البحث بالكلام عن علي عليه السلام وعثمان في أنهما ارتكبا ذنباً وماتا، فهل تابا عن ذلك أم أنهما لم يتوبا؟

وأدىٰ هذا البحث إلىٰ تحريك بحث آخر: لو ارتكب الخليفة ذنباً ولم يتب فهل يجب علىٰ المسلمين إطاعته أم لا؟

في ذلك الزمان كان الوضع في الكوفة والعراق (كبقية السنين مهيئاً لمثل هذه الأبحاث).

كان الحوار والنزاع علىٰ ماذا فعلوا؟ وليس علىٰ ما الذي ينبغي فعله الآن؟

وأحياناً كانت تصل نتيجة أبحاث الخوارج إلىٰ أن عثمان وعلياً لم يكونا أهلاً للخلافة، وأن تعيين الحاكم هو حق لكل المسلمين، ولا يخص جماعة معينة (شورىٰ المهاجرين والأنصار) وأن غير القريشيين يمكنهم الوصول إلىٰ الخلافة. وبناءاً علىٰ هذا لم يقبلوا رواية «الأئمة من قريش». وشيئاً فشيئاً اتسع نطاق الحوار وتجاوز المخلوق وراحوا يُشركون الخالق في ذلك أيضاً ويعينون الضوابط التي يرتكز عليها ثوابه وعقابه.

ومع تشعب الأبحاث وتوسع نطاقها، كان الخوارج ينقسمون إلىٰ فرق أكثر، وقد ميز الشهرستاني ٢٢ فرقة من هذه الجماعة.[١]

بعد الفراغ من حرب النهروان استعدّ عليعليه السلام للتوجه إلىٰ الشام للقضاء علىٰ تمرد معاوية. ولكن في صباح التاسع عشر من شهر رمضان من سنة أربعين للهجرة وأثناء أدائه للصلاة تلقىٰ ضربة من رجل يسمىٰ عبد الرحمن بن ملجم من قبيلة بني مراد، وفي اليوم الواحد والعشرين من ذلك الشهر انتقل إلىٰ جوار ربه.

وقد ذكرت روايات كثيرة عن الأسباب التي دفعت ابن ملجم لارتكاب هذه الجريمة والتي تعتمد معظمها علىٰ إطلاق الرواة لبنان خيالهم[٢]، وقد حمل معظم المؤرخين الخوارج مسؤولية ذلك. ولكن بعض المؤرخين في هذا العصر - وهم من الخوارج - يدّعون أن قبيلة بني مراد التي ينتسب ابن ملجم إليها لم تكن ضمن عداد الخوارج. وقد بعث أحد مؤرخي فرقة الإباضية (من الخوارج) والذي يعيش حالياً في الجزائر برسالة إلىٰ الكاتب ينفي فيها أمر اشتراك الخوارج في قتل الإمام عليعليه السلام!

١- الشهرستاني، نفس الكتاب، ج١، ص١٧٦.

٢- يُرجع إلىٰ مقالة الكاتب «نظرة إلىٰ وقائع القرن الهجري الأول»، يغما، (١٣٤٨)، ص٦٣٥.

ويذهب إلىٰ أن هذا القتل قد خطط له من قبل الأشعث بإشارة من معاوية.

وهو يرفض حتىٰ أن يكون ثلاثة أفراد قد التقوا للتشاور فيما بينهم والتعهد بقتل علي عليه السلام ومعاوية وعمرو بن العاص! ويضيف أن هؤلاء الأفراد ليس لهم وجود خارجي، وأن عبد الرحمن من قبيلة بني مراد، وبنو مراد ليسوا في عداد الخوارج[١].

وأياً كان الأمر فإن القسم الأول [نفي علاقتهم بقتل الإمام] من هذا الرأي يبدو عجيباً ولا يمكن القبول به فقد أشارت الأسناد الأصلية جميعها إلىٰ أن قاتل علي عليه السلام من الخوارج، ولكنّ القسم الآخر من رأيه، أي وجود دور للأشعث في قتل علي «عليه السلام» يبدو صحيحاً. فمن المسلم أنه يمكن استنباط نقطة هامة من التاريخ وهي أن للأشعث بن قيس رئيس قبيلة كندة دور هام في مؤامرة قتل الإمام. كان الأشعث منافقاً خطيراً متواجداً في جيش الإمام علي عليه السلام، ولم يكن يحبه، وكان له اتصالات مع معاوية. وليس من المستبعد أن يكون لأناس غير الأشعث هذا دور في ذلك.

إن الإحابة عن هذا السؤال وهو: هل أنّ معاوية هو الذي خطط لمؤامرة قتل الإمام علي عليه السلام أم غيره؟ أمر صعب!

وهكذا قتل الخليفة التقي وإمام الأمة المحزون والعالم العارف بكتاب الله، وسنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والذي كان يهدف إلىٰ القضاء علىٰ البدع التي نفذت إلىٰ الإسلام وإلىٰ إحياء سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ يد جماعة قد خدعت نفسها أيضاً في الإسلام.

وبقتل علي عليه السلام فقد ت الأمّة الإمام الزاهد والتقي، وتسلم معاوية زمام الحكم. ووصلت قريش، وخصوصاً الأمويون منهم إلىٰ مرادهم القديم السابق، وظهرت في المجتمع الإسلامي من جديد حكومة مستبدة وراثية علىٰ غرار الوضع في الإمبراطورية الرومية.

ويطلق علىٰ الفترة التي امتدت من خلافة أبي بكر حتىٰ شهادة الإمام علي عليه السلام

١- الخوارج هم أنصار الإمام علي، سليمان بن داوود بن يوسف، الجزائر، غرداية.

والتي دامت ثلاثون عاماً عهد الخلفاء الراشدين. وسبب هذه التسمية هو أنه في هذه المدة كانت سنّة النبي تراعىٰ بشكل من الأشكال، ولم يكن تداول الحكم في المجتمع الإسلامي حينها وراثياً.

ردود الأفعال الناتجة عن شهادة علي عليه السلام

كما ذكرنا سابقاً فقد قتل الإمام علي عليه السلام بيد رجل من طائفة بني مراد يدعىٰ عبد الرحمن بن ملجم في التاسع عشر من رمضان من سنة أربعين هجرية وانتقل إلىٰ جوار ربه في الحادي والعشرين من نفس الشهر. وبشهادة الإمام علي عليه السلام أصبح أمر إدارة الحكومة الإسلامية أكثر تعقيداً وصعوبة عما قبل وازداد الاضطراب في العراق أكثر من ذي قبل. ومن المسلم أن مقتل خليفتين في مدة لا تتجاوز الخمس سنوات هو حادثة لم تبق دون ردود أفعال في كافة أنحاء الدولة الإسلامية. ولكن ما هي ردود الأفعال علىٰ عمليات القتل تلك؟

لا يمكن رؤية ذلك بوضوح إلا في العراق والشام. وكما رأينا فقد تمّ تعيين الحاكم بسرعة بعد مقتل عثمان، ولم يظهر أحد في الشام والحجاز والعراق يطالب بالخلافة علناً. ولم يمتنع سوىٰ عدة أفراد عن مبايعة علي عليه السلام.

ومع أن المتسببين بحرب البصرة كانوا يطالبون بالخلافة خفية وسراً ولكن الأمر الذي اتخذوه ذريعة وأوردوه علىٰ ألسنتهم، كان إجراء الحكم الشرعي والمطالبة بدم الخليفة المظلوم.

والشام إلىٰ جانب تفكيرها بالاستقلال كانت تحلم بحكم المسلمين ولكنها لم تظهر ذلك في السنوات الأولىٰ بعد موت عثمان. ولكن تغييرات هامة طرأت في السنوات الخمس من خلافة علي عليه السلام. فقد أطلق معاوية علىٰ نفسه لقب الخلفية بعد أن أيد حكمه عمرو بن العاص برأيه بينما كان يطلق عليه لقب الأمير سابقاً، وقد ذكر

بعض المؤرخين أنه لقب نفسه بأمير المؤمنين! بعد شهادة الإمام علي عليه السلام.

ذكر ابن الأثير:

«لمّا استقرّ الأمر لمعاوية دخل عليه سعد بن أبي وقاص، فقال: السلام عليك أيها الملك! فضحك معاوية، وقال: ما كان عليك يا أبا إسحاق لو قلت يا أمير المؤمنين؟ فقال: أتقولها جذلان ضاحكاً واللّه ما أحبّ أني وليتها بما وليتها به.»[١]

وكما رأينا فقد راح معاوية يعد نفسه بعد حرب صفين للاجراء الأخير، وعندما استشهد علي عليه السلام لم يكن في الشام مخالف أو معارض له، بل كان أهل الشام كلمة واحدة في طاعته.

حكم معاوية هذه الولاية من السنة الثامنة عشرة للهجرة حتىٰ هذا التاريخ (٤٠ هـ ق) أي لمدة ٢٢ عاماً. وكان ممّا سهل أمره هو حكمه الطويل من جهة، ومن جهة أخرىٰ لباقته وبراعته في مداهنة الناس وطاعة أهل الشام له من جهة ثالثة.

ولم يكن عبثاً عندما قيل أن أهل الشام أكثر الناس طاعة لحكامهم، وكان علي يقول لأنصاره: لو صارفني معاوية لصارفته صرف الدينار بالدرهم، يعطيني واحداً وأعطيه عشرة منكم.[٢]

الفرق السياسية والدينية في العراق

شرحنا في الفصول الماضية الوضع الإجتماعي في العراق بقدر ما يسمح به هذا الكتاب المختصر، وحان الآن الوقت لنطلع علىٰ الفرق السياسية والسياسية - الدينية المتشكلة في هذه البلاد.

١- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٣، ص٤٠٩؛ وكذلك اليعقوبي، ج١، ص١٩٣.

٢- نهج البلاغة، (بيروت: مكتبة الأندلس، ١٣٧٤ هـ ق) ج٢، ص١٠.

كان يعيش في العراق عند شهادة الإمام عليه السلام ثلاث فرق:

١- العثمانيون أو أنصار بني أمية.

٢- الشيعة أو أتباع علي عليه السلام ومحبو آل البيت عليهم السلام.

٣- الخوارج.

العثمانيون

كان هؤلاء من أنصار حكم بني أمية وإن لم يظهر بعضهم هذه الرغبة علناً، ولكنهم لم يكونوا ليوافقوا علىٰ تسلم آل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم لزمام الأمور. وقد رأينا مثلاً لذلك الشعور في شعر قيل بعد مقتل عثمان.

كان أكثر عثمانيي العراق يعيشون في البصرة التي تتألف بشكل رئيسي من العرب العدنانيين أو المضريين (الشماليين) خلافاً للكوفة التي كانت مركزاً للقحطانيين أو العرب الجنوبيين والموالي.

ولقد رأينا في الفصول السابقة أن عائشة وطلحة والزبير اتخذوا من البصرة مكاناً لإقامتهم. وفي تلك المدينة شبت أول معركة داخلية في تاريخ الإسلام بين المسلمين، بذريعة المطالبة بدم الخليفة المظلوم. وكانت أهمية البصرة بالنسبة للخارجين علىٰ علي «عليه السلام» تنبع من أن المضريين سكنوا فيها.

وقد شرحنا ما فيه الكفاية عن حدة العلاقة بين هاتين الطائفتين وسيتم البحث لاحقاً في آثار نزاعهم هذا في كافة أنحاء الدولة الإسلامية.

الشيعة

كما ذكرنا في الفصول السابقة، في اليوم الذي انتقل فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ جوار ربه

تجمع بعض المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة ليعينوا خليفة المسلمين.

فعلا صوت الحاضرين في السقيفة وراح يعتبر كل من الأنصار والمهاجرين (أوبعبارة أخرى: أهل المدينة، وأولئك الذين قدموا من مكة إلى المدينة، أو بتعبير أدق القحطانيون والعدنانيون) أن الحكم من حقهم.

وفي ذلك اليوم كان علي عليه السلام وآل البيت متواجدين في بيت عائشة يهيئون مقدمات دفن جسد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يحضر أحد منهم في ذلك المجلس.

وكما ذكرنا سابقاً فقد ولّىٰ النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً (ع) من بعده خليفة وإماما علىٰ المسلمين في حجه الأخير (حجة الوداع) في غدير خم في منزل الجحفة.

منذ ذلك اليوم ظهرت في المدينة جماعة تعتبر الخلافة حقاً مسلماً لعلي عليه السلام وقد سميت هذه الجماعة بالشيعة أو شيعة الإمام علي عليه السلام.(١)

ولأن علياً بايع الخلفاء الثلاثة من بعد النبي مضطراً حفاظاً علىٰ مصلحة المسلمين العامة فقد تبعه الشيعة في ذلك ولم يصدر منهم شيء.

وبعد مقتل عثمان ووصول الخلافة إلىٰ علي عليه السلام بايعته الأكثرية المطلقة من مهاجرين وأنصار إلا عدة أفراد.

الشام أيضاً كانت تترقب الفرصة المناسبة ولكنها لم تظهر معارضتها للخليفة، وكانت مطيعة في الظاهر، وكان يقال هناك: أنّ قَتَلَة عثمان يقفون إلىٰ جانب الخليفة الجديد، وهؤلاء يجب القصاص منهم بحكم القرآن، وأنّ معاوية هو ولي دمه، وله الحق في المطالبة بتنفيذ القصاص، وإذا تمّ إنزال القصاص في قتلة عثمان سوف تصير دمشق إلىٰ طاعة الكوفة.(٢)

١- يذكر بعض محققي الشيعة، وبعض علماء أهل السنة والجماعة أن جماعة من المسلمين في عهد رسول الله كانت تسمىٰ بشيعة علي.

٢- كان معاوية يتذرع بالآية ٣٣ من سورة الإسراء.

وعندما استشهد علي عليه السلام في الكوفة ظهر من جديد الشرخ الفاصل بين الشيعة وغير الشيعة فقد التف الشيعة حول الحسن عليه السلام ابنه البكر من فاطمة عليها السلام وقاموا بمبايعته بينما لم يكن العثمانيون يشعرون بارتياح تجاه بني هاشم، وكان من المسلم أنهم سيرفضون مبايعة الخليفة الجديد.

وكما سنذكر لاحقاً فإن غالبية الذين أظهروا حبهم لعلي وآله بعد رسول الله هم من الأنصار أو القحطانيين أو اليمانيين (العرب الجنوبيين) ولقد تحدثنا مفصلاً عن العداوة القائمة بين مكة والمدينة، وعقد ميثاق الأخوة بينهم، وبعد وصول بني أمية إلىٰ سدة الحكم في عهد عثمان رجع هؤلاء إلىٰ عدائهم القديم.

وبمقدار ازدياد تطاول الأمويين وتماديهم في التسلط على أمور البلاد كان نفور القحطانيين وسخطهم على أولئك يزداد أيضاً، وكما أنهم دعوا النبي إليهم ووقفوا بجانبه، فقد أعلنوا محبتهم لآل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعدائهم لقريش عدوه العدو القديم وكانوا يقولون لمعاوية في حرب صفين: بالأمس حاربناكم علىٰ تنزيل القرآن واليوم نحاربكم علىٰ تأويله.[١]

وكان واضحاً أن الأنصار لن يتركوا حماية بني هاشم وتأييدهم لهم، وبعد شهادة علي عليه السلام قبلت هذه الجماعة من العرب المتواجدة في الكوفة وكذلك مواليها إمامة ابنه الحسن بن علي عليه السلام.

يروي الطبري: أنّ أول من بايع الحسن عليه السلام هو قيس بن سعد بن عبادة الذي قال للحسن: امدد يدك أبايعك علىٰ كتاب الله وسنة رسوله وقتال المبتدعين.[٢]

قيس هذا هو ابن سعد بن عبادة رئيس طائفة الخزرج من أنصار المدينة وقد تحدثنا عنه في الفصول السابقة.

١- بعد خمسين سنة، ط ٢، ص ٤٣.

٢- الطبري «حوادث سنة ٤٠ للهجرة».

الخوارج

تحدثنا عن الجماعة التي اشتهرت باسم الخوارج عند توضيح معركة صفين وقد وضحنا ذلك بقدر ما يسمح به المجال.

بعد شهادة الإمام عليه السلام انتهز المتبقون من الخوارج الفرصة ليقوموا بتبليغ وترويج أفكارهم من جديد. وقد سبب هؤلاء قلقاً ملموساً للحكام طيلة العهد الأموي وإلىٰ أواسط العهد العباسي، وكانت شجاعتهم تصل إلىٰ درجة أن بعض خلاياهم الصغيرة كانت تهزم جيشاً عظيماً. وفي القرن الثاني الهجري استطاع زعيم إحدىٰ فرق الخوارج ويدعىٰ عبدالرحمن بن رستم القادم من الناحية الشرقية الجنوبية من ايران تأسيس دولة الرستميين في المغرب العربي في مدينة تاهرت واستمرت لمدة ١٥٠ عاماً.

الانتهازيون

فضلاً عن تلك المجموعات الثلاث التي تكونت علىٰ أساس ديني مذهبي أو عرقي طائفي ظهرت حركة سياسية أخرىٰ في العراق، وهذه الحركة كانت تتخذ من الدين ستاراً لها، لذلك لم تكن محط اهتمام المؤرخين.

في الفصل الماضي وعند بحث الأوضاع السياسية والاجتماعية لشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ذكرنا أن الدويلات الصغيرة في شرقي شبه الجزيرة وشمالها كانت بيد الإمبراطوريتين الساسانية والرومانية.

هاتان القوتان اللتان كانتا تتصارعان للاستيلاء علىٰ الطريق التجاري الممتد من آسيا إلىٰ أفريقية وأوروبة وشدّ العرب إلىٰ جانبهم أو من الأفضل أن نقول سكان

هاتين المنطقتين (العراق والشام).

وكانت قوة أو عجز الحكومات التابعة لهم في هذه المناطق ترتبط بانتصار أو هزيمة هاتين الامبراطوريتين.

وبعد ظهور الإسلام وانتشاره تلاشت إحدىٰ هاتين القوتين، وضعفت الأخرىٰ وبُسط النفوذ الإسلامي علىٰ العراق، ولكن هؤلاء لم ينسوا العداوة فيما بينهم. ومع الدخول في الدين وانشغال المسلمين بالفتوحات زالت العداوة القائمة بين العراق والشام مؤقتاً. كان العرب في فترة خلافة أبي بكر القصيرة، وأيضاً في فترة خلافة عمر وعثمان ودون الالتفات إلىٰ طائفتهم أو المنطقة التي قدموا منها، كانوا يقاتلون إلى جانب بعضهم البعض في المناطق غير العربية ضد غير العرب أو بعبارة أخرى غير المسلمين.

كان يحدث أحياناً أن يحارب العراقي والشامي بجانب بعضهما البعض، وعندما اتخذ الإمام علي عليه السلام من العراق مركزاً لخلافته والتحق به العراقيون وحاربوا أهل الشام، وخدع حكم الشام حكم العراق أدرك الساسة العراقيون بأن عليهم أن يعلنوا ولاءهم للشام. وكان واضحاً أن هذه الفئة تتخذ من المعتقدات الدينية وسيلة لبلوغ أهدافها.

وبناءاً علىٰ المصلحة الزمانية كانوا يساندون فرقة دينية معينة، ولكنهم كانوا حريصين علىٰ عدم المخاطرة بأنفسهم أو تعريض أرواحهم للخطر، ولأن الخوارج كانوا جماعة خشنة ومتشددة، وكان عددهم قليلاً نسبياً، كان الساسة يرون مصلحتهم في الدخول تحت راية الشيعة والتظاهر بموالاة آل البيت.

وما نذكره في هذا الشأن ليس استنباطاً بعيداً عن الحقيقة التاريخية، فنحن نرىٰ كيف رحب أهل العراق بحرارة بقدوم الإمام علي عليه السلام إليهم، وكما رأينا فقد ظلوا في صفه مادام النصر حليفه (في حربي الجمل وصفين)، وبمجرد أن أدت حرب صفين إلىٰ هزيمة سياسية راحوا يعارضونه، وكلما حاول الإمام علي عليه السلام أن يدعوهم إلىٰ الحرب

كانوا يختلقون أعذاراً مختلفة، فلو كان هؤلاء من أتباع علي عليه السلام بحق، ولو كانوا يعتبرونه إماماً ويعتبرون طاعته أمراً واجباً لوقفوا وراءه بقلب واحد ولسان واحد، ولكنهم لم يفعلوا ذلك. كانوا مع علي من حيث الظاهر ولكنهم كانوا وراء مصالحهم في الخفاء، وقد فعلوا نفس الشئ بعد علي عليه السلام مع أولاده الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام وحفيده زيد أيضاً.

استمرت هذه الطريقة البشعة حتىٰ نهاية العهد الأموي، وطالما كان هناك حاكم مقتدر وسفاك يحكمهم بقبضة حديدية كانوا لا يحركون ساكناً، ولكن عندما كان الوضع السياسي يسير نحو الاضطراب والفوضىٰ كانوا يخرجون من مخابئهم ويشكلون الفرق والجماعات!

كانوا يقفون خلف أحد أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويحرضونه علىٰ القيام والخروج ولكن عندما يشعرون أن لا قدرة لهم علىٰ الاستمرار في المقاومة كانوا يتخلون عنه، وعن أتباعه الصادقين، ويعودون إلىٰ بيوتهم، وينتظرون فرصة مناسبة أخرىٰ، فلو كان هؤلاء متمسكين بعقيدتهم بحق لوجب عليهم أن لا يخشوا الموت كالخوارج، ولو كانوا من أصحاب الدين لكان لزاماً عليهم أن يقاتلوا العدو حتىٰ آخر رجل منهم كأصحاب الحسين عليه السلام ولكن هؤلاء لم يكونوا كذلك. لماذا؟

لأن الدين لم يكن هدفهم الأساسي وكل ما يبغونه هو أن لا يظل العراق تحت سلطة الشام، وهكذا ظهر العداء اللخمي والغساني من جديد بصورة أخرىٰ.

هناك جماعة أخرىٰ في العراق أيضاً كانت تعيش في الكوفة، ومع أنها كانت تفتقد إلىٰ التنظيم المناسب إلا أنها قد خلقت مشاكل كثيرة للحكومات تدريجياً، وأفرادها هم من دَخَل في الإسلام حديثاً، وقدم إلىٰ العراق من البلاد المفتوحة، ربط نفسه بجماعة عربية معينة، ولذلك يطلق عليهم في تاريخ الإسلام اسم الموالي، وسنتحدث عن الموالي وقيام هذه الجماعة لاحقاً. كان ارتباطهم بالفرق السياسية المتشكلة في حدود علمهم بجانب أي فرقة يمكنهم بلوغ أربهم.

لقد بينا الوضع السياسي والديني والاجتماعي في الولايات الإسلامية الكبرىٰ بالحد الذي تسمح به هذه العجالة وتنبع أهمية هذه الولايات الثلاث (الشام والحجاز والعراق) من كونها كانت تتحكم بمستقبل المجتمع الاسلامي، فكما رأينا فقد تولىٰ العراق والشام أمر البت في أمور الدولة الإسلامية بعد السنة الخامسة والثلاثين للهجرة.

المنطقة الشرقية

بخصوص هذه المنطقة لم تصلنا إلا معلومات قليلة ومتفرقة، وبقي تاريخها غارقاً في الظلام لسنوات طويلة، وليس فقط في تلك السنوات، ولذلك لا يمكننا تحديد ردود الأفعال الناتجة عن الحوادث الكبرىٰ التي وقعت الواحدة تلو الأخرىٰ في هذه البلاد.

ولكن لا يعتقد أن تكون هذه التحولات قد خلفت في تلك المنطقة أثراً ملحوظاً وهاماً، فالنظام الذي كان قائماً لقرون عديدة في بلاد مترامية الأطراف ما لبث أن تلاشىٰ في مدة قصيرة، وينبغي أن تمر سنون طوال حتىٰ يتكون فيه نظام من جديد، والمسلم أن كافة أنحاء المنطقة الشرقية كانت تابعة للكوفة، وإن لم ندخل الشام ومعارضة معاوية فإن الكوفة في تلك الأيام كانت تعين وتحدد مسير المجتمع الإسلامي ومستقبله؛ إذاً فعلينا العودة مجدداً إلىٰ الكوفة.

الكوفة بعد شهادة الإمام علي عليه السلام

ذكرنا سابقاً بأن الشيعة قاموا بمبايعة الحسن عليه السلام بعد دفن علي عليه السلام في الكوفة ولكن كان من الواضح أن مشكلة كبرىٰ ستواجه الإمام الحسن عليه السلام منذ أول يوم

من أيام خلافته. عليه في البداية أن يعمل علىٰ نشر الهدوء في الكوفة، وبعدها عليه أن يختار حكاماً للولايات الإسلامية -عدا الشام التي كان يحكمها معاوية- أي لمصر والحجاز والمنطقة الشرقية (خراسان، آذربايجان، وبقية أنحاء ايران). وكان الأهم من كل ذلك هو إنهاء الأمر مع الشام بشكل مباشر وعزل معاوية أو عدم السماح له بالتطاول علىٰ العراق.

وصلت مسألة الشام إلىٰ درجة كبيرة من الصعوبة في زمان الإمام علي عليه السلام فكيف ستكون في عهد الامام الحسن عليه السلام وقد أعلن معاوية نفسه حاكماً رسمياً علىٰ المسلمين؟

لم تكن مشكلة دمشق من المشاكل التي تحل بسهولة فبأية قوة يمكن للإمام الحسن عليه السلام أن يحارب معاوية؟

لقد رأىٰ في أواخر حياة أبيه بأم عينه أنه وبقدر ما كان والده يدعو أهل العراق لمواجهة معاوية كان أهل العراق يتخاذلون عن ذلك. ولو صرفنا النظر عن الشام فمن سيتولىٰ إدارة تلك الولايات النائية والمترامية الأطراف؟ والتصدي لهذه المناصب يتطلب مسلمين ذوي إيمان وخبرة وشجاعة، والأهم من ذلك أن لا يتصفوا بالطمع.

فى حين أن أغلب الذين التفوا حول الإمام الحسن عليه السلام كانوا يفتقرون إلىٰ الإيمان الصحيح، وقد أدّت العطايا التي بذلها معاوية إلىٰ الملتفين حوله إلىٰ تحير أصحاب الإمام الحسن (ع) وذهولهم. وهؤلاء هم الذين ملؤوا قلب والده علي عليه السلام قيحاً وألماً. وفي هذه المدة القصيرة ظهرت جماعات وتحزبات أكثر وضوحاً.

لا يمكن توقع شيء من البصرة والعثمانيين فهؤلاء لن يتخلوا عن معاوية أبداً. وقد أظهر الخوارج تجاهه ترحيباً! ومع أنهم كانوا يطرحون أموراً بسيطة في السنة الماضية ويبغون استئصال منكر علىٰ حدّ زعمهم فهم يطالبون بالخلافة حالياً.

ومؤيدوه هم فقط أولئك الذين يحملون لواء التشيع، ولكن أكثر هؤلاء هم شيعة

من حيث الظاهر، وهم أنفسهم الذين استدعوا علياً من الحجاز إلىٰ العراق، وفي النهاية تخلوا عنه، أو وقفوا بمواجهته، أو أنهم اتخذوا من الرياء والنفاق وسيلة للتعامل معه. وهؤلاء المتظاهرون بالتشيع هم نفس تلك الجماعة السياسية الدينية التي تحدثنا عنها، وذكرنا هدفها من الوقوف مع التحولات الدينية. فهل يمكن أن نتوقع من هؤلاء أن يعاملوا الابن أفضل مما عاملوا به الأب؟

أما أولئك الأتقياء والشيعة الحقيقيين والأتباع الأمناء له ولوالده ولأنهم لم يعتادوا ولم يتربوا علىٰ الكذب والنفاق، فكانوا يُخدعون أحياناً بحيل هؤلاء المخادعين ويستسلمون لهم، فلم يكونوا يظنون بأنه من الممكن أن يكون كل هذا العمل والنشاط والغليان للدنيا وليس لكسب رضىٰ الله.

ومن جهة أخرىٰ فإن معاوية لم يقعد ساكناً في تلك الأيام، وكان أُجراء حاكم دمشق منشغلين بالتحريض والتآمر في الحجاز واليمن ومصر وحتىٰ في داخل العراق، فاستمالة رؤساء القبائل وكبار العشائر وإرشاؤهم أو قتلهم وإثارة الشائعات وبثها وحياكة الأكاذيب ونشرها في العراق -البلد المتقبل للشائعات- ومهاجمة المدن الحدودية وإرهاب سكانها، ونسج الأساطير حول بذل وعطاء معاوية، وذكائه وحنكته في إدارة الحكم، كل ذلك كان عبارة عن وسائل مهدت الطريق وفسحت المجال أمام معاوية للاستيلاء علىٰ العراق.

توجه معاوية بجيشه إلىٰ العراق واستقر في مسكن[1].

وكان علي«عليه السلام» قد جهز جيشاً في أواخر أيام حياته لمهاجمة الشام وكان علىٰ هذا الجيش أن يستمر في مهمته. ولكن من سيتولىٰ قيادة هذا الجيش: قيس بن سعد بن عبادة أم عبيدالله بن عباس؟ استعد قيس للذهاب إلىٰ الشام بينما ذهب

١- مكان بالقرب من أوانا علىٰ مسافة قريبة من نهر دجيل حيث يقع دير جاثليق (معجم البلدان).

الحسن﴿عليه السلام﴾ إلىٰ المدائن. وفي كل يوم كانت تقع حادثة جديدة في معسكر الجيش، وقد أشيع في أحد الأيام خبر مقتل قيس، وبانتشار هذا الخبر عم الإضطراب كل الجنود، فانهال القوم علىٰ خيمة إمامهم ونهبوا كل ما كان في الخيمة إلىٰ درجة أنهم سحبوا الغطاء واللحاف من تحت قدميه، وعندما انطلق في سبيله باحثاً عن مأوىٰ وملجأ قاموا بمهاجمته في وسط الطريق وجرحوا فخذه بمعول، أورد الطبري:

«فبينا الحسن في المدائن إذ نادى منادٍ في العسكر: ألا إن قيس بن سعد قد قتل فانفروا، فنفروا، ونهبوا سرداق الحسن﴿عليه السلام﴾ حتى ناز عوه بساطاً كان تحته، وخرج الحسن حتىٰ نزل المقصورة البيضاء بالمدائن، وكان عم المختار بن أبي عبيد عاملاً له علىٰ المدائن، وكان اسمه سعد بن مسعود، فقال له المختار وهو غلام شاب: هل لك في الغنىٰ والشرف، قال: وما ذاك؟ قال: توثق الحسن وتستأمن به إلىٰ معاوية، فقال له سعد: عليك لعنة اللّه! أثب علىٰ ابن بنت رسول اللّه، فأوثقه!! بئس الرجل أنت».(١)

المختار الذي سنتحدث عنه بالتفصيل في الفصول التالية، هو نفس الشخص الذي تولىٰ قيادة ثورة الشيعة ضد الأمويين بعد خمس وعشرين سنة في الكوفة (وربما كانت تهمة من قبل الرواة المؤيدين لابن الزبير، وربما كانت صحيحة أيضاً) وعلىٰ كل حال فإن هناك شيئاً يظهر بوضوح من هذه التقارير، وهو حقيقة كانت وستكون دائماً بجانب كل نهضة أو تحول أو ثورة، وهي أنه في ذلك الزمان كانت هناك فئة تسكن في الكوفة وترنو إلىٰ مصالحها ومنافعها الشخصية بدلاً من مصالح المسلمين.

وبرؤية الإمام الحسن﴿عليه السلام﴾ للعصيان والتمادي والتطاول من قبل من يدعي محبته وجد أن المقاومة أمر لا فائدة فيه، وكان مسلماً أنه لو أصرّ علىٰ معارضته لمعاوية وأمر الجيش (لو بقي الجيش حوله) بالتقدم لفر قبل أن يتجاوز المدائن ولجعل

١- الطبري، نفس الكتاب، ج٧، ص٢؛ ابن الأثير، نفس الكتاب، ج٣، ص٤٠٤.

الجند من فكرة المختار التي اقترحها علىٰ عمه ولم يقبل بها أمراً عملياً ولسلموه لأعدائه.

في النهاية عقد الإمام الحسن مع معاوية معاهدة صلح.

معاهدة الصلح

ما هي بنود وشروط الصلح التي وردت في تلك المعاهدة؟ الله أعلم! فهناك أكثر من ٣٠٠ عام بين اليوم الذي دونت فيه المعاهدة واليوم الذي تمّ فيه تدوينها في الكتب. وفي هذه المدة سعىٰ الأمويون ومن بعدهم العباسيون والفرق السياسية، والسياسية الدينية أيضاً بكل ما أوتوا من قوة واستطاعة للتلاعب والتحريف في السنة، وفي أي سند آخر يصب في مصلحتهم ويضر بمخالفيهم. وهنا فإن الشروط التي ذكرها المحدثون لقبول الحديث لا تبين الحقيقة أبداً. ومن ينسج حديثاً ويجريه علىٰ الألسن يسعىٰ بكل شكل ممكن للحفاظ عليه بعيداً عن الانتقاد والشك. في مثل هذه الحالة والحالات المشابهة لا بدّ من أخذ القرائن الخارجية بعين الاعتبار.

يروي الطبري:

«أرسل معاوية الكتاب مع اثنين ... ومعهما صحيفة بيضاء، مختوم على أسفلها، وكتب إليه أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت، فهو لك، فلما أتت الصحيفة إلىٰ الحسن اشترط أضعاف الشروط التي سأل معاوية قبل ذلك، وأمسكها عنده، فلما سلّم الحسن الأمر إلىٰ معاوية طلب أن يعطيه الشروط التي في الصحيفة التي ختم عليها معاوية فأبىٰ ذلك معاوية».[1] وقد أورد ابن الأثير هذا

---

١ – الطبري، نفس الكتاب، «حوادث سنة أربعين».

المعنىٰ أيضاً[١]، وبلا أدنىٰ شك فإن مؤرخي العهد الأموي هم الذين ذكروا هذه الرواية بهذا الشكل، أو أنهم قاموا بتغيير الحقيقة، وإضافة الأكاذيب إليها.

ولقد ذكرت في هذا الكتاب وفي مؤلفاتي الأخرىٰ بأنه لا يمكن الإكتفاء بأسناد القرنين الثالث والرابع في تحليل حوداث القرنين الأول والثاني الهجريين بل يجب الاستفادة من القرائن الخاصة الملابسة لها للوصول إلىٰ القدر الأكبر من الاطمئنان.

الذين تتبعوا حياة الإمام الحسن بن علي عليه السلام غير مغرضين في ذلك يعلمون أنه بعيداً عن مقام الإمامة الذي يعتقد به شيعته هو رجل ذو طبيعة جماهيرية محببة وأخلاق إنسانية رفيعة وهو عندما وقع اتفاقية صلح مع معاوية كان يعلم جيداً أن هذا الصراع سيؤدي إلىٰ سفك دماء كثيرة وسينتهي في النتيجة بانتصار معاوية. وهو ليس بتاجر حتىٰ يساوم المشتري علىٰ سلعة ما وأن يرفع من سعر سلعته عندما يرىٰ أن سوقها رائجة. لقد كان يتمتع بأخلاق وطباع جعلته محبوباً في أعين الناس إلىٰ درجة أنه أرغم عدوه علىٰ الاعتراف بذلك. ولو فرضنا صحة رواية الورقة البيضاء المختومة والمرسلة من معاوية لوجب القول أنه عندما دوّن الإمام الحسن عليه السلام شروطه فيها وأعادها إلىٰ معاوية فإن معاوية وبعد بلوغه لمآربه (ترك الحرب والتأمر علىٰ الناس) ولكي لا ينفذ أياً من شروط المعاهده قام باختلاق هذه الأكاذيب ونشرها بين الناس.

والأعجب من ذلك أن الطبري قدم نسخة من هذه المعاهدة هي أقرب إلىٰ السخرية والأسطورة منها إلىٰ الرواية لتاريخية فما بالك في أن تكون حاكية عن حقيقة حاصلة علىٰ أرض الواقع. وللأسف الشديد فقد تسربت هذه المعاهدة المصطنعة أو المحرفة وبقية الأسناد المصطنعة الأخرىٰ إلىٰ الكتب التاريخية والدراسية في بلادنا، وقد ذكرها المؤلفون والمؤرخون وهم في أشدّ حالة من

١- ابن الأثير، نفس الكتاب، ج٣، ص٤٠٥.

التصديق والاعتقاد بها:

صالح الامام الحسن معاوية علىٰ أن يعطيه مبلغ خمسة آلاف ألف، وخراج دار "ابجرد" من فارس، وأن لا يشتم علياً، فلم يجبه إلىٰ الكف عن شتم علي، فطلب أن لا يشتم وهو يسمع، فأجابه إلىٰ ذلك، ثم لم يَفِ له به أيضاً، وأما خراج دار "ابجرد" فإن أهل البصرة منعوه منه، وقالوا: هو فيئنا[١] لا نعطيه أحداً.[٢] والأعجب من ذلك أن المحللين المعاصرين يكتبون أن الإمام الحسن كان يطلب ذلك المال لكي يعوض خسائر الشيعة!!

هؤلاء المؤرخون السذّج لم يلتفتوا أبداً إلىٰ أن الحسن عليه السلام لو أقدم علىٰ الصلح مع معاوية من أجل المال بهذا الشكل البسيط فإن أتباعه ما كانوا ليتركوه حياً أو لتطاولوا عليه بألسنتهم بطريقة لا يمكنه بعدها من المشي في مدن المسلمين بشكل علني وعندها أين الكوفة وأين خراج دار ابجرد فارس؟ ألم يكن الإمام قادراً علىٰ أخذ هذا المبلغ من خزانة الشام؟ هل سيسبب هذا ضيقاً لمعاوية في هذا المجال؟

إذاً فأين الشروط الأساسية التي ارتكزت عليها هذه المعاهدة؟ ولماذا لم يذكر الطبري عنها شيئاً؟

في مقابل هذه الأسناد المزورة توجد بين أيدينا أسناد أخرىٰ يمكن من خلالها كشف الستار عن الحقيقة، وتبيين أن المؤرخين في العصر الأموي والعباسي وأينما واجهوا واقعة تصب في نفع أهل البيت ومصلحتهم أقدموا علىٰ تحريفها والتلاعب فيها.

تبدو كتابة البلاذري المقدم علىٰ الطبري أدق وأكثر صحة حيث يقول

١- موارد المسلمين من البلاد غير الإسلامية التي استسلمت دون حرب.

٢- الطبري، «حوادث سنة ٤٠»؛ ابن الأثير، نفس الكتاب، ج٣، ص٤٠٥؛ تاريخ الإسلام للدكتور فياض، ص١٥٠.

البلاذري:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما صالح عليه الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان، صالحه علىٰ أن يُسلم إليه ولاية أمر المسلمين علىٰ أن يعمل فيها بكتاب الله، وسنة نبيه، وسيرة الخلفاء الصالحين، وعلىٰ أنه ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده، وأن يكون الأمر شورىٰ، والناس آمنون حيث كانوا على أنفسهم، وأموالهم، وذراريهم، وعلىٰ أن لا يبغي للحسن بن علي غائلة سراً ولا علانية، ولا يخيف أحداً من أصحابه.(١)

وقد أورد ابن حجر متن المعاهدة علىٰ الشكل التالي:

هذا ما صالح عليه الحسن بن علي رضي الله عنه معاوية، صالحه علىٰ أن يُسلم إليه ولاية أمر المسلمين:

- علىٰ أن يعمل فيها بكتاب الله، وسنة نبيه، وسيرة الخلفاء الراشدين،
- وعلىٰ أنه ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده، وأن يكون الأمر شورىٰ بين المسلمين.
- والناس آمنون حيث كانوا في الشام أو العراق أو الحجاز أو اليمن على أنفسهم،
- أصحاب علي وشيعته آمنون علىٰ أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم.
- عهد الله وميثاقه علىٰ معاوية بن أبي سفيان أن لا يسبب للحسن ولا لأخيه ولا لأحد من أهل بيت النبي شراً، لا في السر، ولا في العلن، وأن لا يخيف أحداً منهم أينما كانوا، شهد علىٰ ذلك فلان وفلان، وكفىٰ بالله شهيداً.(٢)

١- أنساب الأشراف، ج٣، صص ٤١-٤٢، بيروت :دار التعارف، ١٣٩٧ هـ ق.

٢- ابن حجر الهيثمي، الصواعق المحرقة، ص١٣٦، (القاهرة: مكتبة القاهرة، ١٣٨٥ هـ ق)؛ ويمكن الرجوع إلىٰ ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، تصحيح: أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: مطبعة عيسىٰ البابي، ١٣٨٥ هـ ق) ج١٦، ص ٤٤.

إن هذا المتن إن لم يكن متن المعاهدة ذاتها فيجب القول أن متن المعاهدة شيء قريب من هذا المضمون، وتؤيد ظروف الزمان وشروطه ذلك! فقد كان معاوية يسعىٰ دائماً للحيلولة دون وقوع الحرب وكان يقول: إن ضرر الحرب المالي والبشري هو أكثر من المال والامتيازات التي تعطىٰ إلىٰ هذا وذاك.

وكذلك فقد صمم منذ البداية أن لا ينفذ الشروط المذكورة في المعاهدة بأي شكل كانت وقد قال في النخيلة[1] عندما كان متوجهاً إلىٰ الكوفة: ألا إنّ كلّ شيء أعطيته الحسن بن علي تحت قدمي هاتين لا أفي به[2].

ومهما كان مضمون المعاهدة وشروطها فقد أدت إلىٰ انتشار موجة من المعارضة والتذمر في نفوس أهل الكوفة والعراق قاطبة. وقد تضايقت تلك الفرقة السياسية المتوارية تحت ستار الدين عندما رأت الشام قد انتصرت علىٰ العراق مرة أخرىٰ وأن مركز الخلافة لم ينتقل من دمشق إلىٰ الكوفة. ومن كان قوي الإيمان والدين منهم لم يتحمل علىٰ نفسه أن يرىٰ ابن أبي سفيان وقد تولىٰ زمام أمور المسلمين. لقد شاهدوا بأم أعينهم أن أبا سفيان قد قاتل الإسلام بكل ما أوتي من قوة ولم يتوان أقرباؤه وأهله عن أذىٰ المسلمين ومضايقتهم ولم يدخلوا الإسلام إلا عندما أحسوا بحرارة السيوف تحز في رقابهم؛ والآن كيف يجوز أن يحكم هؤلاء علىٰ المهاجرين والأنصار الذين ساندوا الإسلام ونشوءه في أيامه الصعبة؟ وهكذا تعالت صيحات عدم الرضىٰ.

روىٰ ابن الأثير أن رجلاً سدّ الطريق أمام الإمام الحسن بعد توقيع المعاهدة وقال له: يا مُسَوّد وجوه المسلمين! فقال: لا تعذلني، فإن رسول اللّه رأىٰ في المنام

١- مكان قرب الكوفة كان يتجمع فيه الجيش في خلافة علي استعداداً للحركة.

٢- ابن أبي الحديد، نفس الكتاب، ج١٦، ص٤٦.

بني أمية ينزون علىٰ منبره رجلا فرجلا.[١]

إن التحدث بهذا الكلام من قبل رجل مع الشخص الذي يعتبره إمام زمانه يظهر مدىٰ الحزن والضيق الذي ألمّ بهؤلاء بعد هذه الحادثة، ومدىٰ إيمانهم بإمامهم. ولكن لو أن الأمر انتهىٰ بالحرب فإلىٰ أي درجة سيقف هذا الرجل وأمثاله -بالفعل لا بالكلام- عند كلامهم هذا؟

نعم! عندما «يحل الامتحان يقل الديانون».

وبعد تبادل توقيع المعاهدة، رجع الإمام الحسن﴿عليه السلام﴾ مع أهله إلىٰ المدينة، ولكنه لم يسترح من عناء الأصدقاء والأعداء في آن معاً إلىٰ أن انتقل إلىٰ رحمة ربه في سنة ٤٩ للهجرة بالسمّ الذي دُسَّ في طعامه بإشارة من معاوية.

١- ابن أبي الحديد، نفس الكتاب، ص ٦٨؛ وابن الأثير، نفس الكتاب، ج٣، ص٤٠٧.

الفصل السادس

الأمويون

حكم معاوية

خطب معاوية في النخيلة قرب الكوفة خطبة بيّن فيها ما يُسِرّه ويكنه في قلبه وقال: والله إني ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا إنكم لتفعلون ذلك وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم[١].

وعندما كان الإمام الحسن عليه السلام عائداً في طريقه إلىٰ المدينة، أرسل معاوية إليه رسولاً وطلب منه أن يتولىٰ محاربة حوثرة الخارجي الذي جعل النخيلة مركزاً لتحركه بعد شهادة الإمام عليه السلام ودعا الخوارج للالتفاف حوله، فأجابه الإمام الحسن لقد عقدت معك صلحاً كي لا تراق دماء المسلمين، فاضطر معاوية مرغماً لتجهيز جيش يتألف في معظمه من أهل الكوفة وإرساله لمحاربة حوثرة، ثم قال لوالد حوثرة الذي كان متواجداً عنده: اذهب وضع شرّ ابنك عنا، فذهب إلىٰ ابنه ولكن محاولاته لمنع ابنه من محاربة معاوية باءت بالفشل: «.. فدعا معاوية أبا حوثرة، فقال له: أخرج إلى ابنك، فلعله يرقّ إذا رآك، فخرج إليه، وكلّمه، وناشده، وقال: ألا أجيئك بابنك، فلعلك إذا رأيته كرهت فراقه، فقال: أنا إلىٰ طعنة من يد كافر برمح أتقلب فيه ساعة أشوق مني إلىٰ ابني، فرجع أبوه، فأخبر معاوية بقوله، فسير معاوية إليهم عبدالله بن عوف الأحمر في ألفين، وخرج أبو حوثرة فيمن خرج، فلما رأىٰ أهل الكوفة يستعدون لقتاله قال لهم: يا أعداء الله! بالأمس كنتم تقاتلون معاوية

١- أبو الفرج الاصفهاني، مقاتل الطالبيين، تصحيح أحمد صقر، (بيروت: دار المعرفة، بدون تا)، ص ٧٠.

تريدون هدم سلطانه، واليوم تحاربون معه تريدون إحكام سلطانه! فقاتلهم ابن عوف، وصبروا، وبارز حوثرة عبدالله بن عوف، فطعنه ابن عوف، فقتله، وقتل أصحابه إلا خمسين رجلاً دخلوا الكوفة، وذلك في جمادىٰ الآخرة سنة إحدىٰ وأربعين، ورأى ابن عوف بوجه حوثرة أثر السجود، وكان صاحب عبادة، فندم علىٰ قتله.(١)

لقد ذكرنا هذه الرواية لتظهر تبدل مواقف أهل الكوفة والعراق. وفي الحقيقة فإن هذا التبدل والتغير، وبتعبير آخر نفاق أهل العراق هو الذي صعّب من مهمة الإمام الحسن عليه السلام.

وقد سار العراقيون علىٰ هذا المنوال طوال فترة حكم الإمام علي عليه السلام ومع ابنيه الحسن والحسين، وفي عهد حكام كالمختار ومصعب والثوار كسليمان بن صرد وزيد. كلما سنحت لهم الفرصة كانوا يلتفون حول شخص ويمطرونه بوعود التأييد والمساندة، ولكن عندما كانوا يرون من عدوهم مقاومة شديدة وبأساً منيعاً يتركون ذلك الشخص ضحية لتخليهم عنه.

معاوية وأهل العراق

كان معاوية ساخطاً أشد السخط علىٰ أهل العراق، ومع أنه كان معروفاً بالتصبر والحلم وإخفاء ما يكنه في داخله، لكنه كان يظهر سخطه هذا للعراقين بشكل مستمر. لماذا؟

لأن العراقيين التفوا حول علي عليه السلام ووجهوا إليه ضربة قاسية في معركة صفين.

١- ابن عبد ربه، الكتاب ذاته، ج١، ص ١٤٧؛ وانظر أيضاً: ابن الأثير، نفس الكتاب، ج٣، ص ٤٠٩.

في سنة أربعين للهجرة انضوىٰ العراق رسمياً تحت لواء حكومة الشام وفي تلك السنة حضر معاوية إلىٰ الكوفة شخصياً وأعلن حكمه فيها.

وكما ذكرنا فإن معاوية كان يسعىٰ منذ البداية لتسلم زمام الرئاسة ولم تكن المطالبة بدم عثمان ثم التعهد بالخلافة الإسلامية إلا ستائر يستظل تحتها للوصول إلىٰ مراده هذا.

وبانتقال زمام الأمور إلىٰ أيادي آل أبي سفيان وصلت هذه الطائفة إلىٰ ما تريد.

كان الأسلوب الذي اتخذه معاوية في حياته الشخصية وتعامله مع أهل الشام وبعدها في كافة أنحاء البلاد الإسلامية يختلف تماماً عما كان يدور في المدينة، وعما كان أبو بكر وعمر وحتىٰ عثمان يقومون به.

من اليوم الذي وصل فيه معاوية إلىٰ حكم ولاية الشام عن طريق عمر راح يسير نظام حكمه بناءاً علىٰ الأسلوب المتبع عند أباطرة الروم، وكان يقلد حكامهم أيضاً في أساليب حياتهم الشخصيته، فترك بساطة الحكم الإسلامي وأوجد نظاماً يتصف بالأبهة والتعقيد. وقد جاء أنّ عمر وعبد الرحمن بن عوف ذهبا يوماً إلىٰ الشام علىٰ حمار، فالتقيا بمعاوية الذي كان يسير بموكب ضخم من الحرس والخدم، فلم يعرف عمر حتىٰ أخبر بعد أن جاوزه، وعندما أُخبر بأن الذي يركب الحمار هو عمر، نزل عن موكبه وأتىٰ إلىٰ عمر، وسار إلىٰ جانبه وهو معرض عنه، فقال عبدالرحمن لعمر: لقد أتعبت معاوية! فالتفت عمر نحو معاوية، وقال له: يا معاوية! أنت صاحب الموكب آنفاً؟ مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك. فقال معاوية: نعم يا أمير المؤمنين! فقال عمر: ولم ذلك؟ فأجاب معاوية: لأنا في بلاد لا نمتنع من جواسيس العدو، فلا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان، ويجب أن نفعل ذلك لنخيفهم، فإن أمرتني بذلك أقمت عليه، وإن نهيتني عنه انتهيت، فقال عمر: لئن كان قولك الذي قلت حقاً، فإنه رأي أريب، ولئن كان باطلاً فإنها خدعة

أديب».[١]

عندما كان معاوية حاكماً علىٰ دمشق فقط كان يعامل الناس هكذا، وعندما دخلت مصر والعراق وايران وأفريقية وبقية البلدان التي تمّ فتحها في إمرته كان واضحاً أياً من الأساليب سيتخذ من الآن فصاعداً.

كان معاوية وأبوه من اللاهثين وراء الجاه والكبرياء ومتيمين بالأبهة والجلال. وكما ذكرنا فإن أبا سفيان قد دخل في الإسلام عندما لم يجد سبيلاً للفرار. وكما رأينا عندما أسلم حصل لنفسه علىٰ امتياز بمساعدة من العباس بن عبدالمطلب، عمّ النبي ﷺ وقد نال سهماً من غنائم غزوة حنين أيضاً. ولكنه كان يتطلع إلىٰ الحكم وكما ذكر فقد ولاه الرسول الأكرم ﷺ حكم نجران وكذلك نصبه عامل صدقات الطائف.

وعندما ولّىٰ عمر معاوية حاكماً علىٰ الشام قدم معاوية إلىٰ أمه هند. فقالت له: «إن هذا الرجل (عمر)، أعطاك عملاً فعليك أن تفعل ما يريد وليس ما تريد». كما أن أبا سفيان قال له:

«إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا [بالإسلام]، وتأخرنا، فرفعهم سبقهم، وقصّر بنا تأخرنا، فصرنا أتباعاً وصاروا قادة، وقد قلّدوك جسيماً من أمرهم، فلا تخالفنّ رأيهم، فإنك تجري إلىٰ أمد لم تبلغه، ولو بلغتة لتنفست فيه»[٢].

من هذه الحوارات يظهر بوضوح كيف أن الأب والابن يعتبران الإسلام وسيلة للتمتع في الدنيا والوصول إلىٰ الرئاسة والحكم.

١- ابن عبد ربه، نفس الكتاب، ج ٥، ص ١٠٨.

٢- العقد الفريد، ج ٥، ص ١٠٧.

سياسة معاوية في إدارة شؤون الدولة

شكل معاوية لنفسه فرقة للحراسة تحيط به عندما يذهب إلىٰ المسجد، ومن المشهور أنه في إحدىٰ المرات تلقىٰ ضربة علىٰ فخذه وهو في المحراب سببت له بعض الجراح، وبعد ذلك أسس مقصورة يتخذها مكاناً لإمامة المصلين.

وفي اللقاءات الرسمية كان الجنود يحرصون علىٰ حمايته بكل شكل من الأشكال.

لم يكن هذا الأسلوب معمولاً به في عهود الحكام السابقين، بل كانوا يذهبون إلىٰ المساجد بمفردهم ويجلسون مع الناس ويسمعون شكاويهم ويجيبون علىٰ أسئلتهم. ويمكن القول أن الفاصلة بين الوالي والرعية قد ظهرت منذ عهد معاوية.

ولكي يظهر للناس عظمته وجلاله، قام بإعداد بلاط مهيب وقصور جميلة مزينة بفرش وسجاد ثمين ولوازم أخرىٰ بأموال طائلة. ولعل الذي جعل أبا ذرّ يرفع صوته معترضاً هو بناء تلك القصور.

لقد سعىٰ معاوية طوال فترة حكمه الممتدة عشرين عاماً ليوسع الأراضي الخاضعة لإدارته ليزيد بذلك من دخل الخزانة وريعها ويُكَوّن قدرة تستطيع إدارة البلاد من جهة، وتخيف جيرانه من جهة أخرىٰ وتقعد من ليس من أتباعه في مكانه وتمنعه من التفكير بإثارة الاضطراب أوالقيام أيضاً.

ولإدارة هذه البلاد الواسعة: الشام والحجاز ومصر والعراق والولايات المرتبطة بها كايران ينبغي الاستفادة من رجال أكفاء ولذلك فأينما رأىٰ رجلاً لائقاً كان يعهد إليه بأمر، وإن كان من مخالفيه كان يسعىٰ لاستمالته وجعله من حاشيته.

لم يكن لديه أي قلق تجاه الشام، لأنه ومنذ اليوم الذي أسلم فيه هؤلاء القوم رأوا حكاماً مثله (أي حكام ما قبل العهد الإسلامي) وكانت معاملته لأهل هذه البلاد أفضل من معاملة الحكومات التي كانت قائمة فيها قبل الإسلام.. ولذلك لا عجب أن يقال أن عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس أرسل جمعاً من مشايخ

الشام إلىٰ السفّاح، في بداية عهد العباسيين، وكتب له أن هؤلاء من عقلاء وعلماء هذه البلاد وجميعهم يحلفون أن: «لم نكن نعلم أن لرسول الله ﷺ أرحاماً يرثون منه غير بني أمية حتىٰ وَلِيتُم أنتم».(١)

وكان راضياً عن الحجاز بشكل كامل أيضاً لأن المضريين يشكلون الأغلبية فيه وهم من مؤيديه ومسانديه، وأما بالنسبة لمصر والعراق والمنطقة الشرقية فكان عليه أن يختار أفراداً يطيعونه بشكل تام ويعملون علىٰ إجبار الناس علىٰ طاعته. وهؤلاء الحكام ينبغي أن يتصفوا بالشجاعة والبعد عن العاطفة والقوة ومعرفة الناس جيداً وهكذا ولّىٰ عمرو بن العاص علىٰ مصر والمغيرة بن شعبة علىٰ العراق.

عندما كان معاوية والياً علىٰ الشام من قبل عمر توجه عمرو إلىٰ مصر بطلب من معاوية وبدون اذن الخليفة، وكما ذكرنا فقد استولىٰ علىٰ تلك البلاد.

وعندما شب النزاع بين معاوية والإمام علي عليه السلام، وقف عمرو بجانب معاوية بشرط أن يعهد إليه بحكم مصر بعد الانتصار. وفي السنة الثالثة والثلاثين للهجرة عينه معاوية فعلياً في هذا المنصب.

ولقد أشرنا حينها جيداً إلىٰ مكر ودهاء وقدرة عمرو علىٰ استغلال الظروف والفرص جيداً. ويظهر بعد نظره جيداً عندما قدم النبي ﷺ مع المسلمين في السنة السابعة للهجرة إلىٰ مكة للعمرة بموجب صلح الحديبية، ورأىٰ عمرو بأم عينه وقار النبي واحترام المسلمين له، فأدرك أن عهد زعامة قريش والسيادة القبلية قد ولىٰ فتوجه برفقة خالد بن الوليد إلىٰ المدينة قبل فتح مكة، ودخل في الإسلام، ورأينا أيضاً كيف أن تدبيره وحيلته هي التي جعلت رجال معاوية يرفعون المصاحف علىٰ سيوفهم وحرابهم ويدعون جيش العراق لحكم القرآن، وكانت النتيجة أن دب

١- أبو الحسن محمد بن الهلالي الصابي، الهفوات النادرة، تصحيح الدكتور صالح الأشتر (دمشق: مجمع اللغة العربية ١٣٧٨ هـ ق)ص ٣٧٦.

الاختلاف في صفوف جيش العراق، وقد وصلت حنكته إلىٰ درجة كانت تقلق معاوية أحياناً، فكان يخشىٰ من أن يستعمل حنكته لمصلحته الخاصة، ولإيذاء معاوية أو الإطاحة به. وعلىٰ كل حال لم تدم فترة حكم عمرو علىٰ مصر كثيراً حيث مات في سنة ٤٣ للهجرة. وتولىٰ حكم مصر بعده عقبة بن أبي سفيان شقيق معاوية. ثم تناوب علىٰ حكمها في خلافة الأمويين ثلاثون شخصاً.(١)

وتابع عقبة بن نافع في عهد معاوية فتح مدن المغرب (٤٣-٦٢)، ومنحه معاوية ولاية أفريقية بشكل رسمي في سنة ٥٠ للهجرة، وقد بنىٰ عقبة في القيروان ثكنة لاستقرار جيشه، وراح يحارب قوات الروم المتواجدة في أفريقية من جهة، ويحارب البربر من جهة أخرىٰ، وهكذا نشر الإسلام في شمال أفريقية. وفي النهاية قتل علىٰ يد البربر في إحدىٰ المعارك. كان عقبة رجلاً شجاعاً ومؤمناً يبتغي من الجهاد وفتح المدن رضىٰ الله ونشر الدين. وهو الذي قاد فرسه داخل الماء عندما وصل إلىٰ ضفاف المحيط الأطلسي واستل سيفه، وقال: والله لو كنت أعلم أن في الجهة الأخرىٰ من الماء أناساً يعيشون هناك لحاربتهم لإعلاء كلمة التوحيد.

ولّىٰ معاوية عبدالله بن عمرو بن العاص على الكوفة في سنة ٤١ هـ وبعد مدة أرسل المغيرة بن شعبة بدلاً عنه، وقد كان المغيرة حاكماً علىٰ الكوفة في السنوات بين ٢٢ - ٢٤ من جانب عمر وعثمان، وهو واحد من أربعة أشخاص عرفوا بالفطنة والدهاء في صدر الإسلام، والبقية هم: معاوية ابن أبي سفيان، وعمرو بن العاص وزياد - وسنتكلم علىٰ نسب زياد وأبيه فيما بعد - .

ومن بين الولايات المهمة كان الوضع في البصرة يتصف بالاضطراب والفوضىٰ، وكان الخوارج قد أعادوا ترتيب بيتهم من الداخل واتخذوا من تلك

١- زامباور، معجم الأنساب، ترجمة زكي محمد حسن وآخرون، (القاهرة: مطبعة فؤاد الأول، ١٩٥١) ٢ج، ج١، ص٣٨.

المدينة مركزاً لهم. وقد اختار معاوية زياداً لحكم البصرة، ولكنه كان مخالفاً شديداً له في تلك الأيام. عاش زياد بعض الوقت في إمرة المغيرة بن شعبة عندما ولاه عمر علىٰ البصرة ويدين المغيرة له في الحادثة التي تعرض لها والتي أنجاه منها زياد.

وفي الحقيقة تعد هذه الحادثة وما ترتب عليها من نتائج من عجائب التاريخ في صدر الإسلام. وخلاصة الرواية هي أن: المغيرة اتهم بالزنا وشهد عليه ثلاثة شهود بصراحة تامة، فلما وصل الدور إلىٰ زياد قال له عمر: إني لأرىٰ رجلاً لن يخزي الله علىٰ لسانه رجلاً من أصحاب رسول الله (وطبقاً لرواية الأغاني "من المهاجرين "[1]) فشهد زياد بكلام آخر يختلف قليلاً، وكانت النتيجة أن نجا المغيرة من الموت المحتم في الرجم، وقام عمر بجلد الشهود الثلاثة الآخرين.[2]

اشتد ساعد زياد في عهد خلافة علي عليه السلام وولي علىٰ فارس من جانب الإمام.

وعندما تخلىٰ ابن عباس عن ولاية البصرة أرسله الإمام إليها (البصرة). ولقد تحدثت في مكان آخر عن ما جرى لزياد في البصرة والتعصب الأزدي والتميمي الذي اشتعل لأجله.[3]

وعندما تلقىٰ الإمام علي عليه السلام تلك الضربة في الكوفة كان زياد متواجداً في فارس. وبعد أن عقد معاوية مع الإمام الحسن معاهدة الصلح واعتبر نفسه خليفة المسلمين صعد زياد إلىٰ المنبر ووجّه الانتقاد واللوم لمعاوية، فخشي معاوية أن

١- أبو الفرج الاصفهاني، الأغاني، ج١٦، ص ٩٧ طبع دار الكتب، وتبدو الرواية الأولىٰ أكثر دقة، فحكمة عمر هي أكبر من أن يمنح المهاجرين امتيازاً علىٰ حساب الأنصار في ذلك الوقت.

٢- لقد وردت هذه الرواية في كتب كثيرة كـ تاريخ الطبري، وتاريخ ابن الاثير، وفتوح البلدان للبلاذري ووفيات الأعيان لابن خلكان، والأغاني لأبي الفرج الاصفهاني.

٣- پس از پنجاه سال (= بعد خمسين عاماً)، ط ٢، ص ٧٥.

يكون زياد قد مال إلىٰ آل النبي وقام بدعوة الناس لمبايعة أحدهم للخلافة، فاضطر إلىٰ استدعاء المغيرة بن شعبة إلىٰ بلاطه وتحدث معه في هذا الشأن فذهب المغيرة إلىٰ زياد وحدثه بلسان ولغة يفهمها الاثنان بأن الحكومة الإسلامية بالمعنىٰ الذي يفكر فيه قد زالت وتلاشت وبأن عهد الحكم العربي وزعامة قريش من جديد قد حلّ محلها، وأن من مصلحته أن يقف في صف معاوية. وفي النهاية أعلن زياد مساندته لمعاوية، ولكي يحافظ معاوية علىٰ وقوف زياد في جميع الحالات والظروف فقد أقدم علىٰ عمل لا سابق له في الإسلام.

تبني معاوية لزياد أخاً

كانت أم زياد أَمَة تُدعىٰ سُمية[1] يملكها الحارث بن كلدة، وطبقاً لعادات بعض القبائل الجاهلية كانت الأمة تعد مصدراً ومنبعاً للرزق والدخل. ثم قام الحارث بتزويجها لغلامه الرومي عبيد، ثم ولدت زياداً. وكان الناس يدعونه أحياناً بابن عبيد وأحياناً أخرىٰ بابن سمية، وكما نعلم فإنه وفقاً للفقه الإسلامي فإن الولد للأب الذي دخلت أمه في نكاحه[2]، وبعد أن استمال معاوية زياداً بمساعدة من المغيرة بن شعبة، ولكي يكسب قلبه قال له: أنت أخي وابن أبي سفيان، ثمّ أعدّ مجلساً وطلب شهوداً ليشهدوا أنّ أبا سفيان قارب سمية، وأن زياداً ابنه منها. أورد الطبري هذه القصة باختصار فقال: لمّا قَدم زياد الكوفة، قال: قد جئتكم في أمر ما طلبته إلا

١- سمية هذه هي امرأة وضيعة وبغية، وهي غير سمية أم الصحابي الجليل والكبير عمار بن ياسر والتي ماتت في بداية الدعوة الإسلامية في سنواتها الأولىٰ وذلك علىٰ أثر التعذيب الوحشي والهمجي الذي عذبها به أبو جهل، وهي المرأة الشهيدة الأولىٰ في الإسلام.

٢- الولدُ للفراش وللعاهر الحجر.

إليكم! فقالوا: ادعنا إلىٰ ما شئت، قال: تُلحقون نسبي بمعاوية. فقالوا: أما بشهادة زور فلا؛ فأتىٰ البصرة، فشهد له رجل».[١]

وقد أورد اليعقوبي وابن عبد ربه والمسعودي هذه الرواية بشكل أكثر تفصيلاً.

يقول اليعقوبي: عندما طلب معاوية من الشهود أن يشهدوا تقدم أبو مريم السلولي، فقال: كنت خماراً بالطائف، فمرّ بي أبو سفيان منصرفا من سفر له، فطعم وشرب، ثمّ قال: يا أبا مريم طالت الغربة، فهل من بغي، فقلت: ما أجد لك إلا أمة بني عجلان، قال: فأتني بها علىٰ ما كان من ... فأتيته بها، فوقع عليها، ثم رجع إليّ، فقال لي: يا أبا مريم ...(ذكر أوصافاً لسمية في تلك الحالة لا يليق ذكرها هنا وقد جعلت تلك الكلمات زياداً يضطرب)، فقال له زياد: إنما أتينا بك شاهداً ولم نأت بك شتاماً، قال: أقول الحقّ علىٰ ما كان، فأنفذ معاوية شهادته.[٢] وبذلك اعتبر زياد ابناً لأبي سفيان.

كم شخصاً انتقد ولو باللسان بدعة معاوية في ذلك المجلس؟

في متن الاسناد الأصلية لا نرىٰ سوىٰ اسم واحد أو اثنين من أقارب معاوية. ولم يكن اعتراضهم وانتقادهم نابعاً عن خوفهم علىٰ الدين بل من منطلق أن ذلك عار بالنسبة إليهم أن يصبح زياد من عداد أقاربهم. وكان من جملة المعترضين عبدالله بن عامر حاكم البصرة وهو من كبار الطائفة الأموية الذي قال: لقد هممت أن آتي بقسامة من قريش يحلفون أن أبا سفيان لم ير سمية.[٣]

كان سبب اعتراضه هذا هو أنه لم يرغب بأن ينضم إلىٰ قريش ابن راع من غير قريش، بل من غير العرب كي لا يلطخ شرفهم العائلي بالعار! ونجد في طيات الكتب

١- الطبري، نفس الكتاب، «حوادث سنة ٤٤».

٢- اليعقوبي نفس الكتاب ص ١٩٥، وكذلك ابن عبد ربه نفس الكتاب، ج ٥، ص ٢٤٨.

٣- الطبري(حوادث سنة ٤٤).

الأدبية بيتاً أو بيتين من الشعر في ذمّ هذه البدعة، والتي يهدف منها الشاعر إلىٰ السخرية والاستهزاء أكثر من إنكار إحدى المحرمات الشرعية.

لقد أوردنا وذكرنا هذه القصة وأمثالها من القصص ذات الظاهر غير المحبب في التاريخ الإسلامي لنبين كيف أن القوم الطامحين للجاه والمقام يستفيدون من كل فرصة ووسيلة للوصول إلىٰ هدفهم من جهة، ومن جهة أخرىٰ فإن القوم الذين ينشدون نفس الهدف ولكنهم غير قادرين علىٰ مجاراة الفئة الأولىٰ في تسخير الوسائل والسبل للوصول إلىٰ القدرة يلتفون حولهم ويمهدون الطريق أمامهم. ولم تمض ثلاثون سنة علىٰ وفاة النبي ﷺ ولم يُنس زهد وتقوىٰ الخليفة الشهيد حديثاً حتىٰ يقوم أحد مدعي خلافة النبي ﷺ بالاستهزاء بحكم الله وسنة رسول الله ﷺ.

كان عموم المسلمين يؤيدون أفعاله إما عن خوف أو عن طمع أو لا يحركون ساكناً، مع أنه كان في ذلك الزمان أكثر من خمسين صحابياً متواجدين في الشام!

زياد في الكوفة

أصبح زياد بعد هذا الشرف والافتخار الذي حصل عليه من معاوية مطيعاً لمعاوية وخادماً له.

تسلم في البداية ولاية البصرة، ثم الكوفة وأضاف إليها المنطقة الشرقية أيضاً. وكان زياد يعامل سكان تلك المنطقة بالشكل الذي يناسبهم.

قدم زياد إلىٰ البصرة في أواخر السنة الخامسة والأربعين للهجرة، وخطب في الناس خطبته المعروفة بالبتراء[1] قال فيها:

١- البتراء مؤنث أبتر، أي المقطوع والناقص، وفي الحديث الشريف «كل كلام لا يبدأ باسم

وإني لأقسم باللّه لآخذنّ الولي بالولي، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم، حتىٰ يَلقىٰ الرجل منكم أخاه، فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم، إنّ كذبة المنبر مشهودة، فإذا تعلقتم علي بكذبة، قلت: حلّت لكم معصيتي، من يبيت منكم فأنا ضامن لما ذهب له، إياي ودلج الليل، فإني لا أوتىٰ بمدلج إلا سفكت دمه، وقد أجّلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة، ويرجع إليكم، ... فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم لساني ويدي وأذاي.[1]

ويتضح لنا من ردود واحد أواثنين من الذين نهضوا وراحوا يثنون علىٰ كلامه بأن زياداً كان يعرف هؤلاء القوم جيداً، فمن يتعالىٰ عليهم يتواضعون أمامه، ومن يتواضع أمامهم يتعالون عليه.

وبعد سماع هذه الخطبة عرف كل منهم واجبه وتكليفه، فقد رأوا أن الحاكم الواصل إليهم حديثاً يتحدث بلغة يعرفونها ويفهمونها جيداً، وهكذا بدأ الاعتقال والسجن والقتل والحبس. كان زياد يؤخر العشاء الآخرة، ثمّ يُصلي فيأمر رجلاً أن يقرأ سورة البقرة، أو مثلها، فإذا فرغ أهمل بقدر ما يرىٰ أن إنساناً يبلغ أقصىٰ البصرة، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج، فيخرج فلا يرىٰ إنساناً إلا قتله، فأخذ ذات ليلة أعرابياً فأتىٰ به زياداً، فقال: هل سمعت النداء، فقال: لا واللّه: قَدِمت بحلوبة لي، وغشيني الليل، فاضطررتها إلىٰ موضع، وأقمت لأصبح، ولا علم لي بما كان من الأمير، فقال أظنك واللّه صادقاً، ولكن في قتلك صلاح هذه الأمة، ثمّ أمر

الله فهو أبتر»، وسميت خطبته بذلك لأنه شرع بخطبته دون ذكر اسم الله ومدح رسول الله، وقيل أن البتراء تعني الكامل والبليغ، ومن المحتمل أن يكون متملقو الدولة الأموية هم الذين ذكروا وجه التسمية هذا.

١- ابن الأثير، نفس الكتاب، ج٣، ص٤٤٨.

به، فضربت عنقه.[١]

ولأن زياداً قال سابقاً بأنه سيعاقب البريء علىٰ جرم المذنب راح كل فرد يراقب الآخر خوفاً علىٰ حياته.

وقد أدت هذه السياسة الحديدية المتناسبة مع طبيعة هؤلاء القوم إلىٰ بسط الهدوء في البصرة والكوفة وأطرافهما، وطرق الارتباط بين هذه المدن إلىٰ درجة أنه لم يكن أحد منهم يملك جرأة وشجاعة التقاط شيء سقط من أحد المارة أو المارين من الأرض إلىٰ أن يهديه الله إلىٰ أمواله. وقد عاش الناس في تلك الفترة بأمن وطمأنينة كبيرة إلىٰ درجة أنهم لم يكونوا يقفلون أبواب منازلهم.[٢]

وفي سنة ٥٠ للهجرة وبعد أن توفي المغيرة بن شعبة حاكم الكوفة عهد معاوية إلىٰ زياد بحكم هذه المدينة أيضاً فراح زياد يمضي عامه مناصفة بين المدينتين. ولم تكن الفجائع التي ارتكبها زياد في هذه المدينة أقل من تلك التي ارتكبها في البصرة.

قام زياد بتجهيز جيشين في المشرق تقدم بأحدهما من خراسان إلىٰ لاهور، ومضىٰ الثاني حتىٰ ما وراء النهر وهي المرة الأولىٰ التي يشتبك فيها الجيش الإسلامي مع الأتراك.[٣]

١- الطبري، نفس الكتاب ج٧، ص٧٧؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص٥٣١.

٢- الطبري، (حوادث سنة ٤٥)، ج٧، صص ٧٦-٧٧.

٣- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، (القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٦٧، ج١، ص٢٨٠.

يزيد وولاية العهد

أدخل معاوية في بداية العقد الثاني من حكمه بدعة أخرىٰ إلىٰ الإسلام والتي دامت بعده لمدة ١٣ قرناً في كافة أرجاء البلاد الإسلامية، وكما رأينا سابقاً فقد تجمع عدة من المسلمين المهاجرين والأنصار بعد وفاة النبي ﷺ في سقيفة بني ساعدة وبعد الجدال والتفاخر اختاروا أبا بكر بن أبي قحافة خليفة علىٰ المسلمين.

عندما توفي أبو بكر انبرىٰ عمر لهذا المنصب بوصية من أبي بكر، ولكن وكما ذكر فإنه قد وصل إلى الخلافة بموافقة من أولئك القوم (زعماء المهاجرين والأنصار). بينما اختارت الشورىٰ المكونة من ستة أشخاص عثمان للخلافة. وأما علي عليه السلام فقد انتخبه جميع المسلمين الحاضرين في المدينة، وبعبارة أخرىٰ فإن أياً من هؤلاء الخلفاء لم يرث هذا المنصب من الخليفة الذي سبقه.

ومذهب التشيع الذي « يعتبر أتباعه علياً خليفة بحق وبلا منازع لا يرىٰ بأن علياً قد وصل إلىٰ الخلافة عن طريق صلة الرحم التي تربطه بالرسول، بل يعتبرونه الإمام لعلمه وفضله وتقواه، وكذلك لعصمته، ولخطبة النبي في حجة الوداع أيضاً. ولكن معاوية ضرب بطريقة انتخاب الخلفية عرض الحائط وقام بإحياء السنة القبلية في هذا المجال من جديد، ولمّا أدرك معاوية دنو أجله، أراد أن يُبقي الخلافة في عقبه. ولكنْ مع معرفته بالناس لم يكن يظن أن الأمر سيكون علىٰ درجة من السهولة، فبعيداً عن أن الخلافة لم تكن تنتقل بشكل وراثي منذ عصر النبي وحتىٰ مدة نصف قرن فإن الرجال الذين انبروا لهذا المنصب كانوا من ذوي الخبرة والتجربة وقد اشتهروا بالتقوىٰ والزهد.

في تلك الأيام لم يكن عمر يزيد قد تجاوز الثلاثين بعد.

عندما يذكر أن معاوية كان في بعض الأحيان يمدح شباب قريش، وخصوصاً شباب بني هاشم، وكان يقول أن علياً بن الحسين أكثر الناس لياقة لهذا المنصب فإنه

كان يبغي من هذا الكلام الذي يبدو مدحاً لفرد مخالف له من الناحية الظاهرية أن ليضع فكرة تولي المعمرين للخلافة من الأذهان جانباً، ويلقي في أذهان الناس أن الشباب أيضاً بإمكانهم الوصول إلىٰ منصب الخلافة ليتلقىٰ الناس ذلك كأمر عادي عندما يَهم ليحول مراده إلىٰ أمر واقعي وعملي وينصب ابنه يزيد ولياً للعهد.

وَبينما كان يعمل علىٰ تمهيد وإعداد مقدمات ذلك بتدبير وتريث فإن أطرافه والمحيطين به سهلوا عليه الأمر، يذكر ابن الأثير:

وكان ابتداء ذلك وأوله من المغيرة بن شعبة، فإن معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة، ويستعمل عوضه سعيد بن العاص، فبلغه ذلك، فقال: الرأي أن أشخص إلىٰ معاوية، فأستعفيه ليظهر للناس كراهتي للولاية، فسار إلى معاوية، وقال لأصحابه حين وصل إليه: إن لم أكسبكم الآن ولاية وإمارة لا أفعل ذلك أبداً، ومضىٰ حتىٰ دخل على يزيد، وقال له: إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبي وآله وكبراء قريش، وذوو أسنانهم، وإنما بقي أبناؤهم، وأنت من أفضلهم، وأحسنهم رأياً، وأعلمهم بالسنة والسياسة، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة؟ قال: أو ترىٰ ذلك يتم؟ قال: نعم! فدخل يزيد علىٰ أبيه، وأخبره بما قال المغيرة، فأحضر المغيرة، وقال له: ما يقول يزيد؟ فقال: يا أمير المؤمنين! قد رأيت ما كان من سفك الدماء، والاختلاف بعد عثمان، وفي يزيد منك خلف، فاعقد له، فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس، وخلفاً منك، ولا تسفك دماء، ولا تكون فتنة، قال: ومن لي بهذا؟ قال: أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك، قال: فارجع إلىٰ عملك، وتحدث مع من تثق إليه في ذلك، وترىٰ ونرىٰ، فودّعه، ورجع إلىٰ أصحابه، فقالوا: مه؟ قال: لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية على أمة محمد، وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً. وسار المغيرة حتىٰ قَدِم الكوفة، وذاكر من يثق إليه، ومن يعلم أنه شيعة لبني أمية أمر يزيد، فأجابوا إلى بيعته، فأوفد منهم عشرة، ويقال أكثر من عشرة وأعطاهم ثلاثين ألف درهم،

وجعل عليهم ابنه موسىٰ بن المغيرة، وقدموا علىٰ معاوية، فزينوا له بيعة يزيد، ودعوه إلىٰ عقدها، فقال معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا، وكونوا علىٰ رأيكم، ثمّ قال لموسىٰ: بكم اشترىٰ أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألفاً! قال: لقد هان عليهم دينهم.(١)

وفي النهاية وبعد التمهيد وإعداد المقدمات اللازمة وصل معاوية إلىٰ مراده، ثمّ إنّ معاوية قال للضحاك بن قيس الفهري لما اجتمع الوفود عنده إني متكلم، فإذا سكتُّ، فكن أنت الذي تدعو إلىٰ بيعة يزيد، وتحثني عليها، فلمّا جلس معاوية للناس، تكلم فعظّم أمر الإسلام وحرمة الخلافة، وحقها، وما أمر اللّه به من طاعة ولاة الأمر، ثم ذكر يزيد، وفضله، وعلمه بالسياسة، وعرّض ببيعته، فعارضه الضحاك، فحمد اللّه وأثنىٰ عليه، ثمّ قال: يا أمير المؤمنين! إنه لا بدّ للناس من وال بعدك، وقد بلونا الجماعة والألفة، فوجدناهما أحقن للدماء، وأصلح للدهماء، وآمن للسبل، وخيراً في العاقبة والأيام، عوج رواجع، واللّه كل يوم هو في شأن، ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن هديه، وقصد سيرته على ما علمت، وهو من أفضلنا علماً وحلماً وأبعدنا رأياً فولّه عهدك، واجعله لنا علماً بعدك، ومفزعاً نلجأ إليه، ونسكن في ظله. ثم قام يزيد بن المقنع العذري فقال: هذا أمير المؤمنين (وأشار إلىٰ معاوية) فإن هلك، فهذا (وأشار إلىٰ يزيد) ومن أبىٰ فهذا (وأشار إلىٰ سيفه) فقال معاوية: اجلس، فأنت سيد الخطباء. وتكلم عمرو بن سعيد الأشدق بنحو من ذلك، وقال: إن يزيد هو الشخص الذي تبغونه، وتهدفون إليه، وعدالته هي العدالة التي تنشدونها.

وبعد هذا الحديث قام المنافقون وعَبَدَة الدنيا بتسخين الموقف وإيصاله إلىٰ ذروة الجدية والواقعية، فراحوا يمتدحون يزيداً بأمور وصفات يفتقدها ويزيلون عنه صفاته الحقيقة.

١- ابن الأثير، نفس الكتاب، ج٣، ص٥٠٣.

وكذلك فعل الأمويون وأنصارهم في مكة والمدينة حيث عملوا جهدهم علىٰ لجم أفواه الناس.

وعندما طلب مروان من أهل المدينة مبايعة يزيد علىٰ ولاية العهد قال: لقد احتذىٰ معاوية في هذا الأمر حذو أبي بكر، فلم يحرك أحد من الحاضرين في المسجد ساكناً إلا عبدالرحمن بن أبي بكر الذي نادىٰ من زواية المسجد، وقال: لقد كذبت إن أبا بكر لم يلتفت إلىٰ أبنائه وأقاربه، بل اختار رجلاً من بني عدي خليفة علىٰ المسلمين، فتلا مروان الآية السابعة عشرة من سورة الأحقاف[1] وقال: لقد نزلت هذه الآية في عبدالرحمن الذى عق أمه وأباه.

وهكذا ظهرت بدعة جديدة في الإسلام بالقوة والإصرار والإغراء.

تشدد معاوية في معاملة شيعة علي عليه السلام

كان معاوية يعلم جيداً أن تقوىٰ وزهد وعدالة علي لن تُمحىٰ من أذهان أهل العراق، وكان يعلم أيضاً أن الولاية الوحيدة التي يمكنها أن تقف في وجهه رافعة شعار حب علي والولاء لآل البيت هي العراق، وأصبح العراق شيئاً فشيئاً مركزاً للأنصار أي للقحطانيين.

هؤلاء الأنصار هم الذين قتلوا أكثر من سبعين رجلاً من أقارب معاوية في بدر، والعراق هو الذي سبب له أشد الخسارات والألم في معركة صفين. والعراق الذي كان ينازع دمشق من أجل القبض علىٰ زمام الأمور السياسية والاقتصادية، والاستيلاء علىٰ الطريق التجاري المؤدي من المحيط الهندي إلىٰ البحر المتوسط.

ولكي يؤدبهم ويروضهم كتب إلىٰ عماله، من جهة أن لا يتوقفوا عن مضايقة

١- ﴿والذي قال لوالديه أفٍّ لكما..﴾

شيعة علي وإيذائهم، ومن جهة أخرىٰ طلب من الخطباء أن يذموا علياً ويذكروه بالسوء علىٰ المنابر. عندما أراد أن يرسل المغيرة بن شعبة إلىٰ ولاية الكوفة قال له:

«ولست تاركاً إيصاءك بخصلة: لا تترك شتم علي، وذمه، والترحم علىٰ عثمان، والاستغفار له، والعيب لأصحاب علي، والإقصاء لهم، والإطراء بشيعة عثمان، والإدناء لهم».(١)

وبعد ذلك أصبح الخطباء يوجهون السباب والشتائم لعليعليه السلام بعد كل صلاة وخطبة. وسعىٰ الرواة الذين باعوا دينهم بدنياهم لكسب رضاه من خلال ذم الإمامعليه السلام وذكر فضائل الأمويين في أحاديث مصطنعة.

وعندما كان كبار أهل العراق يذهبون إليه بعد شهادة الإمام عليعليه السلام كان يشرع في تحقيرهم ويبين لهم بنظرة قومية دونيتهم وانحطاطهم العرقي وتخلفهم المعيشي والحياتي وكان العراقيون في بعض الأحيان يردون عليه بشكل مناسب.

كان أبشع عمل ارتكبه معاوية بحق شيعة عليعليه السلام هو إقدامه علىٰ قتل حجر بن عدي ذاك الرجل المؤمن الزاهد التقي الذي كان يقف معارضاً كلما سمع الخطيب يسب عليه أو يذكره بسوء، فشكىٰ زياد أمره إلىٰ معاوية الذي أمر بإحضار حجر إلىٰ الشام، فأرسله زياد إليه برفقه عدة أشخاص مكبلين بالقيود والسلاسل، وفي وسط الطريق أقدموا علىٰ قتل حجر وكل من امتنع عن سب الإمامعليه السلام وشتمه.

الخوف والفزع

كانت العادة المتبعة منذ بداية تأسيس الحكومة الإسلامية في المدينة، وحتى

١- ابن الأثير، ذات الكتاب، ج٣، ص٤٧٢.

نهاية خلافة علي عليه السلام هي أن يقوم حكام المسلمين باستشارة المهاجرين والأنصار في الحوادث السياسية والاجتماعية الطارئة والاستماع إلىٰ آرائهم، وكان هؤلاء يبدون رأيهم بحرية تامة. وقد رأينا في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم كيف أن رسول الله كان يأخذ بكلام أنصاره وآرائهم في الأمور التي ليس الحديث فيها عن حكم شرعي.

كان الخلفاء يراعون ذلك أيضاً فلو طرأت مسألة ما لا يوجد لها حكم في القرآن والسنة، فإن الخليفة كان يسأل صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما الذي علينا فعله؟

ويجب أن يكون قرار الخليفة وتصميمه غير مخالف لحكم القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم صراحة. ولو اجتهد الخليفة من نفسه خلافاً لكتاب الله وسنة الرسول كانوا يحققون معه ويطلبون منه التوضيح المناسب.

كان عمر يقول: إذا أخطأت فقوموني، وفي إحدىٰ المرّات قام إليه أحد الجالسين وقال له: نقومك بالسيف حتىٰ نردك إلىٰ الحق.

في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان كان أقرباؤه يسعون لإيجاد تفرقة بين الخليفة والناس وزيادة المسافة بينهما، ولكنه كان يسعىٰ بحسب استطاعته لتقريب نفسه من الناس إلىٰ درجة أنه طلب منهم في مناسبات مختلفة أن يطلعوه علىٰ اعتراضاتهم إن كان لديهم اعتراض، وحتىٰ أنه حضر بنفسه إلىٰ المسجد ووعد المنتقدين له بالسعي لإصلاح الأمور، ولكن المحيطين به لم يفسحوا المجال أمامه للقيام بإصلاحاته.

ومنذ استلام معاوية لزمام الأمور فقد انغلق باب الانتقاد أمام المنتقدين شيئاً فشيئاً. وكل من كان يعترض من الرعية علىٰ قوله أو فعله أو رجاله كان يتعرض للتحقيق معه والتهديد والمضايقة والقتل كما قتل حجر بن عدي وأصحابه الذين امتنعوا عن شتم علي عليه السلام وذمه.

وبعد ذلك عرفت الرعية تكليفها وواجبها، فسعت جاهدة في كلامها لإرضاء الخليفة وليس الله، ومن لديه قليل من الحرص علىٰ الدين منهم فقد كان يلجأ إلىٰ

السكوت وعدم النطق بأي حرف أمام ما يراه من أعمال الحكام ويسمعه من كلامهم.

عندما أراد معاوية معرفة آراء الناس بمنح ولاية العهد إلىٰ يزيد كان الأحنف بن قيس في المجلس ساكتاً لا يتكلم، فقال له معاوية:

ما تقول يا أبا بحر؟ فقال: نخافكم إن صدقنا، ونخاف اللّه إن كذبنا.(١)

وكلما قل عدد المهاجرين والأنصار والمسلمين ذوي الاعتقاد القوي كانت علائم ومظاهر ضعف المراقبة في إجراء الأحكام (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) تظهر بشكل أكثر وضوحاً، فالجيل الذي تسلم زمام الأمور بعد سنة أربعين للهجرة لم يكن مطلعاً علىٰ إسلام عهد النبي الأكرمﷺ، ولم يكن قد رأىٰ تشدد ومراقبة الحكام بعده، فقد تربىٰ هذا الجيل وترعرع في عهد الفوضىٰ والاضطراب، ووصل إلىٰ الحكم في عهد الفتوحات والحروب وكان يبدو طبيعياً جداً أن لا يعرف هذا الجيل شيئاً عن الإسلام والعدالة وهي ركن هذا الدين، ولكن هذه التحولات قد أثرت كثيراً في نفوس البعض ممن عايشوا عهد بساطة الإسلام، والذين حزنوا وتأسفوا علىٰ ذلك، ولكنهم لم يكونوا قادرين علىٰ فعل شيء.

في عصر معاوية بدأ تزوير الأحاديث وتحويرها في فضل هذا وذم ذاك، ونسبة هذه الأحاديث إلىٰ النبيﷺ، ولأن الأحاديث لم تكن تدون في ذلك الزمان، بل كانت تنقل من لسان هذا الرواي إلىٰ ذهن الآخر، كان كلٌ يضيف عليها أو ينقص منها كما يحلو له. ونرىٰ في كتب الحديث باب وكتاب باسم الفضائل يضم مدح أشخاص أو قبائل أوعشائر أو مدن، ونرىٰ في الكتب التاريخية أيضاً رواية تدل علىٰ حضور واشتراك عشائر خاصة في أكثر الفتوحات الإسلامية. فينبغي أن ننظر

١- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، تصحيح محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: مكتبة النهضة، ١٣٦٧ هـ ق) ج٦.

إلىٰ هذه الروايات بعين التردد والشك وعلينا أن نعمل علىٰ إنكار وتكذيب الروايات المحرفة منها، ولكن للأسف الشديد فقد غدت هذه الأحاديث أساس التاريخ الإسلامي للقرن الأول والثاني.

وكم هي صعبة جداً مهمة التأريخ هذه التي تتطلب استخراج الروايات الصحيحة أو القريبة من الصحة من بين هذا الكم من الروايات.

فتوحات معاوية

تحدثنا باختصار عن الفتوحات التي قام بها عقبة بن نافع في أفريقية، وعن توغل الجيش الإسلامي في الناحية الشرقية من ايران.

قام معاوية مقلداً الأباطرة الروم بتجهيز جيش منظم ومحترف، وقد اختير أفراد هذا الجيش من اليمانيين والقيسيين سوية. وقام معاوية في البداية بتقريب اليمانيين منه ودفع مقررات ومبالغ لهم أكبر من تلك التي كان يدفعها للقيسيين، ولكنه عندما رأى أن اليمانيين راحوا يتفاخرون بذلك علىٰ المضريين غضب وتأسف لذلك ودمج الطائفتين، وخصهما بمعاملة واحدة.[1]

أرسل اليمانيين للمعارك البحرية والقيسيين للحروب الصحراوية. وعلاوة علىٰ أمر الفتوحات كان يكلف هؤلاء الجنود بإخماد نار الفتن والثورات التي تنشب في البلدان المفتوحة.

لقد جهز معاوية منذ بداية عهده في الشام قوة بحرية ضخمة تمارس نشاطاتها في جزر البحر الأبيض المتوسط، كما أنه استطاع أن يفتح جزيرة قبرص في سنة

١- جرجي زيدان، تاريخ الحضارة الإسلامية، القاهرة: مطبعة الهلال، ١٩٠٢هـ ق، ج١، ص١٢٦.

٢٨هـ[١]

وفي عهد خلافته قام معاوية بن خديج بفتح جزيرة سيسيل، وجنادة بن أبي أمية بفتح جزيرة رودس في سنة ٥٣ هـ[٢]، وفي سنة ٥٤ للهجرة هاجمت قواته مدينة القسطنطينية (استانبول) من البر والبحر، ولكنه لم يتمكن من السيطرة عليها، فقد كانت تلك المدينة مجهزة ببرجين عملاقين، ومحمية جيداً بواسطة رماة الروم، واضطر إلىٰ التراجع بعد ثلاث سنوات من الحصار المستمر وتحمل الخسائر المضنية.

موت معاوية.

مات معاوية في ربيع سنة ٦٠ للهجرة عن عمر ناهز الثمانين عاماً، ودفن في دمشق في مكان بين باب الجابية والباب الصغير[٣]

كان معاوية رجلاً داهية وذا نظر بعيد ورؤية مستقبلية للأمور، وصاحب خبرة كبيرة في شؤون الناس، وكان يحاول بكل استطاعته شراء عدوه بالمال والتملق والمداهنة، وعندما كانوا ينتقدون عطاءه المغدق كان يقول إن ذلك ليس بشيء ولا قيمة له أمام النفقات الحربية الهائلة، وكأنه أراد أن يقول أنه يمكننا بهذا المال تجنب نشوب الحرب والقتال. وقيل عن ذكائه ودهائه أنه لو أغلق عليه سبعة أبواب لتمكن من إيجاد سبيل للفرار.

١- البلاذري، نفس الكتاب، ص ١٨١.

٢- المصدر السابق، ص ٢٧٨.

٣- السيوطي، تاريخ الخلفاء، تصحيح محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة: مطبعة السعادة ١٣٧١ هـ ق)، ص ١٩٨.

خلافة يزيد

عندما مات معاوية[١] كان يزيد في حوارين[٢]، فأخبره الضحاك رئيس شرطة الشام بموت أبيه فتوجه يزيد إلىٰ دمشق، وذهب إلىٰ المسجد، وصعد المنبر فمدح معاوية، وأشاد به، من خلال حديث قصير، وطلب له العفو والمغفرة من الله.

كان أهم عمل يجب علىٰ يزيد القيام به بعد تصديه للخلافة هو فراغ باله من جانب المخالفين الذين رفضوا مبايعته، والذين يتمتعون بمحبة الناس واحترامهم. وكان من بينهم ثلاثة أشخاص من كبار بطون قريش وهم: الحسين بن علي عليه السلام، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير.

لم يكن عبدالله بن عمر رجلاً حركياً أو ثورياً، بينما كان ابن الزبير رجلاً شجاعاً وذا تدبير وتفكير بالخلافة بشكل جدي، ولكنه لم يكن قادراً علىٰ تجميع عدد كبير من المؤيدين لا من الناحية الطائفية ولا من ناحية أسلوبه الاجتماعي.

كان الحسين بن علي عليه السلام الذي يعيش في المدينة هو الشخص الوحيد الذي يخشاه يزيد. فالحسين بن علي عليه السلام هو ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وابن علي بن أبي طالب عليه السلام زعيم الهاشميين والمتحلي بالعلم والتقوىٰ والذي يكن له الجميع المحبة والاحترام.

كان يزيد يعلم أن أهل العراق لن يتركوا هذه الشخصية الفريدة وشأنها، بل سيلتفون حولها عاجلاً أم آجلاً، ولذلك أرسل إلىٰ الوليد بن عتبة عامله في المدينة

١- ذكروا أن معاوية لمّا كان علىٰ فراش الموت دعا إليه يزيداً، وتحدث معه حول أهل الشام والعراق، وحذّره من كبار أبناء الصحابة الذين لم يقبلوا بيعته وكانوا ثلاثة. ولكن هذا الشيء ليس له أساس صحيح لأن ناقل القصة هو عبدالرحمن بن أبي بكر، وعبدالرحمن لم يكن علىٰ قيد الحياة في ذلك الوقت. راجع: ابن الأثير، نفس الكتاب، ج ٤، ص ٦.

٢- حوارين قلعة في حمص.

يطلب منه أن لا يدع حسيناً حتىٰ يأخذ بيعته وإن رفض فليرسل رأسه إلىٰ دمشق فاستشار والي المدينة معاونه مروان بن الحكم وسأله كيف يصنع؟ قال: أرىٰ أن تدعوهم الساعة، وتأمرهم بالبيعة، فإن فعلوا قبلت منهم، وكففت عنهم، وإن أبوا ضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فإنهم إن علموا بموته وثب كل رجل منهم بناحية، وأظهر الخلاف ودعا إلىٰ نفسه، أما ابن عمر فلا يرىٰ القتال، ولا يحب أن يلي علىٰ الناس إلا أن يدفع إليه هذا الأمر عفواً. فأرسل الوليد إلىٰ الحسين وابن الزبير يدعوهما. أمّا ابن الزبير فتوارىٰ عن الأنظار وفي الليل ولىٰ هارباً إلىٰ مكة من غير طريقها الأصلي.

الإمام الحسين عليه السلام ومطالبته بالبيعة

توجه الحسين عليه السلام إلىٰ والي المدينة وسأله أولاً عن أحوال معاوية، فأجابه الوالي: لقد مات معاوية. وعندما سمع بطلب البيعة قال الحسين عليه السلام:

أما البيعة فإن مثلي لا يبايع سراً ولا يجتزأ بها مني سراً، فإذا خرجت إلىٰ الناس، ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً، فقال له الوليد: انصرف، فقال له مروان: لئن فارقك الساعة، ولم يبايع، لا قدرت منه علىٰ مثلها أبداً حتىٰ تكثر القتلىٰ بينكم وبينه، احبسه، فإن بايع، وإلا ضربت عنقه، فوثب عند ذلك الحسين، وقال: أأنت تقتلني أم هو كذبت والله ولؤمت. ثمّ قال للوليد: يزيد رجل شارب للخمر وفاسق وليس أهلاً ليكون خليفة للمسلمين. ثمّ خرج حتىٰ أتىٰ منزله. وبعد أن خرج وبخ مروان الوليد علىٰ تركه للحسين، فقال الوليد: وبخ غيرك يا مروان، والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وأني قتلت حسيناً أن قال لا أبايع، والله إني لأظن أن امرأً يحاسب بدم الحسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة، فقال مروان: قد أصبت. (يقول له هذا، وهو غير حامد له علىٰ رأيه).

وبعد أن خرج الحسين من المجلس أعدّ نفسه للسفر إلىٰ مكة ولكنه لم يتوجه إليها خفية كابن الزبير، بل توجه أمام أنظار كل الناس من الطريق الرئيسي المؤدي إليها. وبوصول الحسين عليه السلام وابن الزبير إلىٰ مكة أصبحت هذه المدينة مركزاً لمعارضة يزيد.

لقد فتح استيلاء يزيد علىٰ زمام الأمور فصلاً جديداً في تاريخ الإسلام السياسي. كان يزيد شاباً يفتقد إلىٰ التربية الدينية، وليس هذا وحسب، بل كان عديم التربية أيضاً. ويروىٰ أن معاوية دخل علىٰ أم يزيد وهي ميسون التي تنتسب إلىٰ قبيلة كلب وسمعها تتذمر من حياة المدينة وتقول:

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إليّ من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني ... أحب إليّ من لبس الشفوف
وخرق من بني عمي نحيف ... أحبّ إليّ من علج عنوف

فتكدر معاوية من سماع كلامها، وأرسلها وابنها إلىٰ قبيلتها في البادية. وهكذا تربىٰ يزيد في البادية وكان كل ما اكتسبه من هذه التربية هو وقاحة اللسان وقرض الشعر والصيد.

وبعد أن خَلِفَ والده في الحكم التفّ حوله مستشارون لم يكونوا أفضل منه من حيث التدين والتقوىٰ وسياسة الناس.

لم يكن يزيد يراعي ظواهر الإسلام، ولم يكن يتوان عن شرب الخمر، ولعب القمار أمام أعين الناس.

كان بعض المسلمين الأتقياء ممن عايشوا فترة خلافة علي والخلفاء من قبله وشهدوا بأم أعينهم البدع التي قام معاوية بنشرها في عهده يرون أن يزيداً يتابع مسيرة أبيه معاوية، وحتىٰ أنه كان أكثر تمادياً منه في الاستخفاف بالدين فكانوا غير قادرين علىٰ تحمل حكمه عليهم. ولكن كم كان عددهم وأين كانوا يعيشون؟ إن الاجابة عن هذا التساؤل تحتاج إلىٰ دراسة وتحليل للوضع الاجتماعي لكل ولايات

الدولة الإسلامية الكبرىٰ من جديد.

وضع ولايات شبه الجزيرة العربية

كما ذُكِرَ فإنه ومنذ زمن بعيد كانت الشام تخضع لحكم معاوية ومن بعده لحكم يزيد. ولم يكن هناك أي قلق تجاه الحجاز، فمع أنه كان يعيش فيه عدد من المتدينين من معارضي الحكم الجديد، ولكن مخالفتهم لم تكن تتعدىٰ الكلام. كان بعض الأمويين يفكرون بالخلافة، ولكنهم رجحوا الوقوف إلىٰ جانب يزيد لأنهم كانوا يعلمون أنه مع وجود الحسين بن علي عليه السلام وابن الزبير لن تسنح لهم الفرصة أبداً. وإن لم يودوا زجّ أنفسهم في هذا النزاع كانوا يرون أنه من الأفضل أن يبقوا متفرجين ومراقبين للأمور.

يمكن القول أن الوضع في الحجاز كان علىٰ هذا الشكل منذ بداية خلافة عثمان. ولم تكن لقريش صلة جيدة ببني هاشم ولم يكونوا ليقبلوا بسيادتهم عليهم. وتشير الأبيات التي نقلت عن الوليد بن عقبة إلىٰ هذه الخصومة بوضوح، وهناك مؤشر آخر علىٰ ذلك وهو أنه عندما همّ الإمام علي عليه السلام بالخروج من الحجاز متوجهاً نحو العراق قطع عبدالله بن سلام عليه الطريق وقال له: لا تخرج من المدينة لأنك لو خرجت فلن تعود إليها أبداً، وعندما وصل علي عليه السلام إلىٰ الربذة للانطلاق منها إلىٰ العراق لم يرافقه إلا جماعة قوامها ٣٠٠ شخص[1]، وكان أكثر هؤلاء من الذين قدموا إلىٰ المدينة من الخارج ليخلعوا عثمان من الخلافة.

١- الطبري، نفس الكتاب، ج٦، ص٣١٠٧؛ وانظر: بعد خميس عاماً [نهضة الحسين] ط٢، ص٩٨.

العراق

كان العراق هو الولاية الوحيدة التي تقلق الشام، وقد تحدثنا في الفصول الماضية عن مكانة العراق ووضعه السياسي والاجتماعي بقدر ما سمح به المجال.

وقف العراق بوجه الشام منذ سنة ٣٦ هـ وبعد أن اضطر إلىٰ التسليم لم ينس أبداً كرهه وحقده تجاه هذه الولاية وحاكمها.

اتخذ معاوية من الاحتيال والمخادعة طريقة للتعامل مع أهل هذه البلاد طوال عشرين سنة من حكمه. وقد كان يعمل علىٰ إخضاع وإسكات زعماء العراق من خلال القتل تارة، والحيلة والخداع والشتيمة تارة أخرىٰ، والبذل والعطاء والاستعطاف أحياناً.

وقد أدت سياسة زياد الجديدة في الكوفة والبصرة إلىٰ إرهاب عامة الناس، ونتيجة لذلك بقي العراق طوال عشرين عاماً يعيش حالة من السكون والجمود، وعندما وصل خبر موت معاوية إلىٰ العراق أدرك الانتهازيون أن الفرصة التي كانوا ينتظرونها قد سنحت وعليهم السعي من جديد لنقل مركز القدرة من دمشق إلىٰ الكوفة. ومن جهة أخرىٰ فإن الذي كان حريصاً علىٰ الدين منهم وجد أن الفرصة مناسبة للقضاء علىٰ البدع التي انتشرت خلال هذه السنين الطوال.

ويمكن القول أنه حين مات معاوية كانت الأفكار العامة في العراق معادية لآل أبي سفيان من كل جهة. وكانت الأكثرية الساحقة تقول بلسان واحد: يزيد لا يملك لياقة خلافة المسلمين.

ولكن هل كانوا جميعاً حريصين علىٰ الدين وكانوا يرفضون يزيداً لأنه غير تقي؟

لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال بشكل قطعي، ومن المسلم أنه كان هناك بعض أصحاب رسول الله وبعض أبناء المهاجرين والأنصار يعيشون في تلك البلاد وكانوا مطلعين علىٰ فقه الإسلام وسنة النبي ﷺ ومتمسكين بها وكانوا يتأسفون

لأنهم كانوا يرون الحكومات لا تراعي حتىٰ ظاهر الإسلام؟ ولكن ماذا عن الآخرين؟

أولئك أيضاً كانوا يعارضون يزيداً، ولكن ليس لأنه لم يكن يراعي ظاهر الإسلام، بل كانوا يعارضون يزيداً لأنهم كانوا يعارضون أباه، وكانوا يعارضون أباه لأنهم كانوا يرفضون سيادة المضريين علىٰ اليمانيين، ولو تعمقنا أكثر قليلاً وأبعدنا طبقات الغبار المتراكمة علىٰ التاريخ واحدة واحدة، وقمنا بفصل وجه العداء اللخمي والغساني عن هذا الغبار سنصل إلىٰ نتيجة مفادها هي أنهم كانوا يعارضون معاوية ويزيداً لأنهم غير قادرين علىٰ تحمل سيادة الشام وخضوع العراق. والآن وبعد أن مات معاوية يجب أن تمرغ أنوف أهل الشام بالتراب، وأن يرجع مركز الحكم الذي انتقل منذ عشرين عاماً إلىٰ الشام إلىٰ مأمنه الأصلي هذه المرة. أي شخص يمكن أن يمهد الطريق أمام الانتهازيين ضدّ يزيد؟

ابن الزبير غير قادر علىٰ فعل شيء، فهو رجل شجاع ولكنه يفتقد إلىٰ المكانة الاجتماعية المناسبة، وهو مضري من جهة أخرىٰ ولو وصل للرئاسة فإنه لن يتوان عن دعم المضريين وتقريبهم منه.

لقد تعرف القحطانيون علىٰ النبي في السنة العاشرة من نبوته، وعقدوا معه حلفاً ودعوه للمجيء إلىٰ مدينتهم ووقفوا بعد ذلك إلىٰ جانب ابن عمه وزوج ابنته، كما أنهم بايعوا الحسن بن علي عليه السلام، والآن فإن الحسين بن علي عليه السلام الذي يتمتع بالتقوىٰ والعظمة والسؤدد والشجاعة وكل صفة إنسانية حسنة وهو الشخص الساعي وراء الدين والذي يستطيع تحقيق أماني وأهداف الفريقين. وهو لم يبايع يزيداً وبذلك فليس عليه أي تعهد أو مسؤولية تجاهه كما أنه انتقل من المدينة إلىٰ مكة معترضاً علىٰ خلافته، إذاً يجب أن يُدعىٰ إلىٰ العراق.

وأقيمت المجالس في الكوفة، وعقدت المؤتمرات وعرضت فيها نقاشات وحوارات حادة تمّ التأسف فيها علىٰ غربة الإسلام وإماتة السنة وإحياء البدع

وأريقت الدموع وأظهر الكوفيون تذمراً من ظلم معاوية لشيعة عليعليه السلام. ويقال أن أول اجتماع عقد في بيت سليمان بن صرد من قبيلة خزاعة (من العرب القحطانيين) ولأن سليمان كان يعرف أهل مدينته جيداً ويعرف ضعفهم أمام العهود قال لهم:

إن معاوية قد هلك وإن حسيناً قد تقبض علىٰ القوم ببيعته، وقد خرج إلىٰ مكة وأنتم شيعته، وشيعة أبيه، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه، وإن خفتم الوهن والفشل، فلا تغروا الرجل من نفسه، قالوا: لا! بل نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه، قال: فاكتبوا إليه، فكتبوا إليه.

رسائل العراق

في النهاية وصلت رسائل عديدة للحسينعليه السلام تتضمن تأسف كتّابها علىٰ تغيير أحكام الإسلام والشريعة وقد ذكروا فيها:

أما بعد، فالحمد للّه الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي انتزىٰ علىٰ هذه الأمة فابتزها أمرها، وغصبها فيئها، وتأمر عليها بغير رضىً منها، ثم قتل خيارها، واستبقىٰ شرارها وأنه ليس علينا إمام، فأقبل، لعلّ اللّه أن يجمعنا بك علىٰ الحق، والنعمان بن بشير في قصر الإمارة، لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا عيد، ولو بَلَغَنَا إقبالك إلينا أخرجناه حتىٰ نلحقه بالشام، إن شاء اللّه.

ثم أرسلت رسائل أخرىٰ ذكر ابن الأثير أن عددها يتجاوز ١٥٠ رسالة[١] ويشير البعض إلىٰ أنها تبلغ ١٠٠٠ رسالة، وأولئك الذين يعتبرون المبالغة في هذا العدد أمراً غير مهم ذكروا أن عدد الرسائل وصل إلىٰ ١٢,٠٠٠ رسالة، وبمجرد أن تجاوز عدد الرسائل الحد المتعارف رأى الحسينعليه السلام أنه من الواجب أن يجيب أهل

١- ابن الأثير، نفس الكتاب، ج ٤، ص ٢٠.

الكوفة ويخلصهم من الانتظار، فكتب إليهم الحسين عند اجتماع الكتب عنده:

أما بعد، فقد فهمت كل الذي اقتصصتم، وقد بعثت إليكم بأخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، وأمرته أن يكتب إليّ بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب إليّ أنه قد اجتمع رأي ملئكم علىٰ مثل الذي ذكرتم أقبلت إليكم، فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الحق والسلام.

ومن جهة أخرىٰ قام بعض أنصار بني أمية وبعض الذين كانوا يرون مصلحتهم مع دمشق، وكذلك أولئك الذين كانوايحسبون حساب الخسارة والفشل، ببعث رسائل إلىٰ الشام، وكتبوا إلىٰ يزيد: إن كنت تريد المحافظة علىٰ الكوفة والعراق فأرسل إليها حاكماً لائقاً، فالنعمان بن بشير رجل ضعيف أو يتظاهر بالضعف. فولىٰ يزيد عبيدالله بن زياد حاكم البصرة أيضاً علىٰ الكوفة بناءاً علىٰ مشورة سرجون مستشاره الرومي.

ومن جهة أخرىٰ فقد وصل مسلم إلىٰ الكوفة برسالة الإمام فاستقبله أهل المدينة بشوق وحفاوة خاصة.

هذا الرجل المؤمن ذو العقيدة القوية والذي كان لا يظن أن هؤلاء الذين يبايعونه بهذا الشغف وتلك الحفاوة لن ينفضوا عنه بسهولة ولن يتركوه أبداً عندما رأى هذا الترحيب منهم كتب إلىٰ الحسين عليه السلام: أما بعد فقد اخضرّ الجناب وأينعت الثمار، وأهل الكوفة والعراق جند لك مجندة، فعجل بالقدوم.

توجه الحسين عليه السلام إلىٰ لعراق

بعد أن وصل كتاب مسلم للإمام الحسين عليه السلام توجه مع نسائه وأتباعه وبعض أعوانه إلىٰ العراق. ومن جهة أخرىٰ توجه عبيدالله إلىٰ الكوفة بمجرد وصول أمر يزيد إليه.

كان عبيدالله يعرف شعب العراق وخصوصاً أهل الكوفة جيداً، فقد كان والده حاكماً علىٰ هذه المدينة لسنين عديدة، وقد نشأ عبيدالله علىٰ يد أبيه. فكان يعرف جيداً كيف عليه أن يعامل أهل الكوفة.

ومنذ الأيام الأولىٰ جذب إليه كبار القوم من خلال التهديد والتطميع، وبجذبه لهم أجبر الآخرين علىٰ الخنوع، واستطاع التعرف علىٰ ما يجري في بيت مسلم من خلال تعيينه أحد الجواسيس لهذا الأمر.

قام في البداية باعتقال هاني بن عروة الذي لجأ إليه مسلم وأودعه السجن فهب مسلم مع أنصاره للحرب، ولكن هؤلاء القوم الذين يصل عددهم في بعض الروايات إلىٰ مائة ألف رجل، وبدون أن تقع مواجهات حقيقية، وبدون أن يظهروا أي شجاعة وبسالة أو أن يتحملوا خسائر جسدية تفرقوا عن مسلم في غضون يوم واحد، إلىٰ درجة أنه عندما همّ ليقيم صلاة العشاء لم يجد خلفه أي شخص، وفي النهاية كشف المكان الذي لجأ إليه مسلم، فاعتقل مسلم وقتل مع هاني بأمر من عبيدالله، وجرّ أزلام عبيد جسديهما المفصولين عن رأسيهما بحبل في أسواق الكوفة هنا وهناك، ومن هذه الجهة إلىٰ تلك، فتوارى كبار أهل الكوفة في بيوتهم وكأن شيئاً لم يحدث.

علم الحسين عليه السلام وهو في طريقه إلىٰ العراق بمقتل مسلم وهاني وتخاذل أهل الكوفة ونقضهم لعهدهم، فأخبر مرافقيه ومن كان معه بذلك وخيرّهم بين تركه أو البقاء معه، فتركه بعضهم، ولكن أقاربه وبعض أصحابه المخلصين والمؤمنين لم يتخلوا عنه، وبمجرد أن اقترب من الكوفة، التقىٰ بفئة من جنود الكوفة من طلائع جيش ابن زياد وكان قائدهم هو الحر بن زياد من قبيلة بني رياح الذي قام بسد الطريق علىٰ الإمام، فنزل الإمام في منطقة تدعىٰ كربلاء. وعندما علم حاكم الكوفة بوصول الإمام إلىٰ مشارف الكوفة أرسل جيشاً بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص لمواجهته. كان عبيدالله يريد من الحسين عليه السلام أن يبايع يزيداً أو يستعد للقتال، ولكن

الحسين عليه السلام رفض بيعة يزيد، واستعدَّ للحرب.

فاجعة كربلاء وآثارها

في اليوم العاشر من محرم سنة ٦١هـ وخلال عدة ساعات من المواجهة استشهد الإمام الحسين عليه السلام مع رجاله والشباب الذين كانوا برفقته وقام الأعداء بأسر عياله وأبنائه الذين لم يصلوا إلىٰ سن البلوغ ونقلوهم إلىٰ الكوفة ومن ثم إلىٰ الشام. وغضوا النظر عن قتل الإمام علي بن الحسين عليه السلام لأنه كان مريضاً.(١)

وأدىٰ هذا القتل الرهيب إلىٰ ظهور أمواج من السخط وعدم الرضى في كافة أنحاء العالم الإسلامي إلىٰ درجة أن أنصار بني أمية أيضاً لم يستطيعوا أن لا يظهروا تأسفهم.

استفاد ابن الزبير -وكان حينها في مكة- من هذه الفرصة وجعل منها حجة لتوجيه اللوم والانتقاد ليزيد، واعتبر العراقيين خونة وناقضين للعهود، وطلب من الناس مبايعته.

كما أن أهل الكوفة ومع تشدد رجال ابن زياد وقسوتهم أظهروا ردة فعل أيضاً. عندما صعد عبيدالله إلىٰ المنبر وخطب في الناس مادحاً يزيد وآله وأتبع ذلك بذم الحسين عليه السلام وآبائه وشتمهم، نهض عبدالله بن عفيف من طائفة الأزد وكان رجلاً زاهداً وكفيف البصر، وانفجر الكلام بين شفتيه، فأعاد الشتائم التي وجهها عبيدالله لآل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليه وإلىٰ من عينه حاكماً علىٰ الكوفة، وعندما حاول رجال عبيدالله

١- للمزيد من الاطلاع علىٰ تحليل هذه الفاجعة الكبرىٰ ينصح بالرجوع إلىٰ أثر الكاتب التالي (بعد خمسين عاماً [نهضة الحسين]) وكذلك إلىٰ حياة الإمام علي بن الحسين عليه السلام للمؤلف.

أن يسكتوه هبت طائفة الأزد لحمايته ووقع نزاع بينهم وبين رجال الحاكم.[١]

ولم تسكت المدينة أيضاً التي كانت تحكم في تلك السنة من قبل الوليد بن عتبة بن أبي سفيان. وكعادته لم يكتب الطبري شيئاً عن الاضطرابات التي جرت في هذه المدينة، ولكن تبدل ثلاثة من حكامها في غضون سنتين يدل علىٰ أن الوضع فيها غير عادي.

كتب الطبرى:

ثمّ إنّ ابن الزبير عمل بالمكر في أمر الوليد بن عتبة، فكتب إلىٰ يزيد بن معاوية أنك بعثت إلينا رجلاً أخرق لا يتجه لأمر رشد ولا يرعوي لعظة الحكيم، ولو بعثت إلينا رجلاً سهل الخلق، لين الكتف، رجوت أن يسهل من الأمور ما استوعر منها، وأن يجتمع ما تفرق، فانظر في ذلك، فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء اللّه والسلام.[٢] فبعث يزيد بن معاوية إلىٰ الوليد، فعزله، وبعث عثمان بن محمد بن أبي سفيان. ولكن من المستبعد أن يتبادل ابن الزبير مع يزيد رسائلاً في هذه البرهة وفي هذه الظروف، وخصوصاً من أجل استبدال حاكم المدينة وتغييره.

والأقرب إلىٰ الحقيقة هو أن يزيداً وعلىٰ عادة المستبدين من الملوك الشبان لم يكن يرغب بوصول رجال ذوي خبرة إلىٰ المناصب المهمة، ولذلك كان يرسل شباناً لا خبرة لهم إلىٰ الحكم، وكان هؤلاء يفشلون في ذلك لأنهم لم يكونوا يعرفون الناس كما يجب، وعثمان كما يذكر الطبري كان شاباً عديم الخبرة. «فقدم فتىً غر حدث غمر لم يجرب الأمور، ولم يحنكه السن، ولم تضرسه التجارب، وكان لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه، ولا عمله».[٣]

١- تاريخ الطبري، ج٧، صص ٣٧٣-٣٧٤.

٢- ج ٧، ص ٤٠٢.

٣- نفس الكتاب، ص ٤٠٢.

وعلىٰ كل حال ومهما كان السبب فإن قدوم الحاكم الجديد لم يكن مباركاً لا عليه ولا علىٰ أهل المدينة. وكان عثمان بزعمه يريد أن ينهي الأمر وأن يسترضي كبار أهل المدينة عنه وعن يزيد ويعمل علىٰ إحلال الاستقرار في الحكومة الإسلامية. فأرسل جماعة من أبناء المهاجرين والأنصار إلىٰ دمشق ليروا الخليفة الشاب عن كثب ويتمتعوا بعطاياه وهداياه.

لقد كان يزيد يفتقر إلىٰ التربية الدينية كما ذكرنا، ويمكن القول أنه كان عديم التربية من الأساس. وبعيداً عن أن طبيعة هذه الحكومة تتطلب ذلك، فقد أبعد المعمرين ذوي التجربة والخبرة من حوله، واحتضنته جماعة من الشباب المتملق وعَبَدَة المال والذين كانوا يثنون ويباركون ويقولون أحسنت علىٰ كل ما يقول وكل ما يفعل.

ويظهر في بعض الأسناد اسم سرجون مستشاره الرومي فهل كان هذا المسيحي (في الخفاء) يريد إسقاط حكومة يزيد التي تنادي بالإسلام اسمياً حتىٰ يشير عليه بمثل هذه التعليمات السيئة والمغلوطة؟ الله أعلم.

وما يمكن أن نقوله بثقة هنا هو أن يزيد لم يكن يعرف شيئاً عن أمر إدارة الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، فإسراعه وتشدده في أخذ البيعة من ابن بنت رسول الله، وتلك الفاجعة القاسية التي وقعت في محرم سنة ٦١ هـ والأقبح من ذلك اعتقال وأسر آل الرسول ﷺ ونقلهم إلىٰ الكوفة ومنها إلىٰ الشام، كل هذه الأمور تشير إلىٰ عدم نضجه، بل وإلىٰ غبائه.

والأسوأ من ذلك أنه عندما أرسل حاكم المدينة أبناء المهاجرين والأنصار إليه استقبلهم يزيد وكأنهم قد أحضروا إليه جماعة من نفس سنه، أو بعض رفاق طفولته فلو كان لديه شيء من العقل والحكمة أو كان لديه مستشارون أكفاء وأصحاب خبرة لكان عليه أن يعاملهم بشكل حصيف ومدروس طوال المدة التي كانوا فيها ضيوفاً في قصره وفي ضيافته. وأن لا يصدر عنه ما يخالف الأحكام الإسلامية، بل

أن يظهر نفسه متمسكاً بالدين ولو ظاهرياً، ولكنه لم يكن يعرف رعاية الدين ولا سياسة الناس.

لقد أصبحت المدينة بعد هجرة النبي ﷺ إليها مركز الحكومة الإسلامية، وكانت حتى سنة ٣٥ هـ بعد النبي مركزاً للخلافة، وقد عاش فيها ثلاثة من الخلفاء الراشدين، وعندما جعل علي عليه السلام من الكوفة مركزاً ومقراً لخلافته، لم تفقد المدينة رونقها العلمي والديني، فقد عاش فيها الكثير من المهاجرين والأنصار وماتوا فيها، واحتل أبناؤهم مكانتهم فيما بعد. ومنذ أوائل الهجرة فقد غمرت المدينة أمواج من التقوىٰ والزهد وبقيت مثابرة عليها نسبياً.(١)

كان الأجدر بيزيد أن يعرف هذا الشعب ويملك نفسه لعدة أيام علىٰ الأقل، ولكنه لم يفعل ذلك مطلقاً. ولا أدري هل أن إلباس القرد ثوباً وحمله علىٰ ركب الحمار وإرساله لسباق الخيل قد وقع في تلك الأيام أم في غيرها؟.

وعلىٰ كل حال فهذه القصة تدل علىٰ خفة عقله، فقد ذكر المسعودي أنه كان ليزيد قرد يحضره إلىٰ مجلس شرابه ويجلسه بجانبه علىٰ مسنده، وكان لهذا القرد حمار وحشي روّض له. ويقال أنهم قاموا بحمل القرد علىٰ ظهر الحمار مرة وأدخلوه في سباق مع خيل يزيد، فسبق حمار القرد خيول يزيد، وتقدم عليها، وفاز بالمسابقة.

وقد وصف ذلك أحد شعراء الشام قائلاً:

تَمَسَّك أبا قَيْس بِفَضْل عنانها
فَلَيْسَ عَلَيْها إنْ سَقَطت ضمانٌ
ألا مَن رَأىٰ القِرْد الذي سَبَقت به
جيادَ أمير المؤمنينَ أتان

١- وقد بدأت هذه القداسة بالزوال تدريجياً بعد واقعة الحرة وبعد خلافة عبدالملك.

ويقال أن يزيد قد قال هذه الأشعار بنفسه[١] ويجب أن تكون كذلك، لأنّ غرس النعمة ذكر في نهاية قصة الحديث الذي دار بين ابن هبيرة وزياد بن عبيد الحارثي[٢]: قال زياد: لما ذهبت إلىٰ مروان سألني عن حديثي مع ابن هبيرة حول أي شئ كان؟ فقلت حول كنية القرد هل هي أبو قيس أم أبو اليمن؟ فضحك مروان وقال صحيح! ألم يقل أمير المؤمنين يزيد: تمسَّك أبا قيس بفضل عنانها...[٣]

استقبل يزيد ممثلي المدينة، وأغدق عليهم العطاء، ومنح أحدهم وهو المنذر بن الزبير ١٠٠ ألف درهم، ولكن تربيته السيئة، وأخلاقه القبيحة لم تَخْفَ عن أنظار الضيوف، وعندما عاد هؤلاء إلىٰ مدينتهم تجمعوا في مسجد النبي، ووجهوا الشتم واللعن ليزيد وقالوا:

إنّا قَدِمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسامر الخراب والفتيان، وإنّا نُشهدكم أنّا قد خلعناه، فتابعهم الناس، ثمّ أتوا عبداللّه بن حنظلة الغسيل، فبايعوه، وَوَلَّوه عليهم.[٤]

وبعد أن قام أهل المدينة بمبايعة عبدالله بن حنظلة (غسيل الملائكة)، حاصروا بني أمية الذين كانوا قرابة ألف رجل في بيت مروان بن الحكم، ومن ثم طردوهم من المدينة.

في معمعة هذه الأيام ذهب مروان إلىٰ عبدالله بن عمر وطلب منه إبقاء عائلته

١- مروج الذهب، ج٢، ص ٩٤.

٢- انظر ص ٧٣ و ٧٤ بعد خمسين عاماً [نهضة الحسين] للكاتب وكتاب حياة فاطمة الزهراء ضمن سلسلة هذه الكتب صص ١٨٢-١٨١.

٣- الهفوات النادرة، صص ١٣١-١٣٢.

٤- الطبري، صص ٤٠٢ - ٤٠٣.

عنده، وحمايتها، لكن عبدالله رفض، وعندما يئس مروان من ذلك لجأ إلىٰ علي بن الحسين عليه السلام، وقال له: أنا من أرحامك، وأريد أن تبقي عيالي مع عيالك، فقبل علي بن الحسين عليه السلام طلبه بأخلاقه العالية، وأرسل عائلة مروان برفقة عياله وأولاده إلىٰ ينبع[١] وقد ظل مروان ممتناً وشاكراً لهذا الجميل علىٰ الدوام.

وأما ما ذكره الطبري عن أن صداقة علي بن الحسين ومروان هي صداقة قديمة[٢] فهو ادعاء لا صحة له. ولم يكن مروان محباً لبني هاشم أبداً، ولذلك لم يكن هناك مجال لبناء صداقة مع علي بن الحسين عليه السلام. لقد أراد الطبري أن يغض النظر عن شهامة بني هاشم الرفيعة، وينسب ذلك إلىٰ صداقة شخصية.

ووصل خبر قيام أهل المدينة إلىٰ دمشق فأغضب يزيداً إلىٰ درجة كبيرة، وفي البداية أراد أن يعهد بأمر هذه المدينة وأمر مكة والقضاء علىٰ ابن الزبير إلىٰ عبيدالله بن زياد، ولكن عبيدالله لم يقبل وقال:

«لا أجمعها للفاسق أبداً: أقتل ابن بنت رسول اللّه، وأغزو البيت».[٣]

إن لم يكن هذا القول من صنع الرواة، وكان هذا الكلام قد صدر عن عبيدالله فعلاً، فينبغي القول أنه كان يتمتع ببعد نظر وتفكير أعمق من يزيد وأنه كان يعلم بدنو أجل الحكم السفياني، وإلا فعبيدالله لم يكن ذلك الشخص الذي يخشىٰ من هكذا معصية (حتى ولو كانت كبيرة). فطلب يزيد من عمرو بن سعيد حاكم المدينة السابق ذلك فرفض، وقال: لا أريد أن ألوث يدي بدماء قريش. دع من هو غريب يتولىٰ ذلك، فاضطر يزيد لإرسال مسلم بن عقبة ذاك المسن العاجز المريض بجيش إلىٰ المدينة. فحاصر مسلم المدينة، ودخل إليها من جهة حرة واقم، وقال لأهلها:

١- عين سارية قرب المدينة إلى جهة اليمين من جبل الرضوىٰ (معجم البلدان).

٢- الطبري، ج٧، ص ٤٠٩.

٣- الطبري، ج٧، ص ٤٠٨.

أمهلكم ثلاثاً، فإن استسلمتم، وإلا فقد أعذرتكم.

قاوم أهل المدينة في البداية، ولكن سرعان ما دحروا وأعلنوا استسلامهم. فترك مسلم المدينة لمدة ثلاثة أيام في أيدي جنود الشام المفترسين ليفعلوا فيها ما يشاؤون.[١] فكم قتل من الرجال الأتقياء والزهاد؟ وكم ارتكب من المحرمات؟ وكم اعتدي علىٰ النساء والفتيات؟! لا يعلم ذلك إلا الله! ويمكن أن نستشف من هذه الفاجعة حقيقة مرة واحدة فقط وهي أنه في الحملة لم يكن لا الأمير ولا المأمور يعلمون شيئاً عن الفقه الإسلامي، وإن كانوا يعلمون فإنهم لم يكونوا آبهين ولا مكترثين لذلك. وفي كلا الحالين النتيجة واحدة، فإن الإسلام بالنسبة لهؤلاء القوم هو وسيلة للقدرة والقوة، وليس قانوناً لإجراء الأحكام الإلهية، والأعجب من هذا أنهم ذكروا أن مسلماً قال في نهاية الأمر في المدينة:

«اللهمَّ! إني لم أعمل قط بعد شهادة أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً عبده ورسوله عملاً أحبّ إليّ من قتلي أهل المدينة، ولا أرجىٰ عندي في الآخرة».[٢]

لا أدري هل قال فعلاً هذا الكلام، أم أن المؤرخين في العصر العباسي قد نسجوه لتشويه صورة الحكم الأموي بالقدر الممكن؟ فلو كان مسلم قد قال ذلك بحق -وليس بعيداً أن يقول ذلك - فكيف جمع عقل هذا الرجل بين الإقرار بنبوة محمد وجواز القتل العام للمسلمين؟ وهل يمكن لطاعة يزيد أن تشرع حكماً وتنسخ حكماً آخر؟

وقعت هذه الحادثة الشؤم في سنة ٦٢[٣]، ولقب مسلم في التاريخ مقابل هذه الخدمة العظيمة [لأسياده] بالمسرف، وكأن نبذه بهذا اللقب هو ردة فعل التاريخ

١- للمزيد من الاطلاع يرجى الرجوع إلىٰ حياة علي بن الحسين للكاتب.

٢- ابن الأثير،نفس الكتاب، ج ٤، ص ١٢٣.

٣- ويرىٰ البعض أن وقوعها كان في سنة ٦٣ هـ

الوحيدة أمام عمله القبيح. وبعدها جمع من تبقىٰ من سكان المدينة وخيرهم بين القتل، وبين قبول البيعة علىٰ أن يكونوا رقيقاً ليزيد دون قيد أو شرط، فلم يقبل بعضهم شرطه فقتلوا، بينما بايع الآخرون.

وبقي الإمام علي بن الحسين عليه السلام في هذه الحادثة سالماً، لأنه لم يتدخل فيها من جهة، ومن جهة أخرىٰ في بداية النزاع عندما توجه إليه مروان بن الحكم عامل المدينة وطلب منه أن يقبل لجوء عائلته عنده قبل علي بن الحسين بأخلاقة العالية طلبه وأرسلهم إلىٰ ينبع. وفي واقعة الحرة كفل علي بن الحسين عليه السلام ٤٠٠ أسرة من أسر عبد مناف، وكان ينفق عليهم طوال مدة إقامة مسلم في المدينة[١].

لقد تغير أهل هذه المدينة بعد إعدام النساء والرجال في واقعة الحرة، والاعتداء علىٰ حرمات المسلمين، وهو أمر لا سابقة له في العالم الإسلامي حتىٰ ذلك التاريخ، وأقبل الأثرياء وغير الآبهين بالمقررات الدينية والأخلاق الإسلامية علىٰ شرب الخمر، والاستماع لغناء المطربين والمغنين، ويمكن القول أن إقبالهم علىٰ هذه المنكرات كان بسبب رغبتهم بالتخلص من آلامهم الداخلية وتناسي ما يدور حولهم.

تهديم الكعبة

عندما انتهىٰ مسلم من أمر المدينة توجه إلىٰ مكة لينهي أمر ابن الزبير، ولكنه مات في الطريق، فتولىٰ أحد قادته وهو حصين بن نمير قيادة الجيش، وحاصر حصين مكة وفي أثناء هذا الحصار اشتعلت النيران في الكعبة. وذكرت أسباب كثيرة لهذا الحريق، وبينما كانت مكة خاضعة لذلك الحصار وصل إليها خبر موت يزيد. ولأن قائد جيش الشام لم يعد يعلم لمصلحة من كان يحارب أرسل إلىٰ ابن الزبير يخبره

١- كشف الغمة، ج ٢، ص ١٠٧.

بموافقته علىٰ بيعته بشرط أن يأتي معه إلىٰ الشام، وكأنه كان يرغب بجر عبدالله إلىٰ دمشق بهذه الحيلة، فلو بقيت حكومته مستقرت فحسناً، وإلا فإنه سينهي أمره بمساعدة أهل الشام. ولعل عبدالله رفض دعوته هذه لأنه لم يرغب في أن تظل دمشق مركزاً للخلافة. ولمّا لم يقبل رجع حصين مع الأمويين إلىٰ الشام.

مات يزيد في شهر ربيع الأول سنة ٦٤هـ عن عامر لا يتجاوز ٣٨ عاماً. وقد تقدم سلم بن زياد في عهده حتىٰ سمرقند وخجند[١] واستمر أمر الفتوحات الإسلامية في المغرب أيضاً.

قام أهل الشام بعد موت يزيد بمبايعة ابنه معاوية، ولم تدم خلافته أكثر من ٤٠ يوماً، لأنه كان يرجح الإنزواء علىٰ الخلافة، وقد انتقد في إحدىٰ خطبه أفعال معاوية وأبيه يزيد، وبكىٰ ثم قال:

بعد حمد اللّه والثناء عليه، أيها الناس! فإنا بلينا بكم، وبليتم بنا، فما نجهل كراهتكم لنا، وطعنكم علينا، ألا وإن جدي معاوية بن أبي سفيان نازع الأمر من كان أولىٰ به منه، في القرابة برسول اللّه، وأحق في الإسلام، سابق المسلمين، وأول المؤمنين، وابن عم رسول رب العالمين، وأبا بقية خاتم المرسلين، فركب منكم ما تعلمون، وركبتم منه ما لا تنكرون، حتىٰ أتته منيته، وصار رهناً بعمله، ثم قلّد أبي وكان غير خليق للخير، فركب هواه، واستحسن خطأه، وعظم رجاؤه، فأخلفه الأمل، وقصّر عنه الأجل، فقلّت منعته وانقطعت مدته، وصار في حفرته رهناً بذنبه وأسيراً بجرمه، ثمّ بكىٰ وقال: إنّ أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وقبح منقلبه، وقد قتل عترة الرسول، وأباح الحرمة، وحرّق الكعبة، وما أنا المتقلد أموركم، ولا المتحمل تبعاتكم، فشأنكم أمركم، فو اللّه لئن كانت الدنيا مغنماً لقد نلنا

١- البلاذري، نفس الكتاب، ص ٥١٠.

منها حظاً وإن تكن شراً، فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها.[١] وبعد هذه الخطبة انزوىٰ في منزله واحتجب عن الناس ومات في نفس السنة، أو أنهم دسّوا له السم.[٢]

وبموت يزيد عمّ الاضطراب شبه الجزيرة العربية مجدداً، وكما رأينا سابقاً بعد موت معاوية بقيت دمشق هادئة بينما كانت الحجاز ترنو إلىٰ الأمور بقلق والعراق فقط هو الذي ثار علىٰ يزيد. ولكن بعد موت يزيد عم الاضطراب الشام والحجاز أيضاً، فهبَّ المعارضون في هذه الولايات الثلاث، وكان لكل ولاية هدف أيضاً، وفي بعض الأحيان كان لكل جماعة مراد وهدف لا تعلن عنه صراحة.

والآن وقبل أن نشرع بدراسة أوضاع الحجاز والشام سنلقي نظرة أخرىٰ علىٰ أوضاع العراق.

توّابو العراق

كما رأينا، بعد أن ذاق أهل العراق للمرة الثالثة طعم الهزيمة علىٰ يد أهل الشام في الحكومة الإسلامية، وشهدوا انتصارهم عليهم[٣]: فدعوة الحسين عليه السلام بذلك الشغف والشوق والإصرار، واستقبال نائبه بتلك الحفاوة والحرارة، والتخلي عنه في مخالب العدو بتلك النذالة والجبن، والأهم من ذلك مذلة العراق وجبنه أمام

١- اليعقوبي، نفس الكتاب، ج٢، ص٢٢٢؛ ابن الطقطقي، الفخري، (بيروت: دار بيروت ١٣٥٨ هـ ق) ص١١٨.

٢- ابن الأثير، الكتاب ذاته، ج٤، ص١٣٠.

٣- وهي علىٰ الترتيب واقعة الحكمين،ثم حوادث سنه ٤١هـ وحكومة معاوية و واقعة ٦١هـ

الشام. كان كل ذلك يحز في أنفسهم ويعذب ضمائرهم، وبمجرد أن سمع أهل الكوفة خبر موت يزيد وأن بإمكانهم أن يتنفسوا عقدوا العزم علىٰ الشروع مرة جديدة.

كان بعض الذين دعوا الإمام وتخلوا عنه في مخالب الأعداء يعلمون بأنهم قد ارتكبوا ذنباً كبيراً بفعلتهم هذه، ولكن كيف يمكن التكفير عن هذا الذنب؟

قال سليمان بن صرد، زعيم الشيعة، وهو من طائفة خزاعة:

«ألا انهضوا، فقد سخط ربكم، ولا ترجعوا إلىٰ الحلائل والأبناء حتىٰ يرضىٰ اللّه. واللّه ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قَتَلَه أو تبيروا، ألا لا تهابوا الموت، فو اللّه ما هابه امرؤ قط إلا ذلّ. كونوا كالأولى من بني إسرائيل الذين قال لهم موسىٰ: «إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلىٰ بارئكم».[١]

وكما أشار الطبري والآخرون كان هناك اختلاف في الرأي في كيفية توبة النادمين بين سليمان والآخرين. كان سليمان يقول: يجب الذهاب إلىٰ الشام والقضاء علىٰ ابن زياد، وكان الآخرون يقولون: قتلة الحسين هم أشراف الكوفة وفرسان العرب ويجب أن نقتلهم أولاً. وعندما نادوا بشعارهم " يا لثارات الحسين" جاءه من ستة عشر ألفاً بايعوه أربعة آلاف. ويروىٰ عن أبي مخنف أنه عندما سأل عن السبب قالواله : إن المختار يثبط الناس عنك وقد استمال قسماً منهم.[٢]

فتقدم سليمان حتىٰ عين الوردة[٣] فأرسل مروان بن الحكم، عبيدالله بن زياد لمحاربته وقال له: إذا غلبت علىٰ العراق فهو لك.

قتل سليمان في الحرب مع ابن زياد ولم يحقق النادمون التوابون في هذه المرة شيئاً (جمادىٰ الأولىٰ سنة ٦٥) وقد ظهر في هذه المعمعة رجل ظل اسمه خالداً للأبد في

١- البقرة/٢: ٥٤، .

٢- الطبرى، ج٧، ص ٥٤٠.

٣- مدينة علىٰ ضفاف الخابور وتعرف برأس العين.

تاريخ الشيعة والإسلام.

المختار بن أبي عبيدة الثقفي

عندما انقلب جيش الحسن عليه السلام عليه، وقام بجرحه، فذهب إلىٰ بيت عامل المدائن الذي كان عم المختار، قال المختار لعمه من الأفضل أن تعتقل الحسن وتسلمه إلىٰ معاوية.

وفي عهد خلافة يزيد ألقى به عبيد الله بن زياد حاكم الكوفة في السجن بتهمة التعاون مع مسلم بن عقيل، ولكن سرعان ما فكّ قيده بمساعدة وتدخل من عبد الله بن عمر زوج أخته وأبعد إلىٰ الطائف. وبعد موت يزيد وقيام ابن الزبير قام المختار بمبايعته، وفي تلك الأثناء التي كان فيها الوضع في العراق مهيئاً لظهور معمعات وأحداث خطيرة من جديد، ولأنه كان يرغب بالزعامة أو كان لديه تعطش للانتقام من قتلة آل البيت فقد قدم إلىٰ الكوفة وقام بتجميع الشيعة حوله، وقال لهم: لم يكن لسليمان خطة حربية وسياسية مناسبة ولذلك هزم، وقال لهم أيضاً قبل أن نقدم علىٰ أي شيء علينا معاقبة قتلة الحسين عليه السلام. نعلم أن العراقيين بشكل عام والمعارضين بشكل خاص كانوا يبحثون عن قائد من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكي يدعم المختار ويثبت ما هو قادم علىٰ فعله طلب من الإمام علي بن الحسين عليه السلام السماح له بدعوة الناس لتأييده وابتداء الثورة باسمه ولكن علي بن الحسين رفض دعوته، ولكنه بحسب الظاهر كان راضياً عمّا قام به من مجازات قتلة أبيه وأهله.

بعد أن يئس المختار من ناحية علي بن الحسين شرع دعوته باسم محمد بن الحنفية[1] ولقبه بإمام الأمة. وعرف أولئك الذين قالوا وأقرّوا بإمامة محمد

١- الحنفية هو لقب أم محمد، واسمها خوله، وهي بنت جعفر بن قيس من طائفة بني حنيفة.

بالكيسانية.

وهكذا ظهر مذهب الكيسانية الذي وجد أتباعاً له في تاريخ التشيع منذ ذلك الحين. من أين أتت كلمة كيسان؟ وماذا تعني؟ ليس واضحاً إن كانت صفة من الكَيّس أي الذكي أو الغدار، أم أنها اسم بهذا المعنىٰ. وهل هي صفة للمختار أم اسم غلام من آل علي عليه السلام.

وقد ذكر أنهم كانوا يلقبون المختار بـ«كيسان» لأن الإمام علياً كان يجلسه علىٰ ركبته ويناديه بِالكَيِّس! واضح أنه لا أساس لوجه التسمية هذا، وعلىٰ أية حال فقد طرحت آراء كثيرة حول المختار إلىٰ درجة أن علماء الشعية أيضاً غير متفقين بشأنه. وقد مدحه بعض المتأخرين من علماء الشيعة بشكل مبالغ فيه جداً.

يشير مؤلف الغدير إلىٰ أن عدد الكتب التي كتبت في مدحه تبلغ ٢١ كتاباً، وذكر مثالاً علىٰ تلك القصائد التي قيلت في مدحه.[١] والذين قاموا بمدح المختار يعتبرون مصالحته مع ابن الزبير نوعاً من اقتضاء المصلحة، وأن ثورته انبثقت نتيجة عشقه لأهل بيت الرسالة.

يقع قبر المختار حالياً في الضلع الشرقي لمسجد الكوفة، وله من يزوره أيضاً، ومع ذلك لا يمكننا القول أنه لم يكن للمختار تطلع للزعامة، ويقال أنه كان يُقدم علىٰ أمور عجيبة ليجذب الناس ويضمهم إليه، ففي مواجهة العدو مثلاً كانوا يطلقون سرباً من الحمام بأمره، وكان المختار يقول لأفراد الجيش أنها ملائكة قدمت من السماء لنصرتكم، فكان يشجع الجنود ويثبتهم من خلال هذا التدبير.

يروي الطبري وابن الأثير أن طفيل بن جعدة بن هبيرة قال:

أعدمت مرة من الورق، فإني لكذلك إذ خرجت يوماً، فإذا زيّات جار لي، له

١- العلامة الأميني، الغدير، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٨٧ هـ ق) ١١ج، ج٢، صص٣٤٣-٣٤٨.

كرسي كان جعدة بن هبيرة [يعني أباه، وزعم أنه من أصحاب علي] يجلس عليه كأنه يرىٰ أن فيه أثرة من علم، [لزعمه أن علياً كان يجلس عليه في المسجد حينما كان يقضي بين الناس في الخصومات] قال: سبحان اللّه، فأخرت هذا إلىٰ اليوم، ابعث إليه، ابعث إليه، قال: وقد غسل وخرج عود نصار، وقد تشرب الزيت، فخرج يبص فجيء به، وقد غُشّي، فأمر لي باثني عشر ألفاً، ثم دعا الصلاة جامعة، وانطلق بي وبإسماعيل بن طلحة بن عبيد اللّه، وشبث بن ربعي، والناس يجرون إلىٰ المسجد، فقال المختار: إنه لم يكن في الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن في هذه الأمة مثله، وإنه كان في بني اسرائيل التابوت، فيه بقية مما ترك آل موسىٰ، وآل هارون، وإن هذا فينا مثل التابوت، اكشفوا عنه، فكشفوا عنه أثوابه.(١)

هل قام أنصار ابن الزبير باصطناع هذه الحكاية لفض الناس من حوله؟ أم أنها قصة حقيقية؟ الله أعلم.

وفي أيدينا أبيات شعرية لشاعر كان يعيش في ذلك الزمان وكان حاضراً للمنازعات القائمة بين المختار وابن الزبير والتي تشير إلىٰ قصة الكرسي وإطلاق الحمام وتطييره:

شهدُتُ إليْكُم أَنَّكم سَبَئيَّة ... وَأنّيَ بكُم يا شُرطَةَ الكُفر عارفٌ

وَأقْسم ما كُرسيُّكُم بَسكينة ... وَإن كان قَد لُفَّت عليه اللفائف

وَإن لُبِّسَ التّابوت فُتناً وَإن سَمَت ... حمامُ حَواليه وَفيكُم زَخارف

١- الطبرى، نفس الكتاب، «حوادث سنة٦٦)، ج٨، ص٣٠٧؛ ابن الأثير نفس الكتاب، ج٤، ص ٢٥٨.

وَإنّـي امـرؤٌ أحْـبَبْتُ آل مُـحمدٍ وَآثَرتُ وَحْياً ضَمَّنَتهُ المصاحف[١]

وكما ذكرنا سابقاً يجب التريث والتردد قبل قبول الروايات التاريخية في القرن الأول والثاني الهجريين إلا عندما تؤيد تلك الروايات بقرائن قطعية تساعد علىٰ التأكد. ففي تلك الأيام -كما في كل عصر- كان تبادل الاتهام والافتراء والكذب أمراً رائجاً وشائعاً، وكان اصطناع الأحاديث والخلط بينها والتلاعب في متونها وسيلة مؤثرة في تسيير الأمور وإدارتها.

وعلىٰ كل حال بعد أن جمع المختار الشيعة من حوله استولى علىٰ الكوفة أولاً ومن ثم وسّع نطاق سلطته حتىٰ الموصل، وراح يعتقل قتلة الإمام الحسين عليه السلام الواحد تلو الآخر ويقتلهم، وكان من بينهم عبيدالله بن زياد، وعمر بن سعد، والشمر، والخولي وغيرهم.

قام المختار وخلافاً لعادة الحكام السابقين الذين كانوا يعتمدون علىٰ زعماء القبائل ووجوه المدينة بجمع الموالي[٢] الذين كانوا قد تحولوا إلىٰ قوة في العراق حوله، وخلقوا الكثير من المشكلات الاجتماعية، ووعدهم بالنصر علىٰ المستكبرين.

أدىٰ عمله هذا إلىٰ تذمر زعماء الكوفة وولادة كراهيته في قلوبهم، وعندما توجه مصعب بن الزبير بأمر من أخيه عبدالله بن الزبير بجيشه عازماً إلىٰ العراق للقضاء علىٰ ثورة المختار وقف هؤلاء القوم بجانب مصعب ولم يتوانوا عن مساندته.

التحم جيش المختار مع جيش ابن الزبير ولكن جيش المختار هزم في النهاية وقتل المختار فى تلك المعركة (سنة ٦٧ هـ).

وكما نرىٰ فإن قيام الشيعة هذه المرة أيضاً لم يكن مثمراً.

١- الجاحظ، الحيوان، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي، ج٢، ص ٢٧١.

٢- سوف نقدم المزيد من التوضيح حول الموالي في الصفحات الآتية.

وسبب فشلهم في هذه الثورة هو نفس السبب الذي أدىٰ إلىٰ فشلهم في الثورات الماضية فقلة قليلة منهم كانت تبغي من ذلك رضى الله، والكثير منهم التحق بهم لبلوغ أهدافهم السياسية، وكان يصمد ما دام بعيداً عن الخطر. ولكن عندما رأوا صعوبة الأمر انسحبوا جانباً أو ساندوا الفئة التي كان نصرها أمراً مسلماً وحتمياً. بينما تركوا تلك الفئة المؤمنة التي تبتغي رضىٰ الله ورفع اسم الدين عالياً عرضه للقتل.

من المسلم أن يكون المطلعون علىٰ تاريخ الإسلام وخصوصاً حوادث القرن الأول الهجري قد سمعوا باسم شبث بن ربعي، فشبث هذا أنموذج مناسب للساسة أو من الأجدر أن نقول رجال ذلك العصر، وهو مضري من طائفة بني تميم. أدرك زمان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وقد التحق بالمسلمين في نهاية حياة النبي وبداية خلافة أبي بكر عندما ادعت سجاح النبوة وشرع أبو بكر بتصفية المرتدين، وكان أحد المعارضين الذين حاصروا بيت عثمان، ووقف في معركة صفين بجانب الإمام علي عليه السلام، وبعد موت معاوية كان شبث أحد الذين راسلوا الإمام الحسين عليه السلام وطلبوا منه المجيء إلىٰ العراق، ثم التحق بجيش ابن سعد وذهب إلىٰ كربلاء، وأصبح رئيساً علىٰ شرطة الكوفة مكافأة له علىٰ اشتراكه في قتل الحسين عليه السلام، وعندما هبّ المختار مطالباً بدم الحسين عليه السلام التحق به شبث، وعندما توجه مصعب لقتال المختار نراه قد انضم إلىٰ الجيش المعادي للمختار وإلىٰ قتلته.[1]

يمكننا القول أن الفرقة الوحيدة المنظمة والتي كانت تناضل من أجل العقيدة والسياسة هم الخوارج، فقد قام الخوارج في فترة ضعف الحكومات في العراق بتوسيع نطاق حركتهم ودعوتهم لتشمل البصرة وجنوب شرقي العراق حتىٰ

١- للمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع إلىٰ الإصابة وتهذيب التهذيب لابن حجر وميزان الاعتدال للذهبي والأعلام للزركلي.

خوزستان وشملت البحرين واليمن وحضرموت.

بعد أن بيّنا الوضع السياسي في العراق باختصار، علينا الالتفات إلىٰ الحجاز والشام.

عند البحث في تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، قلنا بأن سكان هذه المنطقة ومع أنهم ينقسمون إلىٰ قبائل وعشائر مختلفة فإنهم ينطوون تحت غطاءي العرب الجنوبيين والشماليين، أو القحطانيين والعدنانيين.

كان القحطانيون يعيشون في المثلث الجنوبي في شبه الجزيرة بينما كان العدنانيون مبعثرون في الشمال والصحراء.

وكما أشير سابقاً بأنه ولقرون عديدة قبل ظهور الإسلام تلاشى النظام الاجتماعي في الجنوب بسبب تهدم سدود السقاية والري، وأسباب أخرىٰ لا مجال لكتابتها هنا، فاتجه الكثير من سكان هذه المناطق إلىٰ الشمال، وسكنوا المناطق التي كانوا يرونها مناسبة للعيش. والقوم الذين اختاروا يثرب مكاناً لمعيشتهم لوجود المياه العذبة والجداول فيها هم من عرب الجنوب.

وكما رأينا فقد نهضت دعوة الإسلام في البداية من مكة وكان كبار التجار وشيوخ القبائل هم الذين يسيطرون علىٰ زمام الأمور في هذه المدينة، ولقد واجه النبي مخالفة هؤلاء القوم ومحاربتهم طوال ١٣ سنة.

وفي النهاية تحالف معه أهل يثرب ودعوه إلىٰ مدينتهم وهاجر النبي من مكة إلى المدينة فلقب أهل يثرب منذ ذلك الحين بالأنصار، ولقب من قدم مع النبي من مكة إلى المدينة بالمهاجرين.

وكان أغلب المهاجرين ينتمون إلىٰ القبائل الشمالية (العدنانية)، وبمجرد أن ترك هؤلاء القوم مكة وانتقلوا للسكن في المدينة، فإن التربية الإسلامية من جهة، وعقد الأخوة الذي عقده النبي في أشهر الهجرة الأولىٰ بين المهاجرين والأنصار من جهة أخرىٰ، أخمد نار العداوة والكراهية القديمة بين هاتين الفئتين.

ولكن لم يكن بالإمكان استئصال تلك العداوة الممتدة لمئات من السنين خلت والكراهية التي ورثوها جيلاً عن جيل دفعة ومرة واحدة.

وتتبع تاريخ الإسلام يظهر بوضوح أنه وفي فترة حياة الرسول ﷺ وكلما سنحت الفرصة المناسبة لبعضهم كانوا يظهرون تفاخرهم وتعاليهم ورغبتهم بالانتقام والثأر.[١] وفي يوم فتح مكة تصدر سعد بن عبادة رئيس قبيلة الخزرج الناس ونادىٰ: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة[٢]، وكأنه كان يريد أن ينتقم القحطانيون من العدنانيين في ذلك اليوم، ولكن النبي ﷺ خاطب علياً عليه السلام: أدركه فخذ الراية (منه) فكن أنت الذي تدخل بها، ولا تدعه يقول قولاً ليس بسديد، اليوم يوم المرحمة.

ولو أنه بعد معركة حنين - آخر حرب داخلية في شبه الجزيرة العربية في عهد النبي - قد امتد ظل النبي علىٰ رؤوس المسلمين لعدة سنوات أكثر، ولو لم تُضيع وصية النبي ﷺ بعد وفاته، ولو وصلت الخلافة إلىٰ أمير المؤمنين علي عليه السلام وبقيت سيرة النبي ﷺ حية قائمة، وأفسح الجيل الحاضر مكانه للجيل القادم، ولو تناقل ثلاثة أجيال علىٰ الأقل تلك التربية الدينية، لكانت تلك العداوة والكراهية قد ولت إلىٰ غير رجعة وقضي عليها في ظل التعاليم الإسلامية والأخوة الدينية والعدالة الاجتماعية. ولكن وللأسف الشديد عندما أدركت القبائل المتفرقة ضرورة ترك العداء والقتال فيما بينها وإطاعة الحكومة التي قامت لإعلاء كلمة الله في المدينة، كان رسول الله ﷺ قد انتقل إلىٰ جوار ربه.

حينها وقبل أن يدفن جسده الطاهر وقف الأنصار ضد المهاجرين، والأفضل أن

١- يمكن الرجوع إلىٰ بعد خمسين عاماً للكاتب ص ٢٩.

٢- ابن هشام، سيرة النبي تصحيح محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة: مطبعة حجازي ١٢٦٥هـ ق)، ج ٤، ص ٢٦.

نقول وقف القحطانيون في مواجهة العدنانيين، وكان رئيس قبيلة الخزرج قد رشّح نفسه لخلافة المسلمين ولكنه عندما وجد بأن لا قدرة له علىٰ مواجهة المهاجرين قال: منّا أمير ومنكم أمير، وهنا تدخل الدين ثانية واستطاع إخماد ألسنة النيران بعدما نقل أبو بكر رواية عن النبيﷺ (الأئمة من قريش)، فسكت الأنصار ولم يعقبوا بحرف واحد.

وكما ذكرنا فإنه في بداية خلافة أبي بكر وبسبب انشغال المسلمين بالقضاء علىٰ المرتدين من جهة، وعدم تبلور نظام حكومي خاص، أو علىٰ الأقل لم يكن للمناصب الحكومية دخل وريع يذكر من جهة ثانية، لذلك لا نرى ما يؤشر علىٰ وجود نزاع أو عداوة إلا نادراً.

وفي خلافة عمر حيث تولىٰ القادة حكم المدن الكبرىٰ، وارتفع رقم دخل الخزانة (بيت المال) نتيجة الغنائم الحربية، والخراج، وجزية ايران والروم، استطاعت سياسة الخليفة المتشددة أن تحافظ علىٰ التوازن بين هاتين الفئتين إلىٰ الحد الممكن، فلو تولىٰ العدنانيون حكم مدينة ما كان القحطانيون يتولون حكم مدينة أخرى.

ولكن لم يكن قد مضى ربع قرن علىٰ واقعة السقيفة حتىٰ احتكرت قريش والمضريون المناصب الهامة، وليس هذا وحسب، بل انهال سيل الدخل العام إلىٰ بيوتهم. وقد كدس كل من مروان بن الحكم، ومعاوية ابن أبي سفيان، وطلحة، والزبير، وعبدالرحمن بن عوف، ويعلىٰ بن أمية ملايين الدراهم من العملة المتداولة في تلك الأيام. ولكنهم لم يقنعوا بكل هذا، بل سعوا جاهدين لمنع وصول القحطانيين إلىٰ المناصب المهمة.

ونتيجة لتكديس الأموال وأنانية هذه الطبقة استيقظت العداوات الراقدة من جديد، ووقف القحطانيون والعدنانيون بوجه بعضهما البعض واشتدت حدة هذا النزاع بعد سنة ٣٦ هـ

عندما أرسل الإمام عليؑ زياداً إلىٰ البصرة وقف أنصاره من قبيلة أزد بوجه

بني تميم وتفاخر الشاعر الأزدي في حماسته قائلاً:

رددنـــا زيـــاداً إلىٰ داره وجار تميم دخـانـاً ذهب[١]

وهكذا لم نرىٰ في هذا الشعر وبقية الأشعار مؤشراً علىٰ الأخوة الإسلامية أو مظهراً لإطاعة إمام المسلمين، ولم يعد أمر قدوم الحاكم من جانب إمام المسلمين إلىٰ تلك المدينة ووجوب طاعة المسلمين له أمراً مهماً، وبات الحديث يدور حول طائفة أزد وانتصارها على بني تميم.

واستمر ذلك طوال قرون عديدة ولكن تحت أسماء مختلفة: قحطاني وعدناني، يماني وقيسي، مَعَديّ ومضري، تميمي وأزدي، قيسي وكلبي، وغيرها، وعمّ هذا النزاع بين هاتين الطائفتين كل أصقاع البلاد الإسلامية من اسبانية حتىٰ شمال أفريقية، ومن جزر سيسيل وبقية جزر البحر الأبيض المتوسط حتىٰ سورية والحجاز والعراق وايران.

وقد تمخض عن هذا النزاع القبلي كثير من الصراعات التي أدت أحياناً إلىٰ عزل بعض الخلفاء ووصول خلفاء آخرين إلىٰ الحكم.

١- يفضل الرجوع إلىٰ بعد خمسين سنة ص ٧٤. وبقية الأبيات هي:

لحىٰ الله قوماً شووا جارهم وللشّاء بالدرهمين الشصب
ينادى الخناق وخمانها قد سمطوا رأسه باللهب
ونحن أناس لنا عادة نحامي عن الجار أن يغتصب
ولم يعرفوا حرمة للجوار إذا أعظم الجار قوم نجب
كفعلهم قبلنا بالزبير عشية إذ بزه يستلب

الفصل السادس

الأمويون

كما رأينا فإنه بعد موت معاوية توجه عبدالله بن الزبير إلىٰ مكة واعتبر نفسه خليفة المسلمين فيها. كان عبد الله ينتمي إلىٰ قريش أي للطائفة العدنانية (عرب الشمال)، ومن جهة أخرىٰ فقد تزوج معاوية من ميسون بنت بحدل بن أُنَيف من قبيلة كلب وتمخض هذا الزواج عن ولادة يزيد.

ونعلم أيضاً أن قبيلة كلب تنتمي إلىٰ العرب القحطانيين (عرب الجنوب) وفي فترة خلافة يزيد القصيرة وبعد موته استولى الكلبيون وهم أقرباء الخليفة علىٰ القدرة شيئاً فشيئاً وأبعدوا القيسيين عن ميدان السياسة.

في الأمثال العربية هناك مثل يقول «أذل من قيسي بحمص» وربما كان هذا المثل يعود إلىٰ تلك الأيام الغابرة. وقد اغتاظ العدنانيون كثيراً من تطاول القحطانيين عليهم، وأعلن الضحاك بن قيس الذي كان يتولىٰ إدارة أمور الشام في عهدي معاوية ويزيد وقوفه ومساندته للمضريين، ودعا الناس لبيعة عبدالله بن الزبير خليفة علىٰ المسلمين وأعلن خلافته في دمشق. وممّا ساعد علىٰ تقوية أمر عبدالله هو قبول رئاسته وخلافته من قبل الحجاز ومصر والعراق.

ولكن الكلبيين لم يسكتوا بل تجمعوا مع بعض الأمويين في الجابية[1] واختاروا مروان بن الحكم خليفة علىٰ المسلمين وعينوا خالد بن يزيد وكان حينها طفلاً ولياً للعهد. وبهذا الاختيار اتضح جيداً أن النزاع القسي والكلبي قد شرع مجدداً.

توجه مروان مع أنصاره الكلبيين إلىٰ دمشق، وهبّ الضحاك بن قيس لمواجهته،

١- الجابية: قرية تابعة لدمشق قرب مرج الصُّفرة (معجم البلدان).

ونشبت بينهما حرب في مرج راهط[١] سنة ٦٤ هـ انتهت بعد عشرين يوماً من القتال وبعد أن خلفت خسائر جمّة إلىٰ انتصار الكلبيين. وهكذا أصبح مروان خليفة المسلمين. وقد قال شعراء الجانبين (القيسي والكلبي) الكثير من الأشعار والحماسات بشأن هذا النزاع والتي تجسم للقارىء أيام العرب والنزاعات القبلية قبل ظهور الإسلام.

وصل مروان إلىٰ الخلافة في شهر ذي القعدة سنة ٦٤ هـ وتقرر أن يتولىٰ الخلافة بعده كل من خالد بن يزيد، وعمرو بن سعيد بن العاص علىٰ التوالي.

ومع وصول مروان إلىٰ الخلافة بدأ عهد حكم أسرة أخرىٰ من بني أمية وهم المروانيون (في مقابل السفيانيين).

ومع أن الكلبيين قد انتصروا في هذا النزاع، ولكن شدة العداوة بين الكلبيين والقيسيين اشتدت أكثر من قبل. ففي العادات الجاهلية القبلية هناك مثل يقول: «الدم لا يغسل إلا بالدم» ولذلك سنرىٰ أنه وإن ساند القيسيون ابن الزبير في معركة مرج راهط، فقداستمر التصنيف القيسي واليماني بعد هذه الحرب طوال عهد بني أمية.

وبعد أن قام مروان ببسط نفوذه علىٰ الشام توجّه إلىٰ مصر، وبعد أن نظم الأمور هناك عاد إلىٰ الشام، وعزل خالد بن يزيد عن ولاية العهد، وعين مكانه ابنه عبدالملك، وبعده ابنه الثاني عبدالعزيز كوليين للعهد من بعده، فاغتاظ بنو أمية من تصرف مروان هذا، وكما يروىٰ فقد قامت أم خالد بخنقه (رمضان سنة ٦٥. هـ).

وبعد موت مروان وطبقاً لوصيته وصل ابنه عبدالملك وهو في التاسعة والثلاثين سنة إلىٰ الخلافة. وقد وصل إلىٰ الخلافة في أسوأ وأحرج الظروف السياسية والاجتماعية ترنحاً.

١- موضع في الجهة الشرقية لغوطة دمشق.

وكما ذكرنا فقد قام عبدالله بن الزبير بتنصيب نفسه خليفة في مكة، وجعل من الحجاز مركزاً لخلافته، ووسع نطاق قدرته ليشمل الحجاز والعراق وقسم من الشرق الإسلامي، كما هبّ الخوارج في المدن فأثاروا الذعر والفوضى وانعدام الأمن في كافة الطرق في تلك المنطقة، واستغل الروم أيضاً تفاقم الوضع داخل شبه الجزيرة العربية فأرسلوا جيشاً كبيراً إلىٰ الشام. راح عبدالملك يفتش عن مخرج لتفادي الاصطدام مع الروم فعقد مع الامبراطورية الرومية معاهدة أجبر فيها علىٰ دفع أموال وضرائب ثقيلة.

وعندما اطمأن من جهة العدو الخارجي راح يستعد لتصفية ابن الزبير. ولمواجهة ابن الزبير توسل عبدالملك إلى ذلك عن طريق السبل العسكرية والسياسية، فقام في البداية بمنع سفر الحجيج لكي يحفظ حجاج الشام بعيداً عن تأثير دعايات ابن الزبير وأفكاره، ولكي لا يقوم الحُجّاج بنشر دعوته في الشام.

يقول اليعقوبي:

فضجّ الناس، وقالوا: تمنعنا من حجّ بيت اللّه الحرام، وهو فرض من اللّه علينا، فقال لهم: هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول اللّه قال «لا تُشدّ الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس، وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام، وهذه الصخرة التي يُروىٰ أنّ رسول اللّه وضع قدمه عليها لمّا صعد إلىٰ السماء تقوم لكم مقام الكعبة، فبنىٰ علىٰ الصخرة قبة، وعلّق عليها ستور الديباج، وأقام أهل الشام يطوفون حول الكعبة أيام بني أمية.

وهكذا تمّ بناء قبة علىٰ تلك الصخرة بأمر من عبدالملك، وعلقت عليها الستائر الحريرية، وعين لها خدماً، وحرض الناس علىٰ الطواف حولها، وبقي هذا التقليد قائماً طوال عهد بني أمية.[1]

١- اليعقوبي ج٣، ص ٨.

كان عبدالملك يسعىٰ بزعمه لسلب المكانة المرموقة من مدينتي مكة والمدينة، وجعل الشام في نظر المسلمين كبيت الله من حيث الأهمية (وقد قلده بعض الحكام في هذا أيضاً) وفي نفس الوقت أرسل جيشاً إلىٰ العراق ليقضي علىٰ مصعب بن الزبير الذي كان قد ولي البصرة والكوفة.

ومن جهة أخرىٰ جرّ إليه بعض زعماء العراق بالوعد والوعيد، وبعدها قتل مصعب (سنة ٧١ هـ) وتفرق جيشه، ووصل أمر العراق إلىٰ نهايته.

وجاء دور الحجاز فأرسل عبدالملك الحجاج بن يوسف إلىٰ هناك. حاصر الحجاج مكة وقام بهدم بلد بيت الله الحرام بما فيه الحرم من خلال قذف الحجارة عليه بالمنجنيق، وفي هذا الصراع تفرق أنصار عبدالله من حوله وتركوه، ولكن عبدالله قاوم بشجاعة حتىٰ آخر قطرة من دمه، وبمقتل عبدالله (٧٠ هـ) فإن عبدالملك تخلص من آخر معارض كبير له والذي وقف بوجه ثلاثة من الخلفاء قبله. وكما ذكر فقد كان رجلاً تقياً وزاهداً. وبأمر من الحجاج قاموا بصلب جسده. وقد بقيت أشعار من ذلك الزمان في ذم عبدالله وانتقاصه، وهذه الأشعار وقبل أن تدل علىٰ أمر واقعي فإنها تشير إلىٰ تخاذل الناس وعبادتهم للقوة والقدرة[1]. ولم يترك الحجاج في هذه المهمة عملاً شائناً وقبيحاً ومحرماً إلا فعله، ففضلاً عن هدم الكعبة، وهتك حرمة قبر النبي، ومنبره، ومسجده قام بوسم رقاب بعض الصحابة كجابر بن عبدالله الأنصاري، وأنس بن مالك، وسهل الساعدي، وعدة أخرى، بهدف تحقيرهم وإذلالهم، وكانت ذريعته في ذلك أنهم قَتَلَة عثمان؟! وعندما همّ بالخروج من المدينة قال: أشكر الله علىٰ خروجي من هذه البلدة التي هي أقذر البلدان، وأهلها أغلظ الناس، وأغشهم لأمير المؤمنين، في هذه البلدة لا يوجد غير أعواد (يقصد منبر النبي)، ورمة بالية (يقصد قبر النبي) يلوذون بها.

١- تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص١٨؛ كامل ابن الاثير، ج٤، ص٣٥٩.

الحجاج في الكوفة

بعد أداء هذه المهمة أدرك عبدالملك أن الشخص الذي يستطيع إسكات شعب العراق والتضييق عليه هو الحجاج، ولذلك فقد ولاه على العراق وقسم من المنطقة الشرقية في سنة ٧٥ هـ.

عندما دخل الحجاج إلىٰ الكوفة لم يتصرف كشخص معين من قبل الخليفة، بل غير ملامح وجهه متنكراً ودخل إلىٰ المسجد، ومرّ من بين الناس حتى وصل إلىٰ المنبر، فصعد إليه، وبقي لمدة طويلة ساكتاً لا ينطق بكلمة. راح الناس يتهامسون ويتساءلون من يكون هذا؟ فقال أحدهم: حاكم جديد.

- أنحصبه بالحجارة؟

- لا، حتىٰ ننظر ما يقول.

فلما ساد الصمت كشف عن وجهه، وقال بضع جمل مخيفة لدرجة أن الشخص الذي أراد ضربه بالحجارة تناثرت الحجارة من بين أصابعه من الخوف. قال الحجاج في بداية خطبته:

يا أهل العراق ... طالما أوضعتم في الفتن، وسننتم سنن الغي .. والله إني لأرىٰ رؤوساً قد أينعت وحان قطافها.. والله لتستقيمن علىٰ سبيل الحق، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده.

وبعد هذه الخطبة عرف أهل العراق والكوفة واجبهم. وأدرك الجميع أن هذا الحاكم الجديد يتحدث بلغة يفهمونها.

قام الحجاج بتحذيرهم وتهديدهم، وبث الذعر بين هؤلاء القوم المتلونين، الجفاة الغلاظ علىٰ من تحت أيديهم، والأذلاء الخانعين لمن فوقهم، وكان إرعابه لهم مؤثراً لدرجة انطفاء نار الاضطرابات والفتن والثوارت في العراق والمنطقة الشرقية التي كانت قاعدة للخوارج مدة عشرين عاماً. ولكن وكما نعلم فإن وجود حكومات

كهذه يتطلب منها أن تمارس الظلم، والسجن، والقتل، وإيجاد حالة من الإرهاب، ونشر الخوف بين الناس. في عهد الحجاج -كما كان في عهد ابن زياد- كانوا يعتقلون الناس لأجل أتفه تهمة توجه إليهم، وكانوا يقتلونهم أو يلقونهم في السجن، بل كان الإلقاء في السجن يحدث أحياناً دون أي ذنب أو سوء ظن أو معصية. أمعنوا النظر في هذه القصة التي تشير إلىٰ جانب من حياة الظلمة، ومقاطع من حياة الناس في ظل الحكومات الديكتاتورية والمستبدة:

كان الحجّاج يقرأ سورة هودٍ، وإذ وصل هذه الآية: «قال يا نوح إنَّه ليس من أَهْلك، إنّه عملٌ غيرُ صالح»، لم يعرف كيف يُعربُ «عمل»[١]، فقال لأحد الحرس: آتني بمن يُحسن قراءَة القرآن. وإذ أحضر الحرسيّ قاريء القرآن كان الحجّاج قد نهض من مكانه وذهب، فألقي القارىء في السجن، ونسي. وبعد ستّة أشهر فتَّش الحجّاج السجن، وإذ وصل إلىٰ ذلك الرجل، سأَله:

- لِمَ وقعتَ في السجن؟

- من أجل آبن نوح.

عرف الحجّاج قصَّته، فأَمر بإطلاقه.[٢]

بمقدار ما كانت مدة حكمه تطول كانت مخالفته للفقه الإسلامي وتماديه وجرأته علىٰ الدين تزيد أكثر فأكثر، إلىٰ درجة أنه خاطب زوار قبر النبي في إحدىٰ خطبه قائلاً: تباً لهم إنما يطوفون بأعواد ورمة بالية، هلا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك، ألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله.[٣]

١- هل هي مضافة أم منونة؟

٢- العقد الفريد ج٥، ص ٢٧٢.

٣- شرح نهج البلاغة، ج٥، ص ٢٤٢؛ العقد الفريد ج٥، ص ٢٨٤؛ مروج الذهب ج٢، ص ١٤.

ولمّا كان بقية الحكام يشاهدون مكانته في نظر الخلفية كانوا يتملقونه ويتقربون منه.

بدأ الحجاج من جديد حكمه المتوحش على أنحاء العراق والنواحي الشرقية. وقد قتل العديد من زعماء الكوفة والناس الأتقياء دون ذنب كما استطاع إخماد نار الخوارج الملتهبة. وقد أثار الذعر في قلوب الناس إلىٰ درجة أن الهدوء لم يعم العراق فقط بل عم كل الجزيرة العربية والمناطق الشرقية.

ومع أن الحجاج كان يقسو ويتشدد علىٰ من تحت سلطانه ولكنه كان يتواضع أمام القاهرين له، ويتملق لهم كثيراً، فقد كتب في كتابه إلىٰ عبدالملك بن مروان: إنّ خليفة اللّه في أرضه أكرم عليه من رسوله إليهم.»[١]

وكان يعتبر منزلة عبدالملك أعلىٰ من منزلة رسول الله: «أيها الناس أيهما أعظم؟ خليفة الرجل علىٰ أهله أو رسوله إليهم، واللّه لم تعلموا فضل الخليفة.[٢]

بقي الحجاج في العراق حتىٰ نهاية فترة خلافة عبدالملك بن مروان، وقام الوليد الذي وصل إلىٰ الخلافة بعد عبدالملك بإبقائه في منصبه.

وفي سنة ٨٠ للهجرة عين الحجاج عبدالرحمن بن محمد الأشعث والياً علىٰ سيستان مع أنه لم يكن يرتاح له، فتوجه عبدالرحمن إلىٰ هناك وأرسل جيشه لقتال المهاجمين، وهكذا سيطر علىٰ زمام الأمور في سيستان، وبعث بعد ذلك برسالة إلىٰ الحجاج كتب فيها ما فتح الله عليه من بلاد العدو وبما صنع الله للمسلمين وبما اكتفىٰ مما أصابه من بلادهم. فرفض الحجاج طلبه، وأمره بالاستمرار بملاحقة العدو، فقام ابن الأشعث بجمع قادة الجيش، وهم من القحطانيين، وقال لهم:

«أما بعد، فإن الحجاج واللّه ما يرىٰ بكم إلا ما رأىٰ القائل الأول إذ قال لأخيه:

١- ابن عبد ربه، نفس الكتاب، ج ٥، ص ٢٨٦.

٢- نفس الكتاب، ص ٢٨٥.

احمل عبدك علىٰ الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك، إن الحجاج واللّه ما يبالي أن يخاطر بكم، فيقحمكم بلاداً كثيرة اللهوب، والصوب، فإن ظفرتم فغنمتم أكل البلاد، وحاز المال، وكان ذلك زيادة في سلطانه، وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عَنَتَهم ولا يُبقي عليهم».[١] وفي النهاية تمرد ابن الأشعث علىٰ الحجاج، وتوجه بجيشه نحو العراق، فالتقىٰ الجيشان في خوزستان، وجرت بينهما حرب طاحنة. في البداية انهزم جيش الحجاج وتوجه عبدالرحمن إلىٰ العراق واستولىٰ علىٰ الكوفة، وقدم إليه العديد من زعماء البصرة، ودخلوا في طاعته، فأخبر الحجاج عبدالملك بذلك، وطلب منه المساعدة، فأرسل إليه جيشاً كبيراً من الشام، وبعد وصول هذه القوة عاد جيش الحجاج للقتال، وفي تلك المعركة التي عرفت بواقعة دير الجماجم[٢] هبّ أهل الكوفة والبصرة، وحتىٰ قراء القرآن لمساندة عبدالرحمن لبغضهم الشديد للحجاج. وقد أقلقت ضخامة جيش ابن الأشعث عبدالملك فقال لمبعوثيه: لو يقبل أهل العراق عزلت الحجاج وصالحتهم. وعندما سمع الحجاج بذلك أرسل له يقول: لو فعلت ذلك لاجترأ العراقيون عليك أكثر. فلم يقبل عبدالملك كلامه، وطلب من ابنه عبدالله إبلاغ أهل العراق بذلك، فرفض العراقيون المصالحة، وطالبوا بخلع عبدالملك بن مروان، وعندما رأىٰ ابن عبد الملك ذلك، قال للحجاج: أنت أعلم بهم، دونك وإياهم. فشرع الحجاج بالحرب، ولكن جيشه تعرض لنقص حاد في الغذاء، وكان يخشىٰ من هزيمته، ولكنه نجح في النهاية بإغراء وخديعة بعض قادة جيش ابن الأشعث، وغار علىٰ العراقيين في إحدىٰ الليالي وفرقهم، فاضطروا للهروب، وفي أثناء ذلك غرق أغلب جيش ابن الأشعث في النهر (سنة ٨٢هـ ق)، فاضطر ابن الأشعث للعودة إلىٰ زابل، واللجوء إلىٰ رتبيل، فقام الحجاج

١- ابن الأثير، نفس الكتاب، ج ٤، ص ٤٦٢.

٢- منطقة علىٰ بعد ٧ فراسخ من الكوفة.

بإقناع رتبيل بالوعد والوعيد بأن يرسل ابن الأشعث إلىٰ العراق، وبالفعل قام بذلك. وفي أثناء الطريق حاول عبدالرحمن الفرار فقفز من أعلىٰ سطح إلىٰ الأرض، فمات، فأرسلوا برأسه إلى الحجاج.

وفي سنة ٨٠ للهجرة قام المهلب بن أبي صفر بفتح خجند، وجعل من مدينة كش مركزاً لقيادته، وعقد مصالحة مع أهلها، وفي تلك الأثناء وصلت إليه رسالة من ابن الأشعث، مفادها أن الحجاج، قد خلع من حكم الناحية الشرقية، وطلب منه مهلة حتىٰ ينضم إليه، فأرسل المهلب الرسالة إلىٰ الحجاج، وبقي هو في كش.(١)

بنىٰ الحجاج مدينة واسط في وسط الطريق الواصل بين البصرة والكوفة، وجعل منها مركزاً له، وأسكن فيها أفراد جيش الشام الذين كانوا مطيعين لدرجة كبيرة، ولكنه كان يبتغي من ذلك شيئاً آخر وهو أن لا يختلط أهل الشام بسكان العراق كي لا ينسوا الانضباط والطاعة اللذين تربوا ونشؤوا عليهما.

وبعد واقعة دير الجماجم قام بقتل جماعة من أصحاب علي عليه السلام، ومن جملتهم كميل بن زياد، وقام بإجبار سكان القرىٰ وبقية المدن الذين تجمعوا في الكوفة وتسببوا في إيجاد مشاكل جمة فيها علىٰ العودة إلىٰ مناطقهم الأصلية، ولم يلتفت إلىٰ اعتراضهم ولم يعرهم أي اهتمام. وقام بتشجيع المزارعين، ودعاهم لتعويض الأضرار الناجمة عن الحرب، ولأنه كان رجلاً متعلماً فقد حرض الناس وحثهم علىٰ العلم. وقد ذكروا أن وضع العلامات في القرآن الكريم (الإعجام) قد بدأ في عهد الحجاج، وبأمر منه مع أن هذا الأمر ليس مؤكداً.

توفي الحجاج عن عمر يناهز ٥٣ سنة، وقد ذكرت روايات وقصص عديدة عن إقدامه علىٰ القتل بلا رحمة أو شفقة، وزج الناس في السجون وتعذيبهم، وربما كان عدد الذين قتلوا أو سجنوا بأمر منه مبالغ فيه. أما ما هو مسلم به فهو أنه كان حاكماً

١- ابن الأثير، ج ٤، ص ٤٥٤.

قاسي القلب، شديداً، غير آبه بالأحكام الشرعية، وظالماً لدرجة كبيرة. ومطيعاً ومتملقاً تجاه قادته. كما يعد حاكماً لائقاً بالنسبة لأهل العراق الذين كانوا يطيعون القدرة والقوة فقط، ولم يكونوا على علم بشيء من معرفة الواجب، وكانت كل فئة منهم تلهث وراء أهدافها ومصالحها الضيقة.

وقد منحت الفترة الطويلة نسبياً لخلافة عبدالملك من سنة ٦٥ هـ - ٨٦ هـ الفرصة الكافية لإحلال الهدوء والاستقرار في كافة أنحاء المناطق الإسلامية ومن ثم الالتفات إلىٰ الفتوحات الخارجية. واطمأن باله بعد مقتل ابن الزبير وإخماد اضطرابات العراق علىٰ يد الحجاج، والقضاء علىٰ الخوارج بواسطة المهلب بن أبي صفرة.

وفي سنة ٧٤ هـ أرسل قوة بقيادة حسان بن النعمان إلىٰ أفريقية لقتال الروم الذين استغلوا المشاكل الداخلية في الدولة الإسلامية واحتلوا بعض أقسام أفريقية.

تقدم هذا الجيش حتى القيروان وبعد أن قام بتنظيم نفسه من جديد تابع مسيره حتى قرطاجة (سنه ٧٤ هـ) وبعد الحروب الطاحنة التي التحم بها مع البربر واجه مقاومة امرأة كانت تتولىٰ رئاسة البربر وتلقب بالكاهنة، وكانت معروفة بأنها تنبىء وتخبر عن المستقبل.

تلقىٰ جيش حسان في البداية ضربة مؤلمة من جيش الكاهنة واضطر إلىٰ التراجع فأطلع حسان عبدالملك علىٰ ذلك، فوعده عبدالملك بإرسال قوات إضافية إليه.

بقي حسان لمدة خمس سنين في برقة إلىٰ أن أرسل له عبدالملك بالقادة والجنود.

ومن جهة أخرىٰ قالت الكاهنة للبربر: إن هذا الجيش يسعىٰ وراء المال والغنائم فإن قمنا بتهديم المدن وتخريبها فسييأسوا ويرجعوا، وبذلك أصدرت الأوامر بتهديم مدن أفريقية كافة، فأدىٰ الدمار والقتال إلىٰ تذمر شعب البربر من الكاهنة، وفي المعركة التي نشبت من جديد اضطرت الكاهنة إلىٰ الفرار، وقتلت فيما بعد.

طلب شعب البربر من حسان الأمان، فمنحهم ذلك بشرط أن تنضم بعض قواتهم

إلىٰ جيش المسلمين في حروب أفريقية، وبهذا فتحت كافة أنحاء أفريقية، وأعلن أقوام البربر إسلامهم جميعاً. ثم عاد حسان إلىٰ القيروان في رمضان من سنة ٧٤هـ وبقي فيها حتى موت عبدالملك.[١]

كان عبد الملك أول خليفة استفاد من العملة الإسلامية بدلاً من العملة اليونانية، ويقال أن سبب ذلك يعود إلىٰ أنه كان يكتب في أعلىٰ رسائله إلىٰ الإمبراطور: قل هو الله أحد، وكان يذكر النبي فيها، فأرسل الإمبراطور يطلب منه ترك ذلك وإلا فإنه سيقوم بذم النبي ﷺ وذكره بالسوء علىٰ العملات المسكوكة.

كتب البلاذري: استشار عبد الملك خالد بن يزيد بن معاوية في هذا الأمر فقال له: امنع دينارهم، واضرب لهم سكة، وانقش عليها اسم الله فقبل عبد الملك.[٢]

وفي مقابل ما كتب البلاذري والآخرون يوجد في متناول أيدينا سند من معاصره إبراهيم بن محمد البيهقي مؤلف كتاب المحاسن والمساوىء[٣] سأل الرشيد بعض الناس:

- من أول من ضرب السكة في الإسلام؟

- عبد الملك بن مروان

- كيف؟

- بعد أن هدده قيصر بأنه سيذكر النبي علىٰ مسكوكاته بسوء قلق لذلك واضطرب، فقال له روح بن زنباع يجب أن تطلب حل هذه المشكلة من محمد بن علي عليه السلام فكتب عبد الملك إلىٰ عامله في المدينة : أن أعط محمد مئتي ألف

١- نفس الكتاب، ج ٤، ص ٣٢٩.

٢- البلاذري، نفس الكتاب، ص ٢٨٢؛ ابن الأثير، نفس الكتاب، ج ٤، صص ٤١٦-٤١٧.

٣- المحاسن والمساوىء، دار صادر، ص ٤٦٧؛ وينصح بالرجوع إلىٰ النقود العربية لـ أنَسَتاس الكرملي، ص ٩٢.

درهم، وجهزه وأهله بثلاثمائة، وأرسله إلىٰ الشام، وعندما ذهب إليه الإمام، وأخبره عبد الملك بالقصة، قال له : امنع المسكوكات الرومية، وليضرب بدلاً عنها سكة إسلامية، وهدد من يتعامل بغيرها بالقتل.

من البديهي أن هذه النصيحة، وحل هذه المشكلة علىٰ يدي الإمام الباقر عليه السلام وبقية أفراد آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليس بالأمر العجيب، ولكن قبول ذلك بهذا الشكل من الناحية التاريخية والاجتماعية يبدو أمراً مستبعداً، كما أن نسبة ذلك لخالد بن يزيد مستبعد أيضاً. والذي يقلل من فرص قبول ما ذكره البيهقي هو باختصار كما يلي:

١- كما نعلم فإن الطائفة المروانية والأموية ومنذ قديم الأيام كانت تكن العداء لآل البيت عليهم السلام، ومن المستبعد أن يكون لعبد الملك تلهف كهذا تجاه الإمام الباقر، خصوصاً وأن الفترة الممتدة بين سنوات ٦٥- ٧٥ هـ هي فترة ثورة الشيعة وتشدد الأمويين وقسوتهم عليهم.

٢- كان روح بن زنباع من الأصدقاء الحميمين لمعاوية وابنه يزيد ومروان وأولاده ومن المستبعد أن يبدي هذا الرجل ميلاً كهذا تجاه الإمام الباقر وأهل البيت.

٣- إن صرف مبلغ في حدود نصف مليون درهم من أجل نفقات سفر الإمام ومرافقيه من أجل مشكلة يمكن حلها برسالة ودبوس يبدو بعيداً جداً.

٤- يعود تاريخ ضرب النقود الإسلامية إلىٰ سنة ٧٤ هـ وفي تلك السنة كان عمر الإمام الباقر بشكل دقيق ١١ سنة، أو ١٨ سنة كما هو مشهور، ومن المستبعد أن يطلب روح بن زنباع أو عبدالملك بن مروان حل تلك القضية من الإمام (طبعاً من وجهة نظر عبد الملك وأمثاله، وليس من وجهة نظر العارفين والمدركين لمقام الإمام).

٥- كان الإمام علي بن الحسين عليه السلام حينها إماماً للشيعة ويجب أن يطلب منه ذلك بحسب الأصول.

٦- كما نعلم فإن الإمام الباقر عليه السلام توجه إلىٰ دمشق في عهد هشام بن عبدالملك فقط، وكان برفقته في هذا السفر ابنه الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وقصة رمي وتسديد الإمام [للسهام بعضها فوق بعض] أمام هشام مشهورة جداً.

٧- ذكر أن الإمام قد قال: هدد من يتعامل بغيرها بالقتل. إنّ صدور مثل هذا الأمر من قبل الإمام الباقر لشخص مثل عبد الملك، وهو بنظر الإمام حاكم جور مستبعد. وبسبب هذه القضايا فقد رأى مؤلف ناسخ التواريخ أن نسبة هذا الإقتراح إلىٰ الإمام محمد الباقر عليه السلام أمر غير صحيح، وقال: من المحتمل أن يكون عبد الملك قد طلب مثل هذا الأمر من الإمام الرابع [السجاد]، ولكن ليس معلوماً أن يكون الإمام الرابع قد سافر إلىٰ الشام بين سنوات ٦٢-٧٤ هـ

كان عبدالملك أول شخص يقوم بمنع الوعاظ من نصيحة الخلفاء وإيصائهم بالتقوىٰ، وكانت العادة أن يبدأ الخطيب الواعظ خطبته بعبارة «اتق الله».

خطب عبدالملك في المدينة خطبة قال فيها:

أما بعد، فلست بالخليفة المستضعف (يعني عثمان)، ولا الخليفة المداهن (يعني معاوية)، ولا الخليفة المأفون (يعني يزيد)، ألا وإن من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال، ألا وإني لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتىٰ تستقيم لي قناتكم، تكلفوننا أعمال المهاجرين، ولا تعملون مثل أعمالهم، فلن تزدادوا إلا عقوبة حتىٰ يحكم السيف بيننا،... والله لا يأمرني أحد بتقوىٰ الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه. ثم نزل.[1]

١- أبو الفرج الاصفهاني، الكتاب ذاته، ص١٦٢، (نقلاً عن تاريخ الحضارة الإسلامية، جرجي زيدان، ج٤، ص٧٨؛ الجاحظ، البيان والتبيين، (القاهرة: لجنة التأليف والنشر، ١٣٦٧ هـ ق) ٤ج، ج٢، ص٢٤٤-٢٤٥.

الوليد بن عبدالملك

توفي عبدالملك في شوال سنة ٨٦ هـ وكما ذكرنا كان مروان بن الحكم قد عين عبدالملك ولياً للعهد، ومن بعده ابنه الآخر عبد العزيز، وفي عهد خلافة عبدالملك كان عبدالملك يسعىٰ لعزل أخيه من ولاية العهد وتعيين ابنه الوليد. ولكن عبد العزيز كان يرفض ذلك إلىٰ أن ولاه على مصر فغض نظره عن حقه في الخلافة، ولكن عبد العزيز مات قبل عبد الملك، أو أنهم قاموا بدس السم في طعامه بأمر من عبدالملك، وعلىٰ كل حال فإن نتيجة الأمر هي أن الوليد قد وصل إلىٰ الخلافة دون أن يزاحمه أي رقيب أو منافس.

إن الأسلوب الذي اتبعه عبدالملك في فترة خلافته الممتدة ٢٠ عاماً قد أعد الوضع السياسي والاجتماعي للوليد، ولقد استفاد الوليد من الأمن المستتب في الدولة، والأموال الطائلة التي تعود إلىٰ بيت المال، وتوجه نحو الأعمال العمرانية، ونظراً لحبه لهذه الأمور وتعلقه بها فقد قام ببناء العديد من الأبنية التي عرفت باسمه فيما بعد، ومن جملتها المسجد الأموي الكائن حالياً في العاصمة السورية دمشق، وهو من أجمل الآثار العمرانية ونماذج الفن الإسلامي. وهناك آثار للقصور الصيفية والشتوية وأبنية أخرى في سورية والأردن والتي تحكي عن عظمة وفخامة عصر الحضارة والعمران في عصر الوليد بن عبدالملك.

طبعاً بعد مضي ١٣ قرن فإن الذي يثير إعجاب الناظر هو تلك الأبنية الجميلة التي ما زالت قائمة، وقلما يفكر شخص في مقادير الخراج والجزية التي كانت تؤخذ من الناس، وخصوصاً المسلمين الجدد وغير المسلمين في ايران والروم والبربر وتصرف لبناء هذه الأبنية.

تابع الحجاج في عهد الوليد وبعد وفاته أمر الفتوحات الإسلامية في الجهة الشرقية وقام قتيبة بن مسلم بفتح خوارزم وفرغانة وتقدم حتى كاشغر (٧٨-٩٦

هـ ق) وقدم محمد بن قاسم بجيشه حتى وادي السند(٩١ - ٩٤ هـ).

وقد ذكرنا قبل هذا بأن معاوية قد ولى عقبة بن نافع والياً علىٰ أفريقية في عهده وفي سنة ٦٩هـ وفي عهد عبدالملك تولى حسان بن النعمان هذا المنصب وبعد حسان أي في سنة ٧٨هـ عهد بهذا المنصب إلىٰ أبي عبدالرحمن موسىٰ بن نصير، وفي سنة ٩١ للهجرة استعدّ موسىٰ بن نصير لمهاجمة الأندلس، وتوجه إلىٰ جنوب الأندلس بجيش صغير ثم ما لبث أن عاد بعد أن حصل على غنائم وفيرة. وفي شهر شعبان من سنة ٩٢هـ جهز موسى جيشاً قوامه ١٢ ألف محارب وأعده لفتح الأندلس، وأرسل في البداية طارق بن زياد بستة آلاف رجل أغلبهم من الموالي والبربر، فعبر طارق من مضيق عرف فيما بعد باسمه (جبل طارق) وقبل أن يصل إلىٰ هدفه قال لجيشه: أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم ... وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عزبانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً... ثقة منه بارتياحكم للطعان، واسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ... واعلموا أني أول مجيب إلىٰ ما دعوتكم إليه عند ملتقىٰ الجمعين، حامل بنفسي علىٰ طاغية القوم "لذريق" فقاتله إن شاء الله، فاحملوا معي.

ودخل طارق إلىٰ الأندلس، وأرسل إلىٰ موسىٰ يخبره بانتصاره فيها، وعندما رأى موسىٰ أن غلامه قد نال كل هذه الافتخارات أعمى الحسد عينيه، وأمره بالتوقف في مكانه، ثم استخلف ابنه عبدالله في القيروان، وتوجه بنفسه إلىٰ الأندلس. ولكن طارق تابع فتح مدن الأندلس بعد استشارة قادة جيشه.

توجه موسىٰ إلىٰ الأندلس بجيش ضخم مؤلف من العرب والبربر والتحق بطارق بعد أن فتح عدة مدن فيها، فقام بتوجيه اللوم إليه، وجلده، ومن ثم ألقىٰ به في

السجن، فاشتكىٰ طارق للوليد ذلك، فأرسل الوليد إلىٰ موسى رسالة يطلب منه فيها أن يفك قيد طارق، وأن يعيده إلىٰ مهمته السابقة. فأخرج موسىٰ طارق من السجن وقاما سوية بمهاجمة شمال اسبانية.

ومن جملة الوقائع التي حدثت في عهد الوليد شهادة الإمام علي بن الحسين عليه السلام سنة ٩٥ أو ٩٤ هـ[١]

سليمان بن عبدالملك

توفي الوليد سنة ٩٦ للهجرة، ووصل بعده أخوه سليمان بن عبدالملك إلىٰ الخلافة؛ ولأن الوليد كان راغباً بتنصيب ابنه في الخلافة بعده، وكان الحجاج يرحب بذلك -كما قيل- فإن سليمان وبعد الوصول إلىٰ الخلافة قام بعزل أقارب الحجاج من مناصبهم، وتعيين يزيد بن المهلب وهو أحد أعداء الحجاج -وكان قد هرب من سجنه سابقاً- والياً علىٰ الكوفة.

وقام أيضاً بقتل قتيبة بن مسلم فاتح خوارزم، ومحمد بن قاسم فاتح السند.

ولم تستمر خلافة سلميان إلا إلىٰ شهر صفر سنة ٩٩ للهجرة.

كان سليمان رجلاً دنيوياً، غير آبه بأمور البلاد، وكما ذكر فقد كان جل حديثه يدور حول النساء والطعام. ويقال أنه ارتدى لباساً أنيقاً يوماً ووضع عمامة خضراء اللون علىٰ رأسه، ونظر إلىٰ المرآة، وقال: أنا ملك شاب. فقالت إحدىٰ جواريه:

أنت نعم المتاعُ لو كنت تبقىٰ غير أن لا بقاء للإنسان

١- للمزيد من الاطلاع المفصل عن حياة هذا الإمام الجليل ينصح بالرجوع إلىٰ حياة الامام علي بن الحسين عليه السلام للكاتب نفسه.

ليس فيما علمته فيك عيب كان في الناس غير أنَّك فان

ولم يمض أكثر من أسبوع حتىٰ مات.

عمر بن عبدالعزيز

قام سليمان قبل موته بتعيين عمر بن عبد العزيز ولياً للعهد بدلاً من تعيين أحد أبنائه، وكان هذا الاختيار هو التصرف الوحيد الصائب في فترة خلافته، ولعله كان يشعر هو أو بعض مستشاريه بدنو أجل الدولة الأموية، وقرب زوالها، وكانوا يبغون من انتخاب عمر جذب المعارضين للحكومة، وكسب رضاهم.

نشأ عمر بن عبد العزيز في المدينة وسط جماعة من المسلمين الأتقياء والعارفين بسنة الإسلام، وقد سعىٰ في فترة خلافته القصيرة إلىٰ نسخ وإزالة البدع التي قام سابقوه وأسلافه بإدخالها إلىٰ الإسلام، فتوقف بأمره شتم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وذمه من علىٰ المنابر، وهي العادة التي كان قد بدأها معاوية. وشجع أهل الذمة علىٰ الدخول في الإسلام. ومنع التجملات الدنيوية، واتخذ من العدالة أساساً في صرف بيت المال والاستفادة منه. ومنع العطاءات الكثيرة التي كان معمولاً بها قبله، وتشدد حتىٰ على أقاربه والمقربين منه.

مشكلة الموالي وحلها من قبل عمر بن عبد العزيز

من الأفضل أن نقدم توضيحاً أكبر في هذا الشأن، لما لاقته هذه المشكلة من اهتمام وتوجه من قبل عمر بن عبدالعزيز، والمساعي التي بذلها لحل هذه المشكلة.

كما رأينا فإن الذين توجهوا في عهد أبي بكر وعمر إلىٰ خارج شبه الجزيرة

العربية ونشروا الإسلام في المناطق الخاضعة لنفوذ الإمبراطوريتين الفارسية والرومية كانوا من سكان البوادي والصحاري. والبدو يعلمون أبناءهم الحرية من جهة، وفنون الحرب والقتال من جهة أخرىٰ. ولم يكن العرب يعرفون شيئاً عن الفنون والحرف التي تتطلبها حياة المدينة، وليس هذا وحسب، بل كانوا لا يحبذون ذلك، بل يحقرونه، ولذلك بقيت الأعمال الإجرائية والمشاغل العامة بيد سكان المناطق التي تمّ فتحها، فكان لكل من الصناع والأطباء والحرفيين وحتىٰ المعلمين والمربين مقاماً في جهاز الحكم. وكان أولئك الذين يتولون الأمور التنفيذية في الدولة يعيشون حياة مرفهة. وكان أصحاب الأراضي يتمتعون بعائداتها أيضاً. وكانت هناك فئة أخرىٰ أيضاً لا تعرف شيئاً عن هذه المهن كالعمال والخدم الذين كانوا يمارسون نشاطهم في مزارع الملاك الكبار وأراضيهم، فتوجه هؤلاء إلىٰ المدن بعد أن اعتنقوا الاسلام لكسب امتيازات مادية ومعنوية أكبر، فأدىٰ هذا الإقبال نحو المدن تجمع سكاني ضخم في المدن وهذا بدوره إلىٰ إيجاد مشكلة البطالة التي أدت بدورها إلىٰ إيجاد تجمعات وفصائل سياسية تسبب بعض الاضطراب أو الفوضىٰ أحياناً.

وكان بين العرب قبل الإسلام تقليد مفاده بأنه كلما التحق شخص بطائفة أو بشخص ما كان يسمىٰ بالمولىٰ (مولىٰ فلان)، وهذا المولىٰ يتمتع بحماية الطائفة التي ينتسب إليها. وبعد ظهور الإسلام قام بعض المسلمين الجدد (من غير العرب) بالالتحاق والانضمام إلىٰ الطوائف والقبائل العربية، ولذلك نرىٰ في التاريخ عبارة «مولىٰ بني فلان...» باستمرار. وكان هؤلاء الموالي يتوقعون أن يتم معاملتهم كبقية المسلمين طبقاً لحكم المساواة والعدالة الإسلامية، وأن يتمتعوا بمزايا الإسلام بشكل كامل. ولكنهم كانوا متضايقين جداً من معاملة الحكومات السابقة لهم والتي كانت خلافاً لما كانوا يتوقعون. وقد سعى الخلفاء والحكام طوال مدة نصف قرن إلىٰ إيجاد سبل كفيلة بحل مشكلة الموالي هذه، ولكن مساعيهم ومحاولاتهم لم تثمر لأنهم لم

يرغبوا بغض النظر عن مصالحهم. وكما رأينا فقط أشار معاونو عثمان عليه بإرسال الموالي للجهاد في المناطق الشرقية[١]. وقد التف الموالي حول المختار في ثورته، واستطاع المختار بمساندتهم دحر أعداء أهل البيت عليهم السلام، ولكن تقربه هذا من الموالي جعل العرب يتضايقون منه وكما رأينا فقد تغلب عليه مصعب بمساعدة هؤلاء وقام الحجاج بإجبارهم على العودة إلىٰ مناطقهم بعد أن تجمعوا في المدن العراقية دون أن يلتفت إلىٰ اعتراضهم.

هذا النوع من الحلول هو علاج مؤقت للمشكلة وبمجرد أن تضعف قدرة الخليفة أو قوة الحاكم كان الموالي يهبون للمعارضة من جديد. كانوا يقولون: أنّ الأراضي التي فتحت بجهودنا يجب أن يكون لنا منها نصيب. ونشبت نزاعات كثيرة من أجل هذه المسألة، ومسائل أخرىٰ كتقسيم الغنائم الحربية بشكل عادل أيضاً، وأحياناً كان يقف هؤلاء المعترضون في وجه الحكام ويقومون بضرب رجالهم.

أمر عمر بن عبدالعزيز بإشراك الموالي في تقسيم الغنائم الحربية ومنع بيع وشراء أراضي المناطق المفتوحة.

وقام عمر بالاهتمام بأهل الذمة (اليهود والنصارىٰ) الذين كانوا يعيشون في ظل الدولة الإسلامية. فمنذ أن بدأت الفتوحات الإسلامية ترك الحكام العرب الحرية المطلقة لسكان المناطق المفتوحة في اعتناق الإسلام، أو البقاء علىٰ دينهم، وفرض مبلغ محدد عليهم سنوياً لقاء حمايتهم من قبل الدولة الإسلامية. ومن قَبل بدفع الجزية (أو حق الحماية) منهم كان يتمتع بحرية تامّة في ممارسة التقاليد والآداب الدينية الخاصة به، كما كانوا يتبعون آراء علمائهم وقضاتهم في كثير من القضايا والأحكام، ومع هذا فإن تعداد المعتنقين للإسلام كان في ازدياد واضح. وكان أحد أسباب اعتناقهم للإسلام هو أنه كان يؤخذ من أهل الذمة فضلاً عن الخراج

١- الطبري، ج٦، ص٢٩٣٢.

ضرائب سنوية (الجزية) أيضاً بينما لو أسلم أحدهم لأعفي من الجزية ودفع الزكاة فقط.

في عهد الحجاج ولكي لا يتعرض دخل الحكومة إلىٰ نقص طارىء قيل لأهل الذمة بأنه عليهم دفع الجزية حتى ولو اعتنقوا الإسلام، وهذا ظلم لم يكونوا قادرين علىٰ تحمله، فقام عمر بنسخ هذه البدعة لتشويق الناس للإسلام، وتشجيعهم علىٰ اعتناقه. وعندما اشتكىٰ إليه رجاله بأن هذا الإجراء سيحدث نقصاً شديداً في دخل الدولة لم يلتفت عمر إلىٰ شكايتهم.

وفي فترة خلافة بني أمية لم يكن حكام الولايات يجازون المتهمين والمجرمين طبقاً للأحكام الإسلامية، بل كانوا يجازونهم وفقاً لميولهم ورغباتهم واجتهاداتهم الشخصية، فأصدر عمر أمراً يمنع فيه أي حاكم أو قاض من مجازاة أي شخص خارج الحدود المتعارفة.

مع ازدياد اهتمام الأمويين ورجالهم بالتجملات والزخارف الدنيوية كان هناك حاجة إلىٰ أموال أكبر، ولأن دخل الدولة الإسلامية لم يكن كافياً لسد النفقات الآخذة بالتصاعد، راحوا يتوسلون إلىٰ الجهاد ويغيرون علىٰ بلاد غير المسلمين. وكانت أغلب غارات هؤلاء الحكام تهدف إلىٰ الاستيلاء على الأموال والحصول علىٰ الغنائم، وتكديس الأموال في الخزانة وجيوبهم الشخصية، فأصدر عمر أوامره باستقرار الجنود في الحدود لحماية حدود الدولة الإسلامية فقط، وأن يتوقفوا عن غاراتهم وغزواتهم، وفي المقابل اقترح علىٰ جيران الدولة الاسلامية من غير المسلمين بأنهم إن دخلوا الإسلام فلن يطالبوا بالخراج. كما أنه كان حريصاً جداً في تقسيم المناصب بين الأشخاص ورعاية أوضاع عامة الناس من الكلبيين والقحطانيين وبذلك يكون قد نجح في تجنب ظهور المشاكل والنزاعات الداخلية.

كما قام عمر بإعادة أرض فدك إلىٰ أولاد فاطمة.[١]

توفي عمر بعد سنتين وخمسة أشهر من توليه الخلافة في رجب سنة ١٠١ هجرية في دير سمعان. ويقال أن الأمويين أقدموا علىٰ قتله خشية أن يقوم عمر بنقل الخلافة إلىٰ آل البيت عليهم السلام[٢].

وهكذا وصلت مدة خلافة عمر بن عبد العزيز القصيرة إلىٰ نهايتها، ويمكن القول أنه خلال حكم بني أمية لم يشهد المسلمون ملامح العدالة والمساواة الإسلامية إلا في هذه المدة القصيرة.

يزيد بن عبدالملك

بعد موت عمر بن عبدالعزيز وصل يزيد بن عبدالملك (يزيد الثاني) إلىٰ الخلافة واستمرت خلافته لمدة ٤ سنوات (رجب ١٠١ - شعبان ١٠٥ هـ).

كان يزيد رجلاً لاهثاً وراء المتع واللذائذ الدنيوية، فاسقاً حياته كلها خمر ونساء. وفي فترة حكمه القصيرة هذه أزال كلّ آثار العدالة التي خلفها عمر بن عبدالعزيز، وسمح لرجاله من جديد بأخذ الضرائب المختلفة، ومضايقة الناس وإيذائهم. واشتعل النزاع القيسي واليماني مرة أخرىٰ في خلافته، فهب يزيد بن المهلب معارضاً واستولىٰ علىٰ البصرة، ثم بسط نفوذه على الأهواز وفارس وكرمان بمساندة من قبيلة أزد، ولكنه واجه مقاومة من بني تميم في خوزستان، فعاد ابن المهلب إلىٰ الكوفة، والتقى فيها بجيش مسلمة بن عبدالملك، فتفرق جيشه وأسرت

١- للاطلاع علىٰ هذا الأمر يفضل الرجوع،إلىٰ: جنايات التاريخ ج١ و٢؛ وكذلك إلىٰ حياة فاطمة الزهراء (للمؤلف).

٢- ابن عبد ربه، الكتاب ذاته، ج٥، ص١٧٤.

نساؤه وبناته وعرضن للبيع في الأسواق.

وفي خلافة يزيد تحكمت به اثنتان من جواريه. وفي الحقيقة فإن أمور الدولة السياسية كانت تدار من قبل هاتين الامرأتين، كان اسم إحداهن خبابة[١] وكان يزيد متيم بها بشدة. ويقال أن خبابة غنت له بيتاً من الشعر:

بين النَّزَاقي واللهاة حرارةٌ ما تطمئن ولا تسوغ فَتَبردُ

فطرب يزيد وقال: أريد أن أطير! فقالت خبابة: إذا طرت لمن تكل الإمامة؟ فقال: لك! وأخذ يدها وقبلها.[٢]

وعندما ماتت جاريته حزن يزيد حزناً شديداً أجبره علىٰ ملازمة جسدها لعدة أيام، ولم يسمح بدفن جثتها حتى تفسخت وتعفنت، فذهب إليه أخوه، وطلب منه السماح بدفنها.

مات يزيد بعد عدة أيام من موت جاريته، وكان قد عين قبل موته أخاه هشام ومن بعده ابنه الوليد (الوليد الثاني) للخلافة.

هشام بن عبد الملك

حكم هشام مدة طويلة نسبياً (شعبان ١٠٥ - ربيع الثاني ١٢٥ هـق) وقد سمحت له مدة الحكم الطويلة هذه بالقيام بإصلاحات ظاهرية حيث كان رجلاً نشيطاً من جهة، ومقتصداً من جهة أخرىٰ. كان يريد تنظيم أمور الدولة من خلال

١- ذكر في مصادر أخرىٰ أن اسمها حبابة.

٢- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ج١، ص٣٣١.

تعيين ولاة لائقين علىٰ الولايات، وزيادة دخل الدولة، ولكن الأمل بإصلاح الأمور قد تلاشى بعد موت عمر بن عبد العزيز، وتسلم يزيد بن عبد الملك للخلافة بعده، ونشوب النزاعات العدنانية القحطانية من جديد. وشروع قلاع الثورة والاضطراب بالظهور. ومن جهة أخرىٰ هب الخوارج للمعارضة، وراحت جماعات منهم تناضل ضد الحكومة العربية تحت غطاء التشيع، ولو وجد في هذه المرحلة من التاريخ ولاة أكفاء وحريصون ومحبون للشعب ومتفهمون للواقع في المدن لقللوا من الظلم، وسعوا لكسب رضى الشعب، ولكان هناك احتمال كبير في تأجيل سقوط الحكم الأموي عدة سنوات أخرىٰ. ولكن أولئك القادة كانوا يعلمون بدنو أجل الأمويين، وأنه ينبغي أن يجهزوا أنفسهم قبل أن يتأخر الوقت. فاتبع خالد بن عبد الله القسري الذي كان والياً على العراق والمنطقة الشرقية سياسة الحجاج في الحكم. كان خالد رجلاً عامياً، وقيل أنه لم يكن يعرف قراءة القرآن. ويقال أنه في أثناء إحدىٰ خطبه قرأ آية قرآنية بصورة خاطئة، فنهض أحد أصحابه وهو من قبيلة تغلب وقال: خفض عليك أيها الأمير، لا يهولنك ذلك، فما رأيت قط عاقلاً حفظ القرآن! وإنما يحفظه الحمقىٰ من الرجال! قال: صدقت يرحمك اللّه!!.[١]

وقد وصل ظلم خالد في العراق إلىٰ درجة أجبرت هشام علىٰ عزله، وفي عهد الحكومة التي أتت من بعده التف شيعة الكوفة حول زيد ابن الإمام علي بن الحسين عليه السلام وحثوه علىٰ محاربة الحاكم، ولكن وكما هي عادة هؤلاء القوم فقد أبدوا في البداية اندفاعاً، ورغبة قوية، حتىٰ قالوا أن زيداً هو مهدي الأمة ولكنهم تخلوا عنه في النهاية بحجج واهية.

واستشهد زيد بعدها (١٢١ هـ ق) وصلب علىٰ نخلة. وقد قال الشاعر الكلبي

١- أبو الفرج الاصفهاني، الكتاب ذاته، ج١٩، ص٦، (منقولاً عن تاريخ الحضارة الإسلامية، جرجي زيدان، ج٤، ص٨٠.

(الحكيم بن عياش الأعور من شعراء بني أمية) في هذا الشأن:

نَصبنا لَكُم زَيداً عَلى جِذْع نَخلة وَما كان مَهدي عَلَىٰ الجذع يُصْلَبُ

ذكر ياقوت: أنّ رجلاً ذهب إلىٰ عبدالله بن جعفر[١] وقال له: يا ابن رسول الله إنّ الحكيم الأعور يذكركم في الكوفة بسوء. فسأله: هل تحفظ شيئاً مما قال؟ قال: نعم! قوله:

صَلبنا لَكم زَيداً علىٰ جذع نَخلة وَلَم نَرَ مَهدياً عَلىٰ الجذع يُصلبُ
وَقستُم بِعُثمانٍ عَليّاً سفاهةً وَعُثمان خيرٌ مِن علي وَأطيَبُ

فرفع عبدالله يده وهي ترتجف إلىٰ السماء، وقال: اللهمّ! إن كان كاذباً فسلط عليه سبعاً. وفي إحدىٰ الليالي بينما كان حكيم خارجاً من الكوفة اعترضه أسدٌ فافترسه ومزقه إرباً، فحمل رجل هذه البشرىٰ إلىٰ [عبدالله بن] جعفر فخر ساجداً، وقال: شكراً لله الذي صدقنا وعده.[٢]

كان زيد رجلاً عالماً تقياً زاهداً مخالفاً للظلمة، ومن كبار أهل البيت عليهم السلام، وتعتقد

١- ورد هذا في معجم الأدباء؛ وفي كشف الغمة، ج٢، ص٢٠٣: لما وصل شعر الحكم بن عباس الكلبي: «صلبنا لكم...» إلىٰ الإمام الصادق عليه السلام لعنه..؛ وفي ريحانة الأدب ذيل «أعور» نقل عن معجم الأدباء: عبدالله بن جعفر الصادق في حين أن المذكور في المعجم هو عبدالله بن جعفر، ولا ذكر لـ«الصادق».

٢- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، (القاهرة: مكتبة عيسىٰ البابي، ١٣٥٥ هـ ق) ج ١٠، ص٢٤٩.

فرقة من الشيعة تسمىٰ بالزيدية أنه إمام بعد أبيه علي بن الحسين عليه السلام.

تابع هشام حروبه علىٰ الجبهة الرومية، وتقدم جيشه حتى تخوم المناطق الخاصة لفرنسة، وفتح تركستان من الناحية الشرقية.

هب الناس للمعارضة في أواخر خلافة هشام بعد أن سئموا من ضغوط الضرائب الثقيلة، واتحدوا مع الأتراك بعد أن أصبحوا جيراناً، فأرسل هشام نصر بن سيار إلىٰ تلك المنطقة لإخماد الثورة فيها (سنة ١٢٠ هـ ق)، فأقام نصر بعد قضائه علىٰ المعارضين في مرو، وبقي فيها حتىٰ قيام أبي مسلم، ثم ترك مرو متوجهاً إلىٰ نيسابور، فأرسل أبو مسلم قحطبة بن شبيب وراءه، فنشبت حروب عديدة بينهما. وفي النهاية توفي نصر سنة ١٣١ في ساوه. وتوفي هشام سنة ١٢٥ هجرية.

ومن جملة أحداث عهد هشام وفاة الإمام محمد بن علي بن الحسين عليهما السلام الباقر إمام الشيعة، وكما هو مشهور ولد سنة ٥٧ هـ في المدينة، ولقبه المعروف باقر العلوم فقد أخرج مكنون وأسرار علم آل محمد ونشره بين الناس. وعظمة مكارم أخلاقه أمر معترف به من قبل الشيعة وغير الشيعة، وقد مدح بعض الشعراء مكارم أخلاقه.[1] وقد ازداد قلق المروانيين من ناحيته بسبب اجتماعه مع المتكلمين، وعلماء عصره، ومحبة الناس له، وتعلقهم به، وخصوصاً الشيعة. وكما هو مشهور فقد استدعاه هشام في إحدىٰ السنوات، فتوجه إليه برفقة ابنه الإمام الصادق، وبعد خروجه من مجلس هشام التقى بعالم كبير من علماء المسيحيين، فحاججه وأجابه علىٰ أسئلته. توفي الإمام الباقر عليه السلام سنة ١١٤ هـ في المدينة، ودفن جسده الطاهر في البقيع.

١- مناقب ابن شهرآشوب، ج ٤، الصفحات ١٨١، ١٩٣، ١٩٧، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٣.

الوليد الثاني

بعد هشام وصل الوليد بن يزيد إلىٰ الخلافة(١٢٥ هـ ق)، وفي تلك السنين كان الضعف قد دب في جسد الدولة الأموية، وظهرت علائم سقوط هذه الدولة من كل حدب وصوب.

وكما رأينا فلم ينس القحطانيون والقيسيون عداوتهم القديمة، ولأن أفراد القبيلتين كانوا منتشرين في كافة أنحاء العراق وايران لذلك فقد كانت النزاعات تنشب بينهم باستمرار.

كان عدد القحطانيين في المشرق أكبر ولم يكونوا قادرين علىٰ تحمل زعامة العدنانيين. كان يصل أحياناً خليفة إلىٰ الحكم ويشرع بدعم العدنانيين وتقريبهم وفي النتيجة يقومون بإذلال القحطانيين وتحقيرهم وأحياناً يحدث عكس ذلك.

والخلفاء الذين ظهروا في الثلاثين سنة الأخيرة من حكم الأمويين لم يكن لديهم دراية عبد الملك بن مروان ليتمكنوا من إحلال التوازن بين هاتين الطائفتين لمصلحتهم وكانوا يفتقرون إلىٰ القوة اللازمة لإسكاتهم، ولم تكن لديهم منزلة عمر بن عبدالعزيز من حيث التقوى والاستقامة في نظر الناس.

يرجع الوليد بن يزيد عن طريق أمه إلىٰ العدنانيين، وقد قام بإفساح المجال ليوسف بن عمر الثقفي حاكم العراق وخراسان للإطاحة بخالد بن عبدالله القسري عامل الكوفة، وقد أثر هذا الأمر في نفوس القحطانيين أشد التأثير.

اتحدت الطوائف القحطانية في خراسان وسببت للحكومة مشاكل متعددة. وقد أدىٰ موت خليفة واستلام آخر للخلافة في مدة قصيرة إلىٰ الفتن. وكان الشعب المتذمر يلتف من حين لآخر حول أحد العلويين الذي يهب معارضاً، ومع أن تلك الثورات كانت تخمد بسرعة إلا أنها كانت تمهد لثورة أخرىٰ، ففي خلافة الوليد ثار يحيى بن زيد الذي ذهب إلىٰ خراسان، ولكنه واجه مقاومة من رجال نصر بن سيار

وقتل. وقد بانت علائم انهيار الحكومة الأموية بعد عبد الملك بن مروان في عهد الوليد بوضوح. كان الوليد رجلاً لاهثاً وراء سراب الدنيا يقضي أوقاته في شرب الخمر أو بين الندماء والمغنين أو في الصيد أحياناً. كتب ابن عبد ربه:

قال اسحاق بن محمد الأزرق دخلت علىٰ منصور بن جمهور الكلبي بعد قتل الوليد بن يزيد، وعنده جاريتان من جواري الوليد، فقال لي: اسمع من هاتين الجاريتين ما تقولان: قالتا: قد حدثناك، قال: بل حدثاه كما حدثتاني، فقالت إحداهما: كنّا أعز جواريه عنده، فنكح هذه، وجاء المؤذنون يؤذنونه بالصلاة، فأخرجها وهي سكرىٰ جُنُبة متلثمة، فصلّت بالناس!!

كان الوليد وفضلاً عن توجهه هذا إلىٰ الشراب وإهماله لأمور الدولة ظالماً للغاية بحيث أنه لم يرحم أقاربه أيضاً، فقد قتل بعض أقربائه بأمره. وقد استفاد ابن عمه يزيد بن الوليد (يزيد الثالث) من الواقع المضطرب، وقام بتقريب بعض زعماء القحطانيين إليه وهاجم دمشق فقام المعارضون بقتل الوليد في قصره(١٢٦ هـ ق)، وأعلن يزيد خلافته. والشيء الذي يبدو عجيباً في هذه المعمعة، وحتى أنه أشبه بالسخرية، هو أنه عندما وصل الثوار إلىٰ باب قصر الوليد وأحس بدنو أجله فتح القرآن أمام وجهه وقال: يوم كيوم عثمان.[1] وهنا يجب القول: «في الصيف ضيعت اللبن»[2]

وعندما انتشر خبر وصول يزيد إلىٰ الخلافة، هب مروان بن محمد الذي كان حاكماً علىٰ أرمينية للمطالبة بدم الخليفة ولكن يزيد قام بإرضائه بشكل من الأشكال.

١- تاريخ الإسلام السياسي، حسن إبراهيم حسن، ج ١، ص ٣٣٤.

٢- ذكر المؤلف في الأصل مثلاً رائجاً في الثقافة الفارسية يقارب في المعنىٰ المراد هنا المثل الذي ذكرناه في النص. م.

ثمّ توفي يزيد بعد ٦ أشهر من تسلمه الخلافة (١٢٦ هـ ق) وتولىٰ أخوه إبراهيم بن الوليد أمور الخلافة.

قام مروان بن محمد الذي كان متواجداً في شبه الجزيرة العربية بتجميع المضريين من حوله، وتوجه برفقتهم قاصداً الاستيلاء علىٰ مركز الخلافة في دمشق. كان يهدف من حيث الظاهر إلىٰ الإطاحة بإبراهيم وتنصيب أحد ابني الوليد: الحَكَم وعثمان اللذين كانا في السجن، خليفة علىٰ المسلمين، وعندما وصل مروان إلىٰ دمشق فرّ إبراهيم هارباً. وفي النهاية أعلن مروان في شهر صفر سنة ١٢٧ هـ نفسه خليفة وأخذ البيعة من الناس، فوضع مخالفو الحكم الأموي في الشام اختلافاتهم جانباً مؤقتاً. ومع أن مروان استطاع بسط نفوذ علىٰ كافة أنحاء الشام، ولكنه واجه قيام رجل من الخوارج في العراق يدعىٰ الضحاك بن قيس الشيباني واستيلائه على الكوفة وواسط، ولكنّ مروان نجح بالإطاحة به (١٢٨ هـ ق) وتهدئة الأمور في العراق. ولكن وفي تلك السنين كانت خراسان علىٰ وشك الانفجار فقد اتحدت القبائل القحطانية في خراسان مع المعارضين في تلك المنطقة بعد أن رأوا أن العدنانيين قد التفوا حول مروان وتركزت جهودهم في جهة معينة وهي وجوب الإطاحة بالحكم الأموي وتسلم آل محمد للخلافة. كانوا يقولون: أن الامتيازات القبلية والعرقية التي ظهرت في عهد بني أمية علىٰ خلاف الدين والشرع الإسلامي ولإقامة الدين الحقيقي وتطبيقه يجب أن يتولىٰ السلطة في الإسلام آل محمد ﷺ. وكان الرجال المؤمنون الذين شهدوا طوال هذه الفترة ورأوا بأم عينهم كيف قام الأمويون بنسخ أحكام الدين والقضاء علىٰ السنة وإيجاد البدع، كانوا يقولون: أنّ الطريق الوحيد لحل المشاكل وعلاج جميع الآلام وإصلاح ما فسد هو في الرجوع إلىٰ حكم الإسلام والقرآن وسيرة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين. وكان غير المسلمين الذين كانوا يعيشون في ظل الإسلام ويتحملون ظلم الأمويين وقسوة عمالهم كانوا يمنون أنفسهم بحكومة تنصفهم، وتخفف من الضرائب الثقيلة، والضغوط الأخرىٰ،

كما أن الايرانيين الذي سئموا من ظلم رجال الحكم الأموي انضموا إلىٰ الفئة الثائرة ضد الأمويين بسبب حب بعضهم لآل البيت، وجري بعضهم وراء مصالحهم ومقاصدهم الشخصية.

في وقائع سنة ٦٥ وقيام المختار بن أبي عبيدة الثقفي رأينا كيف أنه قام بدعوة الناس للالتفاف حول محمد بن الحنفية[١] ابن علي عليه السلام واعتباره إمام الأمة، وعندما توفي محمد سنة ٨١ هـ في الطائف[٢] قال أتباعه الذين سموا بالكيسانية بأنه لم يمت بل هو حي يعيش في جبل رضوى قرب المدينة يصله طعامه من عالم الغيب وسيظهر عندما يشاء الله.

قامت الكيسانية أولاً بنشر دعوتها في خراسان والتف حولهم أتباع كثيرون لكن هذه الدعوة انتهت شيئاً فشيئاً لصالح العباسيين.

قام العباسيون وأتباعهم بنشر إشاعة مفادها أن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية الذي أصبح إماماً بعد والده التقى بمحمد بن علي بن عبدالله بن عباس في أحد أسفاره إلىٰ الشام في الحميمة[٣] وسلمه منصب الإمامة هناك، وهكذا انتقلت الإمامة إلىٰ بني العباس. وبذلك يكون العباسيون قد ورثوا الإمامة من جهة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن جهة الإمام علي عليه السلام!

أرسل محمد دعاته إلىٰ خارج الحجاز، وخصوصاً إلىٰ خراسان، وكان يقول لمبعوثيه ومبلغيه: لا تدعوا الناس إلى شخص بعينه، بل ادعوهم إلىٰ «الرضا من آل محمد». وعندما توفي محمد خلفه ابنه إبراهيم. في هذه الفترة قام أبو مسلم المروزي بإظهار دعوته وإعلانها. كان الإمام العباسي يقول لأنصاره: ابذلوا وسعكم ليكون

١- لقب أمه، واسمها خولة بنت جعفر بن قيس من قبيلة بني حنيفة (نسب قريش، ص ٤١).

٢- بلد شرقي مكة كان مركز طائفة ثقيف.

٣- مدينة في شرارة من توابع عمان، كانت موطناً لبني العباس (معجم البلدان).

في صفكم أهل إيران، ومن العرب القحطانيين وابتعدوا ما استطعتم عن العدنانيين وإذا أمكنكم فاقتلوهم. فمن هو أبو مسلم؟ وماذا كان يريد في البداية؟ وماذا حل به؟ يجب الدخول في هذه التفاصيل أثناء بحث ودراسة الحكم العباسي.

قام أبو مسلم بتجميع شيعة خراسان والطوائف القحطانية ومعارضي الحكم الأموي حوله وراح ينتزع مدن خراسان الواحدة تلو الأخرى من أيدي رجال بني أمية، وبعد أن أخرجهم من ايران توجه إلىٰ العراق.

كان إبراهيم الإمام العباسي قد قُتل قبيل مجيء أبي مسلم، فانطلق أخوه عبدالله بن محمد بن علي (السفاح) المكنى بأبي العباس نحو الكوفة وبقي فيها بين الشيعة متخفياً.

وصل جيش أبي مسلم إلىٰ الكوفة، ومن جهة أخرىٰ وصل جيش مروان عن طريق الموصل إلىٰ هناك، ونشبت الحرب بينهما، ودامت تلك الحرب ١٠ أيام هزم في النهاية فيها جيش مروان.

وولىٰ مروان هارباً، وقتل في بوصير (مصر العليا)، وجلب رأسه لأبي العباس، وهكذا انتهىٰ عهد بني أمية الذي دام ٩٠ سنة بين سفياني ومرواني.

دراسة وتحليل عن حكم الأمويين

كما رأينا فقد أعلن معاوية ابن ابي سفيان حفيد أمية بن عبد شمس نفسه خليفة علىٰ المسلمين سنة ٤١هـ وعين بعده ابنه يزيد ولياً للعهد، ثم حكم معاوية الثاني لفترة قصيرة، وبموته انتهت فترة خلافة بني أبي سفيان، وقام أهل الشام بعد ذلك بمبايعة مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، وتولى أولاد مروان الخلافة حتى سنة ١٣٢ هـ، وكان آخر خلفاء هذه السلالة مروان بن محمد الملقب بالحمار، والذي قتل بعد قيام العباسيين، وقد سميت فترة حكم بني أمية التي تولاها

بنو أبي سفيان وبنو مروان بالعهد الأموي.

يستحق عهد بني أمية الدراسة والتحليل من جوانب متعددة:

١- من حيث الفتوحات وبسط حكام هذه السلالة لقدرتهم السياسية.

٢- من حيث التغييرات الأساسية التي طرأت علىٰ فروع الدين وأصوله.

٣- من جهة أنه لماذا لم تدم خلافة بني أمية مع كل تلك القدرة والعظمة أكثر من ٩٠ سنة.

فيما يتعلق بالموضوع الأول -وكما رأينا- توسع نطاق الحكم الإسلامي بشكل لافت للنظر منذ سنة ٤١ هـ وحتى سنة ١٣٢ هـ إلىٰ درجة أنّ خلافة بني العباس التي دامت ٥٠٠ سنة لم تضف علىٰ ذلك الشيء الكثير.

وأماالتغييرات الأساسية التي قام بنو أمية بإيجادها في الإسلام فهي باختصار ما يلي:

١- تبدل نظام الحكم الإسلامي الذي كان بعد النبي ﷺ يعتمد علىٰ البيعة النسبية[1] إلىٰ نظام حكم استبدادي وراثي.

يسعىٰ المستشرقون الغربيون إلىٰ إثبات أن معاوية قد طلب موافقة الناس ورضاهم في تعيين يزيد لولاية العهد، ودليل ذلك أن بعض الشخصيات المعروفة لم تقبل مبايعته، وبهذه المغالطة يريدون اعتبار انتخاب يزيد كانتخاب الخلفاء الراشدين، ولكن -كما ذُكِر سابقاً- فقد تم الإعداد لتسلم يزيد لولاية العهد من خلال إغداق الأموال والعطايا، وإعمال القوة، وأولئك الأشخاص الثلاثة الذين رفضوا مبايعة يزيد كان لهم محبة واحترام خاص في أنظار الناس تمنع معاوية من

١- بحسب العقائد الشيعية فإن الإمامة بأمر الله، وليست بيد الناس، وبعد النبي فإن وصيه للإمامة هو علي بن أبي طالب ﴿عليه السلام﴾، وبعده أحد عشر وصياً، معينين بالتحديد، من أبناء وذرية علي ﴿عليه السلام﴾.

إيذائهم، أو أن وضع الدولة السياسي ولقربه من عهد الخلفاء الراشدين لم يكن يتحمل المزيد من إعمال القوة. ونرىٰ في بعض المصادر أن معاوية عندما توجه إلىٰ الحجاز لينتزع بيعة الناس هناك ليزيد، عين في اليوم الذي ذهب فيه إلى المسجد حرساً علىٰ كل فرد من هؤلاء [الثلاثة] لكي يقتله إذا اعترض.

٢- تلاشت المساواة التي تعد أحد الأركان المهمة في النظام الإسلامي مع أن القرآن والسنة قد ألغيا كل الامتيازات، وجعلا من التقوى ملاك التفاضل عند الله. كان الأمويون يعتبرون العرق العربي هو العرق الأسمىٰ وكانوا يقولون: لمّا كان النبي قد بعث من العرب، فالعرب أفضل من غيرهم، كما أن قريشاً أفضل من غيرها من قبائل العرب.

٣- خصت الدولة نفسها بالدخل الذي يجب أن ينفق في الأمور العامة وبالغنائم الحربية، والفيء الذي يجب أن يقسم بين المجاهدين، وقام رجال الدولة بإنفاق هذه الأموال علىٰ تجملاتهم وأمورهم الشخصية.

٤- الاعتقال، والسجن، والتعذيب، والقتل، والإبادة العامة أحياناً (المجازر).

٥- كانت عادة الخلفاء الراشدين هي أنهم إن أرادوا أن يصدروا حكماً في أمر ما كانوا يرجعون أولاً إلىٰ القرآن وسنة النبي، وإن لم يحصلوا علىٰ بغيتهم كانوا يسألون عنه أصحاب النبي (المهاجرين والأنصار): هل سمعتم من رسول الله حديثاً في هذا الشأن أم لا ؟ وبعد كل هذه المحاولات إن لم يجدوا شيئاً كان الفقهاء من أصحاب البصيرة يعينون الحاكم باجتهادهم بشرط أن لا يتعارض هذا الحكم مع ظاهر القرآن والسنة، وأما في العصر الأموي فلم يتوان الخلفاء عن إصدار أي حكم حتىٰ ولو تعارض مع القرآن والسنة. وكما ذكرنا أيضاً وخلافاً لقول رسول الله الصريح والواضح[1] فقد اعتبر معاوية زياداً ابناً لأبي سفيان، وأخاً له عن طريق محرم.

١- «الولد للفراش وللعاهر الحجر».

٦- كما نعلم فإن في الفقه الإسلامي أحكاماً لمجازاة المجرمين والجناة تعرف بالحدود والديات، ويجب أن يحاسب المجرم طبقاً لهذه الأحكام ولكن الجزاء والعقاب في العهد الأموي لم يكن أبداً مطابقاً للجرم. كان الجزاء يرتبط برأي الحاكم فكان يعفو عن مجرم أحياناً، ويقتل بريئاً أحياناً أخرىٰ، وكانوا أحياناً يعينون عقاباً لجرم ما أكبر من الجرم الذي ارتكبه.

٧- مع أن فقهاء كبار وعظام قد تربوا في ظل الدولة الإسلامية فغالباً ما لم يكن أحد يلتفت إليهم، ولو أقدم فقيه علىٰ إصدار حكم شرعي معارض لمصالح الحاكم لم يكن يسلم من أذىٰ الحاكم، ومضايقته، وبذلك قاموا بتعطيل فرعين مهمين من فروع الإسلام وهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يكن يجرؤ أحد علىٰ منع الخليفة أو عامله من المعصية وارتكاب المحارم والآثام.

٨- نقضت حرمة الإسلام، وأصبحت إهانة الأمور المقدسة في نظر المسلمين أمراً شائعاً، فقد قاموا بحرق الكعبة، والمسجد الحرام، وإهانة تربة النبي، ومنبره، ومسجده، وأقاموا مجزرة في المدينة دامت ثلاثة أيام.

٩- لأول مرة في تاريخ الإسلام أقدموا علىٰ قتل أولاد النبي، وأسر نسائه، وبناته، وأسرته، وداروا بهنّ في المدن.

١٠- شاعت من جديد أشعار المديح والتملق[1] التي كانت رائجةً في العصر الجاهلي والتي تركت في عهد النبي، واعتبرت أمراً مذموماً ومكروهاً، وراح شعراء بني أمية يبالغون في مدح الخليفة، والحكام بأوصاف وأفعال غريبة عنهم، وبتعريتهم من أوصافهم الحقيقية القبيحة.

١١- ظهرت طبقة من العلماء من طلاب الدنيا وباعة الدين الذين كانوا يفضلون رضىٰ الحكام علىٰ رضىٰ الله، وقام هؤلاء بتأويل ظاهر آيات القرآن،

١- راجع قسم الشعر والأدب التالي من نفس هذا الكتاب.

وأحاديث النبي، حسب ميولهم، ورغباتهم، لدعم صحة أفعال الحكام، وأقوالهم.

١٢- ازداد التعلق ببهارج الحياة، وزخارفها، بالمأكل والملبس والمسكن والأثاث، يوماً بعد يوم، وبنيت قصور فخمة علىٰ طراز قصور الرومان، ومصايف، ومشاتي، وحمامات فخمة، في مقر ومراكز الحكم، وحتى في أماكن الصيد.

١٣- شاع شرب الخمر، وابتياع الجواري المغنيات، ومجالسة النساء إلىٰ درجة أن أصبح الحديث عن النساء والطعام والشراب هو حديث بعض الخلفاء، والأمويين اليومي.

وضع اللغة في الدول المفتوحة

الجنود العرب الذين انطلقوا من شبه الجزيرة نحو الشرق والشمال كانت لغتهم عربية كما نعلم. وبالطبع فإن أولئك الذين يحاورون قادة هذه الجيوش يجب أن يتكلموا بالعربية، بينما يتكلم السكّان مع بعضهم بلغتهم المحلية، وهكذا أصبحت اللغة العربية هي لغة الدولة الرائجة والرسمية، وفي عهد عبد الملك، وحكم الحجاج، قام صالح بن عبد الرحمن بتحويل لغة ديوان المحاسبات من اللغة البهلوية إلىٰ العربية، وفي الشام أيضاً تم تحويل لغة الكثير من الدواوين من اليونانية إلىٰ العربية.

ولأن اللغة الرائجة في سورية وفلسطين والأردن هي اللغة الآرامية وهي قريبة من العربية، فإن السكان غير العرب الذين دخلوا الإسلام تقبلوا اللغة العربية بسرعة، ولكن هذا التغيير في مصر استغرق مدة قرنين كاملين، ويبدو أن اللغة القبطية استبدلت بالعربية في القرن الثالث الهجري.

ونعلم أن الحكام لم يمارسوا أي ضغط علىٰ الناس من هذه الناحية للتحدث باللغة العربية، أو الكتابة بها.

أتقن الايرانيون الذين تجمعوا في المنطقة الشرقية في مدن البصرة والكوفة

وواسط اللغة العربية جيداً، وأدخلوها إلىٰ الأجهزة الحكومية، وقد ألف بعض علمائهم كتباً في قواعد ودستور (نحو) اللغة العربية، وقد ذكرنا سبب ذلك في مكان آخر[١] فقبل دخول الإسلام وانتشاره في ايران كانت اللغة والأدب الفارسي قد قطعا مراحل متقدمة من التكامل، وأوجدا ثقافة ناضجة وغنية. وعندما احتكت اللغة الفارسية بالعربية أخذت منها ما تحتاج من الألفاظ الدينية، وفي المقابل وبدرجة أكبر منحتها العديد من الألفاظ الإدارية والسياسية والفلسفية والأدبية. ولم يشارك العلماء والأدباء الفرس في تكامل دستور اللغة العربية (النحو والصرف) وحسب، بل زادوا علىٰ تكامله من خلال إدخال المفاهيم العلمية إليه.

ذكرنا في مكان آخر أيضاً بأن الاعتقاد بأن العرب قد أجبروا سكان المناطق الخاضعة لسيطرتهم علىٰ تقبل اللغة العربية ادعاء لا قيمة له علمياً.

كان العرب الذين نقلوا رسالة الإسلام إلىٰ المناطق المفتوحة من كلا جهتي الجزيرة العربية مجموعتين:

جماعة تعمل لإعلاء كلمة الله، وجماعة كانت تبتغي الدنيا باسم الدين والجهاد في سبيل الله. الجماعة الأولىٰ كانت ترغب بتعليم القرآن، والصلاة، والأحكام الإسلامية للناس، والجماعة الثانية كانت تهدف إلىٰ الحصول علىٰ الخراج والجباية. وكان هؤلاء غير مدركين لهذه النقطة وهي أن فرض اللغة والثقافة أيضاً هو أحد سبل التسلط.

الشخص الذي حول دواوين الدولة من الفارسية إلىٰ العربية كان ايرانياً أصيلاً واسمه صالح بن عبدالرحمن .وذاك الحاكم الذى وقف في وجه الشاعر الذي كان

١- [في مقالة تحت عنوان] «زبان وادبيات عرب وأهميت آن از لحاظ زبان فارسى» [=اللغة العربية وآدابها وأهميتها من جهة اللغة الفارسية]، (نشرية دانشكدهٔ ادبيات دانشگاه تهران، يادنامه دكتر معين).

مّداحاً للإيرانيين وقال له جائزتك هي أن أسمح لك بالخروج من هنا وأنت حي، كان ابن ايراني من أهل طالقان[١]، وأما العلماء الايرانيون الذين كانوا يكتبون كتبهم باللغة العربية في القرون الإسلامية الأولىٰ فليس لأن أحداً كان يلزمهم بذلك، بل لأن اللغة العربية كانت هي لغة العلم، والسياسة، والدين، في كافة أنحاء العالم الإسلامي، وكان علماء هذه المناطق يكتبون كتبهم باللغة العربية لكي يستفيد منها كل الملمين باللغة العربية؛ وعندما كانوا يودون الكتابة لقومهم كانوا يختارون اللغة الفارسية. ونرىٰ مثالاً علىٰ ذلك في الكتب العلمية للعهد الساماني والغزنوي.

النِّحَل

في عهد الحكم الأموي ومنذ النصف الثاني من القرن الأول ظهرت نِحَل فكرية جديدة غالباً ما كان العراق مركزاً لها. وسبب ذلك هو أن بعض مدن العراق ومن جملتها الكوفة كانت أحسن مكان لالتقاء العقائد والأفكار الفلسفية والدينية المختلفة.

ويقال أن أول موضوع طرح للبحث كان بحث الجبر والتفويض، وسمي أنصار الجبر بالجبرية، وأنصار التفويض بالقدرية.

ونرىٰ علائم ظهور هذا البحث بين المسلمين بعد معركة صفين، حين سأل أحدهم[٢] الإمام علي عليه السلام: مسيرنا إلىٰ الشام أكان بقضاء الله وقدره؟ وعندئذ شرعت كل جماعة تستفيد من الأحاديث التي تؤيد عقيدتها لانتقاد ولوم الجماعة الأخرىٰ.

١- الصاحب بن عباد.

٢- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١٨، ص٢٢٧. مروياً عن الأصبغ بن نباتة.

في العهد الأموي أسست فرقة أخرىٰ باسم المرجئة، وراح الأمويين يستفيدون من هذه الفرقة في تبرير المظالم التي ارتكبوها، وكما ذكرنا فإن إحدىٰ فرق الخوارج تعد مرتكب الكبيرة خالداً في الجحيم. وفي المقابل كان المرجئة يقولون: ينبغي ترك ذلك إلىٰ الله، وكان عذرهم في هذا المجال هو أنه لو أُعمل التشدد هنا لتفرق المسلمون! فكانوا بتفكيرهم هذا يؤيدون تصرفات معاوية والخلفاء الآخرين في قتل الناس الأتقياء، والغارة علىٰ الكوفة والبصرة وبقية المدن.

استمد المرجئة أساس فكرهم من [فهم خاطىء] للآية التالية: «وآخرون مُرْجَون لأمر الله إمّا يُعذبهم وإمّا يتوب عليهم والله عليم حكيم».[1]

وتمخض عن اصطدام فكر الجبرية والقدرية والمرجئة بعضهم مع بعض ولادة مدرسة فكرية معتدلة تسمىٰ بالمعتزلة. ويقال أن سبب ظهور هذا الطرز من التفكير هو أن الحسن البصري كان يعتبر مرتكبي الذنوب الكبيرة في حكم الكَفَرَة ولكن كان لأحد تلامذته، واسمه واصل بن عطاء، رأياً آخر، فكان يقول: مثل هذا الشخص في منزلة بين الكفر والإيمان. ولمّا انفصل واصل بن عطاء قال الحسن: «اعتزل عنّا». وقد ذُكرت آراءٌ حول أخرىٰ سبب هذه التسمية. وقد ازدهرت المدرسة المعتزلية في العصر العباسي، وأبدت رأيها في كثير من المسائل العقائدية المختلفة. وسوف نعرض لهذه المدرسة بمزيد من التوضيح في حينه.

ولكن لماذا تلاشىٰ الحكم الأموي بهذه السرعة؟

رأينا أنه قد تم في عهد الحكم الأموي فتح أنحاء أفريقية واسبانية، وكذلك المنطقة الشرقية حتى الجهة الأخرىٰ من نهر سيحون ووادي السند.

برز في هذه السلالة رجال ذوو خبرة وتجربة وإرادة استطاعوا بالقوة أو التدبير توسيع نطاق النفوذ الإسلامي بحيث لم يضف إليه الكثير في العهود التالية، ولكن

١- التوبة/٩: ١٠٦.

كل هذه المساعي بقيت عديمة الفائدة في مدة أقل من المتوقع، لماذا؟

هل -كماذكروا- أن ظلم الحكام الأمويين وقسوتهم قد حرض الناس عليهم وجعلهم يعملون علىٰ الثورة ضدهم؟ وهل تنفر الناس منهم لما أدخلوه من بدع إلىٰ الإسلام؟

من الطبيعي أن يكون الإيجاب هو جواب هذا التساؤل، ولكنه ليس العلة المطلقة لزوال الحكم الأموي! أعتقد أنه يجب أن نبحث عن علة أخرىٰ تقبع خلف هذه العلل التي ذكرناها، وهي فقدان العامل الذي منح عرب الصحراء قدرة التغلب علىٰ الامبراطوريتين العظيمتين الفارسية والرومية، فما هو هذا العامل؟

من المسلم أن الدين هو العامل الرئيسي لذلك، ولكنا قد رأينا في بداية تأسيس الحكم الإسلامي أن هذا العامل كان يوفي إلىٰ النتيجة المطلوبة عندما كان ينجح في إيجاد الوحدة والتضامن بين العرب القحطانيين والعدنانيين. وقد ضعف هذا العامل في عهد بني مروان شيئاً فشيئاً ثم تلاشى نهايئاً.

إذاً كان لفقدان العامل الذي أدى إلىٰ انتشار الإسلام في أنحاء شبه الجزيرة، ورواجه في البلدان الأخرى، دور مؤثر في سقوط حكم بني أمية وزواله. وتوضيح ذلك: في السنة الحادية عشر للهجرة وبعد تصفية المرتدين عن الدين ظهرت قوة واحدة تشمل جميع القبائل أدركت بأن عليها نسيان النزاعات الداخلية والالتفات لمحاربة غير المسلمين باسم الله، وقد اختلت تلك الوحدة، وزالت في الفترة الثانية من الحكم الأموي، وخاصة في معركة مرج راهط عندما تقابل الجنوبيون مع الشماليين وجهاً لوجه، وبدأت الفرق والأحزاب تظهر في شبه الجزيرة العربية.

هؤلاء الذين تولوا الخلافة بعد معاوية (باستثناء عبدالملك) وبدلاً من الاستفادة من هاتين القوتين، وتسخيرهما لمصلحتهم راح الخليفة منهم يقرب إحداهما ويدعمها ويبعد الأخرى عن ساحة القدرة عن جهل أو عن إجبار، ولأن هذين الفريقين قد انتشرا في كافة أنحاء البلاد الإسلامية، فكلما حصل أحدهما علىٰ دعم من

مركز الحكم، فإن ذلك كان يترك آثاراً واضحة في كافة أنحاء العالم الإسلامي.

الإسلام في البلدان المفتوحة في العهد الأموي

عندما كان البحث في وحدة شبه الجزيرة العربية، قلنا أنه بعد إخماد وتصفية المرتدين، أدرك سكان البادية والخيام وزعماء القبائل بأن عهد الحياة الفردية والأسرية والقبلية قد ولّىٰ، وعليهم جميعاً الخضوع للمدينة، وإطاعة الخليفة المتواجد فيها. وأدىٰ توحد هذه القوة إلىٰ انتشار رسالتهم الدينية، وطبيعي أن هؤلاء القوم المستعدين لتبليغ الإسلام ونشره في البلدان المجاورة لم يكونوا علىٰ معرفة تامة بالإسلام، ولم يكونوا جميعاً يبغون شيئاً واحداً من نقل هذا الدين من الحجاز إلىٰ المناطق الأخرىٰ.

كانت هذه الرسالة لقسم من هؤلاء القوم وسيلة للحصول علىٰ الغنائم. وهو نفس الشيء الذي واجهه المسلمون في زمان رسول الله ﷺ وقد ورد ضمن حديث عن رسول الله ﷺ وقام البخاري بذكره في بداية كتابه:« ... فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته الىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه»[1]. ومن المسلم أن بعض القوىٰ المتأهبة للفتوحات لم تكن في عداد الفئة الأولىٰ، ولكن ومنذ الأيام الأولىٰ واتباعاً للسنة الرائجة في حياة النبي ﷺ أينما اتجه أفراد الجيش كان المتخصصون بتعليم القرآن وأحكام الفقه ينطلقون وراءهم. هذه الجماعة كانت تعلم الإسلام للناس عن إيمان، وليس كما تنشد بعض الحكومات وتريد. ولأن سلوك أكثرية هؤلاء كان مطابقاً لأفعالهم، فقد تمكنوا من تربية مسلمين ذوي اعتقاد قوي وعمل بأحكام الدين في

١- الحديث رقم ١١٢٨ من القرص المضغوط البيان: ١,١

كل البلدان التي أتوا إليها. وهؤلاء كانوا ينتقدون الحكام والخلفاء بعد النبي ﷺ عندما يصدر منهم قول أو فعل فيه منافاة ومعارضة لأحكام الشريعة، وهؤلاء هم الذين وضعوا لبنات الفقه الإسلامي الأولىٰ في الأمور الحقوقية والجزائية، واستخرجوا أحكاماً من ظاهر آيات القرآن، وسنة النبي، وسيرة المسلمين انتشرت في أواخر العهد الأموي، وبداية العهد العباسي بما يتناسب مع تلك الأيام.[١]

واتخذت الفتوحات الإسلامية في العهد الأموي شكل احتلال وغارات. وكان الجنود يحاربون لأجل الغنائم، والحاكم يسعىٰ لملىء خزانته. ولم تتوقف الغارات إلا في عهد عمر بن عبدالعزيز الذي أمر بوقف الغزو والغارات والمرابطة على الحدود لحماية حدود الدولة الإسلامية فقط.

العلوم في ذلك العصر

عندما تحدثنا عن جنوب شبه الجزيرة العربية ذكرنا بأن هذه المنطقه تمتلك حضارة عريقة تمتد إلىٰ مئات السنين قبل ميلاد السيد المسيح، ولكن هل تقدمت هذه الحضارة في غير الجوانب المعمارية والزراعية أم لا؟ وهل ظهر في ظل حكومات هذه المناطق علماء حققوا وبحثوا في بقية العلوم النظرية أو العملية؟

إن النفي هو الإجابة الصحيحة عن هذا التساؤل[٢]. ومن بين العرب من سكان الحجاز والمنطقة الشمالية والشرقية من شبه الجزيرة العربية كان هناك أفراد علىٰ

١- سوف يتم الحديث حول فقه الشيعة، وكيفية تأسيسه عند الحديث عن تحليل تارخ عصر العباسيين، لأن الأئمة كشيعتهم كانوا يعانون من الكبت والقمع الشديدين في العصر الأموي مما اضطرهم للتقية بشكل أكبر.

٢- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ج١، ص٥١٢.

اطلاع بالعلوم المنتشرة والمتداولة في ايران والامبراطورية الرومية نظراً لمجاورتهم لهذه المناطق. ولكن من المسلم أنه لم يكن لشبه الجزيرة العربية أي دور في تأسيس أو نشر هذا النوع من العلوم. ومع ظهور الإسلام كان البعض مشغولاً بدراسة الطب في مدرسة جنديسابور، ومن بينهم الحارث بن كلدة (المتوفىٰ سنة ٢٣ هـ). وبدأت ترجمة الكتب اليونانية والسريانية إلىٰ العربية في النصف الأول من القرن الهجري الأول ككتب الطب والصيدلة. ومن بين الخلفاء الأمويين كان لعبد الملك بن مروان اهتمام بعلم الأفلاك والنجوم، حتى أنهم ذكروا بأنه كان يصطحب المنجمين معه في حروبه.(١)

وقد ظهرت الأبحاث الكلامية ظاهراً لأول مرة في النصف الأول من القرن الهجري الأول، وتشير الوثائق إلىٰ طرح مسألة الجبر والتفويض في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام علىٰ طاولة البحث والسؤال(٢).

الشعر والأدب حتى نهاية العهد الأموي

إن تتبع الأشعار والخطب والعبارات والفقرات القصيرة المنقولة من العصر الجاهلي تشير إلىٰ أن الأدب في قسم من شبه الجزيرة العربية -بعيداً عن فصاحة وبلاغة عصره الخاصة التي كان يتمتع بها- لأنه كان نتاج أرض قليلة السكان شحيحة المياه ومنعزلة عن بقية بقاع العالم وبيئة لحياة بدوية كان عارياً من المفاهيم الذهنية الدقيقة والأفكار الفلسفية العميقة ودقة التعابير ورقة المعنىٰ.

١- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، (القاهرة: المطبعة البهية المصرية، ١٣٤٦ هـ ق) ٢ج، ج٢، ص١١٩.

٢- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١٨، ص٢٢٧.

ولقد شبهوا أدب العصر الجاهلي بصحراء شبه الجزيرة العربية فهو جاف من جهة، ونقي وخال من التعقيدات والأمور الدقيقة التي تنتج عن أفكار تنشأ في مناطق مثيرة للخيال والأوهام الذهنية من جهة أخرىٰ. ولكن لا نقصد هنا أن الشعر والأدب الجاهلي يفتقد تماماً إلىٰ المفاهيم الخيالية واللطف والنضارة والجمال اللازم للشعر.

إن شاعر هذه المنطقة يعبر عن المعنى الدقيق لكلمة شاعر،لكنّ درجة تأثره بالصور الخيالية مساو تقريباً لتأثره بالعوامل الطبيعية وغير الطبيعية في هذه المنطقة وإدراكه للطبيعة هو المقدار الذي تعلمه من مرور الزمان وتعاقب الليل والنهار.

عندما يصف طرفة بن العبد الموت فإن ذهنه لا يلتفت أبداً إلىٰ ماذا سيحل بالإنسان بعد الموت، فهل الموت هو نهاية كل شيء أم أن بعد الموت عالم آخر؟

لقد شهد موت الآخرين ويعلم أن هذا الجمل سيبرك في بيته يوماً ما، لذلك يعبر عن الموت هكذا:

أرىٰ الموت أعداد النفوس وَلا أرَىٰ
بعيداً غَداً ما أَقْرب اليَوْم مِن غَدِ
أرىٰ قَبر نَحّام بَخيل بماله
كَقَبر غَويٍّ في البطالةِ مُفسد
ترى جُثوتين مِن تُراب عليهما
صفايح صُمٌّ من صفيح مُنَضَّدِ

وفي هذا الوصف لم يلتفت الشاعر إلىٰ ماذا سيقول الناس في هذين الشخصين بعد موتهما: هل سيذكرون الكريم بالمديح والبخيل بالذم أم لا؟

والبيتان التاليان ومع أنها من أرق وأكثر الأبيات إفادة، هما تعبير بسيط عما

يدور حول الشاعر:

ستبُدي لَكَ الأيّامُ ما كُنت جاهلاً وَيأتيك بالأخبار مَنْ لَمْ تُزَوِّد
وَيأتيك بالأخبار مَن لَم تبع لَهُ بتاتاً وَلَم تَضرب له وَقتَ مَوعدِ

وكما نعلم فإن أغلب الشعر الجاهلي يتضمن حماسات قومية ومفاخرات قبلية، ومدح للأقارب، وذم للأعداء، أو وصف لجماليات الطبيعة.

عندما ظهر الإسلام في مكة، كان المشركون يستفيدون من سلاح الشعر أيضاً لمواجهة النبي والمسلمين وكان رسول الله يقول: «أجيبوهم بالشعر فإنه أمضىٰ الأسلحة» وبذلك ظهر نوع من الشعر الحماسي في عصر النبي عليه السلام يعتمد علىٰ التفاخر المعنوي. وكان الشاعر المسلم حسان بن ثابت الأنصاري أحد الوجوه المعروفة في عصر النبي، وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك»[١]

ومن خلال ظاهر بعض الآيات[٢] ومضمون بعض الروايات ظن البعض أن الإسلام قد ذمّ الشعر والشعراء، مع أن الأمر ليس كذلك، فللشعر منزلة رفيعة من وجهة نظر الإسلام إلىٰ درجة أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ من الشعر لحكمة»[٣] وكما تعلمون فإن حسان بن ثابت الأنصاري كان شاعر معسكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان شعراء

١- «لا يزال حسان مؤيداً بروح القدس» (المعجم المفهرس، ذيل «قدس») وفي الروايات الشيعية هذا الدعاء في حقّ حسّان مقيد بهذه الجملة: «ما نصرتنا» (سفينة البحار، ج ١، ص٢٨). [بحار ج ٢١، ص٣٨٦].

٢- الشعراء/٢٦: ٢٢٦-٢٢٤.

٣- البحار، ج ٧١، ص ٤١٥.

العرب يقرؤون أشعارهم للنبي ﷺ أحياناً وكان ينظر إليهم بعين الاحترام.[١]

الشعر المرفوض من الناحية الدينية هو الشعر الذي يتعرض لأعراض وحرمة الآخرين ويروج للمعاصي، أو الذي لا فائدة منه، أو الذي يُقال في مدح شخص لطمع دنيوي أو مصلحة شخصية[٢] ولكن من المعلوم أن الشعر هو انعكاس للإحساس والعقيدة والأوضاع الاجتماعية الأخرىٰ.

حافظ الشعر علىٰ أسلوبه القديم في العهد الراشدي مع اختلاف واحد وهو أنهم أضافوا إليه طعم ولون الأخلاق الإسلامية:

بني عامر إن تنصروا الله تنصروا ... وإن تنصبوا لله والدين تُخذلوا
وإن تهزموا لا يُنجكم منه مهرب ... وإن تثبتوا للقوم والله تقتلوا[٣]
نَبيٌّ أَتانا بَعدَ عيسى بناطقٍ ... مِنَ الحق فيه الفضل منه كذالكا
أمينا علىٰ الفرقان أَوَّل شافع ... وآخر مبعوث يجيب الملائكا[٤]

وفي هذا العصر أيضاً نجد بعض الشعراء الذين أحيوا الأسلوب القديم لأجل كسب المال أو لما يقتضيه الوضع وشرعوا بالمدح والهجاء في غير موضعه وقصة الزبرقان والحطيئة هي قصة معروفة:

كان النبي قد ولىٰ الزبرقان بن بدر، وأقرّه أبو بكر بعد النبي علىٰ عمله، ثم قدم علىٰ

١- المصدر السابق.

٢- يُرجع إلىٰ مقالة المؤلف: «الشعر و أثره في الأخلاق والمجتمع»، همائي نامه، ص ٣٢١.

٣- للحارث بن مرّة، شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، (دار المعارف، ١٩٦٣ م)، ج ٢، ص ٥٤.

٤- المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢

عمر في سنة مجدبة ليؤدي صدقات قومه، فلقيه الحطيئة، فقال له الزبرقان وقد عرفه أين تريد؟ قال: العراق، فقد حطمتنا هذه السنة. قال: وتصنع ماذا؟ قال: وددت أن أصادف بها رجلاً يكفيني مؤونة عيالي وأصفيه مدحي أبداً، فقال له الزبرقان: قد أصبته، فهل لك فيه يوسعك لبنا وتمراً ويجاورك أحسن جوار وأكرمه، فقال له الحطيئة: هذا وأبيك العيش وما كنت أرجو هذا كله، قال: ومن أنت؟ قال: الزبرقان بن بدر، وكتب الزبرقان إلىٰ زوجته أن أحسني إليه وأكثري له من التمر واللبن وذلك في عام صعب مجدب فأكرمته المرأة و أحسنت إليه، فبلغ ذلك أنف النافة وكانوا ينازعون الزبرقان الشرف، فأرسلوا إليه إن ائتنا فأبىٰ عليهم، فلما ألح عليه بنو أنف الناقة فأطمعوه ووعدوه وعد عظيماً، فلما ألحوا علىٰ الحطيئة أجابهم، وقال أما الآن فنعم أنا صائر معكم فتحمل معهم فضربوا له قبة وربطوا بكل طنب من أطنابها جلة هجرية وأراحوا عليه أبلهم وأكثروا له من التمر واللبن وأعطوه لقاحا وكسوة وجعل الحطيئة يمدحهم من غير أن يهجو الزبرقان وهم يحضونه على ذلك ويحرضونه فيأبى ويقول لا ذنب للرجل عندي حتىٰ أرسل الزبرقان إلىٰ رجل من النمر بن قاسط يقال له دثار بن شيبان فهجا بني أنف الناقة، فحينئذ قال الحطيئة يهجو الزبرقان، ويناضل عن بغيض (مضيفه) قصيدته التي يقول فيها:

دَع المكارم لا تَرْحَل لِبُغْيتها ... وَاقعُد فإنَّك أنت الطاعمُ الكاسي
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين اللّه والناس

فاستعدىٰ عليه الزبرقان عمر بن الخطاب، فرفعه عمر إليه، واستنشده فأنشده، فقال عمر لحسان: أتراه هجاه؟ قال: نعم، وسلح عليه! فحبسه عمر.

وفي عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين وبسبب التغيير الأساسي الذي أوجدته التعاليم الإسلامية في شبه الجزيرة العربية من جهة، ودخول القبائل المختلفة تحت

غطاء الأخوة الإسلامية من جهة أخرىٰ، والأهم من ذلك انشغالهم بالفتوحات في خارج شبه الجزيرة العربية قلّت أهمية الشعر الحماسي المبتني علىٰ المفاخرات القبلية والطائفية ولكن وبمجرد نشوب معركة الجمل سنة ٣٥هـ وبعدها معارك صفين والنهروان وشروع التنافس القحطاني والمضري وغيرهما من القبائل بالظهور من جديد شيئاً فشيئاً فإننا نرىٰ في الرجز الذي قيل في حربي صفين والنهروان أن بعض الشعراء والمحاربين راحوا يمدحون قبائلهم ويخصون قبيلة الأعداء بالذم والانتقاص والتحقير وقلما التفتوا إلىٰ هذه النقطة الهامة وهي أنهم يتحاربون من أجل الدين وبأمر من إمام المسلمين.

عندما انطلق زياد إلىٰ الكوفة بأمر من علي عليه السلام وساندته قبيلة أزد في انتصاره علىٰ تميم فإن أحد شعراء قبيلة أزد وصف هذا الحادث وكأنه شاعر جاهلي يمجد أيام العرب وملاحمهم فلا نجد في شعره إشارة إلىٰ أننا قد أطعنا خليفة المسلمين بل يقول:

رددنا زياداً إلىٰ داره ... وجار تميم دخاناً ذهب[1]

وازدهر شعر المدح والهجاء من جديد بعد شهادة الإمام علي عليه السلام ووصول معاوية للخلافة وتغلب الشام علىٰ العراق.

قام بعض الشعراء في العهد الأموي بالانضمام إلىٰ بلاط الشام وقرض ما يريدونه من الأشعار في مدح بني أمية وذم المخالفين والمعارضين لهم، وأفضل مثال علىٰ هؤلاء كعب بن جُعَيل والمتوكل الليثي، وعبدالله بن هُمام السلولي، وأبو العباس الأعمىٰ، ومسكين الدارمي، والأخطل، وعدي بن رقاع وآخرون، يقول كعب بن

١- يفضل الرجوع إلىٰ بعد خمسين سنة ص٧٤. وذكرنا بقية الأبيات في هوامش الصفحة ٢٥٩ من هذا الكتاب.

جُعَيل:

أرىٰ الشامَ تَكرَهُ مُلكَ العراق وَأَهلُ العراق لَهُم كارهوُنا
وَقالوا علي إمامٌ لنا فَقُلنا رضينا ابن هندٍ رضينا

كان قائل هذا الشعر يعيش في فترة صراع جيش علي عليه السلام مع معاوية، وكما نرى فقد برز في شعره العداء بين الشام والعراق من جديد وكأنه يتحدث عن قرن كامل قبل الإسلام أي عن نزاع الغساسنة مع اللخميين

ويقول مسكين الدارمي:

بني خُلفاء الله مهلاً فإنما يُبوئها الرحمن حيث يُريدُ
إذا المنبرُ الغربي خلّىٰ مكانهُ فإن أمير المؤمنين يزيد[1]

وقال يزيد بن مفرغ في مدح مروان بن الحكم:

وَأَقَمْتُمُ سُوق الثناء وَلم تَكُن سُوقُ الثناء تُقامُ فى الأسواق
فكأنما جَعَل الإلهُ إليكُمُ قبضَ النفوس وَقِسمة الأرزاقِ

ويقول عدي بن الرقاع في مدح الوليد بن عبدالملك:

١- شوقي ضيف، الكتاب ذاته، ج٢، ص٣٣٧.

صـلىٰ الذي الصـلواتُ الطـيبات لهُ
والمؤمنون إذا مـا جـمّعوا الجـمعا
هُـو الذي جَـمَعَ الرحـمنُ أُمَّـته
عـلىٰ يـديه وكـانوا قـبلَه شـيعا
إن الوليـد أمـير المـؤمنين لَـه
مـلك عـليه أعـان اللـه فـارتفعا

ومن الواضح أن شعراء البلاط هؤلاء وطبقاً للعادة الرائجة كـانوا يـتقاضون أموالاً كثيرة علىٰ ما يسردونه من الشعر.

والخليفة الأموي الوحيد الذي كان يرفض المديح، ولم يكن يدفع شيئاً للشعراء الذين اتخذوا من المدح مهنة لهم، أو كان يدفع لهم القليل هو عمر بن عبدالعزيز.

وفي مقابل شعراء بني أمية هناك شعراء من الشيعة أيضاً كانوا يمدحون آل البيت عندما يرون ظلم آل أبي سفيان لهم، ومظلومية آل هاشم مـن دون أجـر، وكـان مدحهم هذا أحياناً يؤدي بهم إلىٰ السجن، أو إلىٰ تعرّضهم للأذىٰ والمضايقة.

يقول عوف بن عبد الرحمن بن الأحمر الأزدي في حادثة كربلاء:

ليـبك حُسـيناً كُـلَّما ذَرَّ شـارق
وعندَ غَسوق اللـيل مَـن كـان بـاكـيا
وَيـا ليـتني إذا كـان كُـنت شـهدتهُ
فـضاربت عـنه الشـانئين الأعـاديا
وَدافعت عـنه مـا اسـتطعتُ مـجاهداً
وَأَعـملت سـيفي فـيهم وسـنانيا

ويقول عبدالله بن كثير السهمي:

إنّ امـــرىء أَمست مـعايبهُ حُبّ النـــبي لَـغَير ذي ذنب
وبـني أبـي حسـن وَوالدهـم من طاب في الأرحام والصلب
أيُـــعدُّ ذنـــباً أن أحُـبهم بـــل حـبهم كـفارة الذنب

وبدأ الفرزدق قصيدته الميمية بهذا البيت:

هذا الذي تـعرف البـطحاء وطأتـه والبـيت يـعرفُهُ وَالحـل والحـرمُ

وقد قام عبدالرحمن الجامي بترجمة هذه القصيدة إلىٰ الفـارسية وجـاء بهـا في سلسلة الذهب[1].

وكما نعلم فإن هشام قد شاهد حرمة علي بن الحسين في نظر الناس في المسجد الحرام ولكنه تظاهر بعدم معرفته وسأل من هذا الذي فسح الناس له المجال ليستلم الحجر الأسود، فقال الفرزدق في جوابه قصيدته المشهورة.

كان نظم هذه الأبيات وانتشارها علىٰ الألسن أمراً في غاية الخـطورة، وقـد يؤدي إلىٰ الموت، ولكن هذا الشاعر ولحبه لآل البـيت، وتأنـيبه وذمّـه للـخليفة الأموي قد غامر بنفسه وعرضها لغضب الأمويين عليه.

وكان أبو المستهل كميت بن زيد الأسدي(٦٠-١٢٦ هـ) أبرز هؤلاء الشعراء الذي نظم سلسلة من الأشعار في مدح بني هاشم عرفت بـ«الهاشميات» وقد طبعت

١- يُرجع إلىٰ: چراغ روشن در دنياي تاريك [المصباح المنير في الدنيا المظلمة]، سيد جعفر شهيدى [المؤلف]، (تهران: محمد حسن علمي، بدون تاريخ)، ص١١٣.

مرات عديدة، وترجمت إلىٰ لغات أخرىٰ أيضاً. وقد نظم الكميت أشعاراً كثيرة في مدح الإمام علي عليه السلام، وفي حادثة غدير خم، وفي فاجعة كربلاء، وفي مظلومية آل محمد.

وعندما دخل الكميت إلىٰ المدينة ذهب إلىٰ الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ليلاً وقرأ عليه قصيدته في شهداء كربلاء فقال الإمام الصادق: «والله يا كميت لو كان عندنا مال لأعطيناك منه، ولكن لك ما قال رسول الله لحسان بن ثابت : لا يزال معك روح القدس ما ذببت عنّا»[1] فخرج من عنده فأتىٰ عبدالله بن الحسين ابن علي فأنشده، فقال: يا أبا المستهل! إن لي ضيعة أعطيت فيها أربعة آلاف دينار وهذا كتابها، وقد أشهدت لك بذلك شهوداً وناوله إياه، فقال: بأبي أنت وأمي إني كنت أقول الشعر في غيركم أريد بذلك الدنيا، ولا والله ما قلت فيكم إلا لله، وما كنت لآخذ علىٰ شيء جعلته لله مالاً ولا ثمناً، فألحّ عبدالله عليه وأبىٰ من إعفائه، فأخذ الكميت الكتاب، ومضىٰ، فمكث أياماً ثمّ جاء إلىٰ عبدالله، فقال: بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله! إن لي حاجة، قال وما هي ؟ وكل حاجة لك مقضية، قال: وكائنة ما كانت؟ قال: نعم. قال: هذا الكتاب تقبله وترتجع الضيعة، ووضع الكتاب بين يديه فقبله عبدالله، ونهض عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب فأخذ ثوباً جلداً فدفعه إلىٰ أربعة من غلمانه، ثم جعل يدخل دور بني هاشم، ويقول: يا بني هاشم! هذا الكميت قال فيكم الشعر حين صمت الناس عن فضلكم، وعرض دمه لبني أمية فأثيبوه بما قدرتم، فيطرح الرجل في الثوب ما قدر عليه من دنانير ودراهم، وأعلم النساء بذلك فكانت المراة تبعث ما أمكنها حتىٰ أنها لتخلع الحلي عن جسدها، فاجتمع من الدنانير والدراهم ما قيمته مائة ألف درهم، فجاء بها إلىٰ الكميت، فقال: يا أبا المستهل! أتيناك بجهد المقل، ونحن في دولة عدونا، وقد جمعنا

١- البحار،ج٤٦، ص٣٤١. والرواية فيه عن الباقر عليه السلام.م

هذا المال، وفيه حلي النساء كما ترىٰ، فاستعن به علىٰ دهرك. فقال: بأبي أنت وأمي قد أكثرتم وأطيبتم وما أردت بمدحي إياكم إلا الله ورسوله، ولم أك لآخذ عليه ثمناً من الدنيا، فارردە إلىٰ أهله، فجهد به عبدالله أن يقبله بكل حيلة فأبىٰ.[١]

وبعيداً عن الشعراء الملتزمين فقد ظهرت جماعة أخرى من الشعراء تخصصت بالغزل ووصف جماليات الطبيعة والإنسان (وخصوصاً النساء) وأكبر مثال علىٰ هؤلاء عمر بن أبي ربيعة المخزومي (٢٣ - ٩٣ هـ ق)، والأحوص من أهل المدينة وينتمي إلىٰ الأوس، وعبدالله بن عمر بن عمرو حفيد عثمان بن عفان، وبشار بن برد والطخارستاني. وقد بدأت شهرة بشار في نهاية العصر الأموي.

ويمكن اعتبار شعر عمر بن أبي ربيعة وبشار بن برد انعكاساً للمجتمع الفاسد في العصر الأموي. قال ابن أبي عتيق: لم يُعص الله في شعر كما عُصي في شعر عمر بن أبي ربيعة، وقال سَوّار بن عبدالله الأكبر، ومالك بن دينار: لم يؤدِّ شعر بأهل المدينة إلىٰ الفسق كما فعل شعر هذا الأعمىٰ (بشار)، وقال واصل بن عطاء: من أمكر طرق الشيطان وأضلها أشعار هذا الأعمىٰ الملحد.[٢]

وفي هذا العصر كان ينشب أحياناً جدل في المديح أو الذم والهجاء بين الشعراء ويقوم كل شاعر منهم بهجاء الآخر عن تعصب قبلي وعشائري. وهجاء جرير (٢٨-١١٠ هـ ق) والفرزدق (المتوفى سنة ١١٤ هـ ق) كلٌ منهما للآخر مشهور جداً.

النثر العربي

تطور النثر في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين بشكل خاص وارتقىٰ سلم

١- المسعودي: نفس الكتاب، ج ٢، ص ١٥٩، (نقلاً عن الغدير، ج ٢، ص ١٨٧).

٢- «الشعر وأثره في المجتمع»، للكاتب، همائي نامه، ص ٣١٧.

الكمال وكان سبب ذلك تأثير القرآن الكريم، وحديث النبي من جهة، وضرورة الخطبة في صلاة الجمعة، والجماعة من جهة أخرىٰ حيث يتوجب على الخليفة والحاكم إعدادها، وفي العهد الأموي كان لاختلاط اللغة الفارسية بالعربية وتقليد الكتاب العرب للكتاب الفرس أثر كبير في هذا التطور.

فقد قام صالح بن نصر كاتب الحجاج بن يوسف الثقفي الايراني الأصل بنقل دواوين الرسائل من الفارسية إلىٰ العربية.

ويمكن اعتبار سالم مولى هشام بن عبدالملك استاذ عبدالحميد الكاتب ووالد زوجته وعبدالحميد الكاتب الايراني ومولىٰ بني عامر من العوامل المؤثرة في تطور النثر العربي، وخصوصاً عبدالحميد الكاتب أبرز كتاب العصر الأموي والشخص الذي أوجد تحولا كبيراً في النثر.

العمارة والمهن الأخرىٰ

عند البحث في خلافة الوليد بن عبدالملك تطرقنا إلىٰ فن العمارة في عصره وتطوره آنذاك. لقد بدأ التحول في فن العمارة الإسلامية بوصول معاوية إلىٰ الخلافة في الشام. وانتقاد أبي ذر لبناء قصر الخضراء أمر معروف في التاريخ.

ولا توجد اليوم أي آثار لتلك القصور ولا يمكن الحكم علىٰ الفن والمهارة التي استخدمت في بنائها في النصف الأول من القرن الهجري الأول ولا على مدىٰ تطوره وعلىٰ أي من الأساليب اعتمد، ولكن توجد في عصرنا هذا وفي مناطق متعددة من سورية والأردن آثار للقصور الصيفية والشتوية والحمامات التي تعود لعهد المروانيين مع أنه لا يمكن مقارنة أي بناء من هذه الأبنية مع الأبنية التي قام الروم بتشييدها في تلك المناطق.

وعلىٰ كل حال فإنها تشير إلىٰ محاولات بناتها وتقدم العمارة والفن في ذلك

العصر وكما ذكرنا سابقاً فإن المسجد الأموي (مع أنه تعرض لنشوب حرائق وبالتالي فَقَدَ ظرافته الأصلية) هو مثال للذوق والفن المعماري التركيبي.

ويمكن القول أن المهنة التي وصلت إلىٰ حد الإفراط والمبالغة في العصر الأموي في الحجاز وأدت إلىٰ الفسق والفجور والمفاسد هي مهنة الطرب والغناء. وتتبع التاريخ يظهر بوضوح كيف أن فقهاء المدينة ومكة والصحابة كانوا يكيلون الذم لأصحاب هذه المهنة، ولكن لم يكد النصف الثاني من القرن الهجري الأول يقارب علىٰ نهايته حتى أصبحت المدينة أهم مراكز تربية المغنين!!

صحيح أن جميع الخلفاء الأمويين ما عدا عمر بن عبد العزيز كانوا جميعاً يهيمون بسماع الموسيقىٰ وشرب الخمر، ولكن لماذا لم تكن دمشق مركزاً للمغنين؟ يقول شوقي ضيف في الجواب علىٰ هذا السؤال أنه لما كانت الأموال تتدفق من الأراضي المفتوحة إلىٰ المدينة، وكذلك الجواري والإماء والعبيد الذين أتي بهم واستقروا في المدينة وكان بينهم المغنين والمطربين، وهذا ما أدىٰ إلىٰ ازدهار هذه الحرفة في المدينة لدرجة أن بعض الفقهاء والزهاد كانوا يترددون علىٰ بيوتهم [!].(١)

ولكن وبعيداً عن هذا السبب يمكن القول أن المجزرة التي ارتكبها مسلم بن عقبة في المدينة والمجزرة الأخرى التي قام بها الحجاج في المدينة بعد ١٠ سنوات قد خلقت نوعاً من اللامبالاة عند عامة الناس، وعلى أثر تساهل حكام هذه المدينة، وأغلبهم من الأمويين والرجال المعروفين بالفسق واللامبالاة، ضعف الإيمان بالله والتمسك بالفقه الإسلامي لدى الناس، فكانوا يريدون بزعمهم التخلص من عذابهم وآلامهم الكلامه الداخلية من خلال اللجوء إلىٰ الخمر والموسيقىٰ، وبعد أن تمّ إعداد هذه السوق الجاهزة استفاد منها الخلفاء والحكام وبقية الناس اللاهثن وراء متع الدنيا.

١- شوقي ضيف، الكتاب ذاته، ج ٢، ص ٣٤٧.

قائمة المصادر *

١. الكتب

١. القرآن الكريم.
٢. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني.
٣. الأصنام.
٤. الأغاني، أبو الفرج الاصفهاني، دار الكتب المصرية، القاهرة.
٥. أنساب الأشراف. أحمد بن يحيىٰ البلاذري، تصحيح الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٣٩٤ هـ.
٦. بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت ١٤٠٣ هـ.
٧. البيان والتبيين، الجاحظ، (القاهرة: لجنة التأليف والنشر، ١٣٦٧ هـ ق).
٨. تاريخ الإسلام، الدكتور فياض.
٩. تاريخ مذاهب الإسلام (ترجمة الفرق بين الفرق) محمد جواد مشكور، (تبريز: مكتبة الحقيقة ١٣٣٣هـ ش).
١٠. تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري، افست عن طبعة بريل ١٨٧٩م.

---

* - لأسباب لا يعرفها المترجم لم يأت المؤلف بقائمة المصادر التي استفاد منها، خلافاً لما عودنا عليه في بقية كتبه، مع أنه ذكر في الهوامش المصادر والمراجع في أغلب الأحيان، واستدراكاً لما قد يكون من باب السقط المطبعي وتعميماً للفائدة، فقد قمنا باستخراج هذه القائمة من الهوامش علىٰ ما فيها من نقص عن معلومات الكتب أحياناً، ومن عدم الترتيب الأبجدي.م

١١. تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، مطبعة الهلال، القاهرة ١٩٠٢ م.

١٢. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، النجف: مطبعة الغري. ١٣٥٨ هـ.

١٣. تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، (دار المعارف، ١٩٦٣ م)، ج ٢.

١٤. تاريخ الخلفاء، السيوطي، تصحيح محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة: مطبعة السعادة ١٣٧١ هـ ق).

١٥. تاريخ الحضارة الإسلامية، جرجي زيدان، القاهرة: مطبعة الهلال، ١٩٠٢هـ ق.

١٦. تاريخ الإسلام السياسي، حسن إبراهيم حسن، (القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٦٧، ج ١.

١٧. تفسير التبيان.

١٨. جنايات التاريخ ج ١ و ٢.

١٩. چراغ روشن در دنياي تاريك [المصباح المنير في الدنيا المظلمة]، سيد جعفر شهيدى [المؤلف]، (تهران: محمد حسن علمي، بدون تاريخ).

٢٠. الحيوان، الجاحظ، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي.

٢١. الخوارج هم أنصار الإمام علي، سليمان بن داوود بن يوسف، الجزائر، غرداية.

٢٢. دائرة معارف مصاحب.

٢٣. زندگاني امام علي بن الحسين، سيد جعفر شهيدي، دفتر نشر فرهنگ اسلامى.

٢٤. زندگاني فاطمة الزهراء، سيد جعفر شهيدي. دفتر نشر فرهنگ اسلامى.

٢٥. سيرة ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار، تحقيق محمد حميد الله، طبع قونيه، ١٤٠١ ق.

٢٦. السيرة النبوية، ابن هشام، تصحيح محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة: مطبعة حجازي ١٢٦٥هـ ق).

٢٧. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تصحيح محمد أبوالفضل، إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٨٥ هـ.

٢٨.الصواعق المحرقة،ابن حجر الهيثمي، (القاهرة: مكتبة القاهرة، ١٣٨٥ هـ ق).

٢٩. العقد الفريد. أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٧٢ ق.

٣٠. الغدير، العلامة الأميني، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٨٧ هـ ق).

٣١.فتوح البلدان.

٣٢. الفخري، ابن الطقطقي، (بيروت: دار بيروت ١٣٥٨ هـ ق).

٣٣. الفخري، محمد بن علي بن طباطبا، دار بيروت، ١٣٨٥ ق.

٣٤. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، طبع دار صادر، ١٣٨٥ ق.

٣٥. كشف الغمة في معرفة الأئمة، علي بن عيسىٰ الإربلي، مكتبة بني هاشم، تبريز، ١٣٨١ ق.

٣٦. المحاسن والمساوىء، دار صادر.

٣٧. مروج الذهب ومعادن الجواهر، علي بن الحسين المسعودي، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٣٤٦ ق.

٣٨. المعجم المفهرس.

٣٩. المغازي النبوية.

٤٠. مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الاصفهاني، تصحيح أحمد صقر، (بيروت: دار المعرفة، بدون تا) .

٤١. الملل والنحل، محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٦٨هـ.

٤٢. مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهرآشوب، مطبعه علمية قم.

٤٣. النقود العربية لـ أنَسَتاس الكرملي.

٤٤.نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تصحيح: أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: مطبعة عيسىٰ البابي، ١٣٨٥ هـ ق).

٤٥. نهج البلاغة، مجموعة خطب أمير المؤمنين، (بيروت: مكتبة الأندلس، ١٣٧٤هـ ق) ج ٢.

٤٦. وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، ابن خلكان، تصحيح محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: مكتبة النهضة، ١٣٦٧ هـ ق).

٤٧. الهفوات النادرة، أبو الحسن محمد بن الهلالي الصابي، تصحيح الدكتور صالح الأشتر (دمشق: مجمع اللغة العربية ١٣٧٨ هـ ق).

٢. المقالات

١. «زبان وادبيات عرب وأهميت آن از لحاظ زبان فارسى» [=اللغة العربية وآدابها وأهميتها من جهة اللغة الفارسية]، (نشرية دانشكدهٔ ادبيات دانشگاه تهران، يادنامه دكتر معين). للمؤلف.

٢«الشعر و أثره في الأخلاق والمجتمع»، همائي نامه، ص ٣٢١. للمؤلف.

٣. «نظرة إلىٰ وقائع القرن الهجري الأول»، يغما، (١٣٤٨)، ص ٦٣٥. للمؤلف.

فهرس

الفصل الأول..... ١
موقع شبه الجزيرة العربية الجغرافي
وأوضاعها الاجتماعية و السياسية
قبل الإسلام ١
موقع شبه الجزيرة الجغرافي ٣
التقسيمات الجغرافية ٧
المنطقة الجنوبية ودولها ٩
سقوط السبئيين وظهور
الحميريين ١٢
حكومات شمال شبه الجزيرة ... ١٦
تدمر مكان البتراء ١٧
تدمر ١٧
التغيير في الجنوب ١٨
الغساسنة ١٩
اللخميون أو المناذرة ٢٠
سكان البادية ٢١
الدين والمعتقدات ٢٨
القانون والدين في مكة ٣١
مكة واكتسابها للمركزية ٣١
الفصل الثاني ٣٦
ظهور الإسلام..... ٣٦
طفولة النبي وشبابه ٤١
حرب الفجار..... ٤٢
حلف الفضول ٤٣
الزواج من خديجة ٤٤
نصب الحجر الأسود ٤٥
الرسالة..... ٤٥
ظهور الإسلام..... ٤٦
اعتناق حمزة للإسلام ٥٦
معوقات بلا نتيجة ٥٦
الهجرة إلىٰ الحبشة ٥٨
اعتناق عمر للإسلام..... ٥٩
حصار بني هاشم ٦٠
موت أبي طالب وخديجة ٦١
الإسلام في المدينة ٦٣
مؤامرة دار الندوة..... ٦٦
النبي في المدينة ٦٧
أول قانون عام في الإسلام ٧٠
تآخي المهاجرين والأنصار ٧٣
الحكومة المرتكزة علىٰ الدين ... ٧٤

المنافقون واليهود ٧٥
تغيير القبلة ٧٧
الفصل الثالث ٧٩
شروع الاشتباكات ٧٩
النزاع مع مكة ٨١
غزوة بدر ٨٥
الصراع مع اليهود ٨٧
معركة أحد ٨٧
المتآمرون ٩٤
سرية أبي سلَمَة ٩٤
حادثتا الرجيع وبئر معونة ٩٥
طرد يهود بني النضير وترحيلهم .. ٩٦
الحرب مع غطفان ٩٧
غزوة الخندق ٩٨
الفتح المبين أو صلح الحديبية .. ١٠٥
معركة خيبر ١٠٦
زيارة بيت الله الحرام ١٠٧
غزوة مؤتة ١٠٧
فتح مكة ١٠٩
معركة حنين ١١١
غزوة تبوك ١١٣
توحد شبه الجزيرة العربية ١١٤
الأنبياء المزيفون ١١٥
حج النبي الأخير ١١٦
وفاة النبي ١١٨
الفصل الرابع ١١٩
الخلافة بعد النبي ١١٩
خلافة أبي بكر ١٢١
بداية المشاكل ١٢٣
المرتدون عن الدين ١٢٦
الإسلام في إيران ١٢٩
التقدم في الشمال والغرب ١٤٤
أسباب النصر ١٤٦
فتح مصر ١٤٨
اتساع الانتصارات وظهور المصاعب ١٥٠
خلافة عثمان ١٥٦
١.امتحان المنصب ١٦٠
٢.امتحان المال ١٦٣
خلافة علي ١٧١
الفصل الخامس
النظام الإسلامي بعد شهادة علي ١٧٩
ما الذي كان الخوارج يبغونه في الحقيقة؟ ١٨١
ردود الأفعال الناتجة عن شهادة علي ١٨٩
العثمانيون ١٩١
الشيعة ١٩١
الخوارج ١٩٤
الانتهازيون ١٩٤
المنطقة الشرقية ١٩٧

الكوفة بعد شهادة الإمام علي .. ١٩٧
الفصل السادس..... ٢٠٧
الأمويون..... ٢٠٧
تبني معاوية لزياد أخاً ٢١٧
زياد في الكوفة ٢١٩
تشدد معاوية في معاملة شيعة علي ٢٢٥
مطالبة الإمام الحسين بالبيعة ٢٣٢
وضع ولايات شبه الجزيرة ... ٢٣٤
رسائل العراق..... ٢٣٧
توجه الحسين إلىٰ لعراق ٢٣٨
فاجعة كربلاء وآثارها ٢٤٠
تهديم الكعبة ٢٤٧
توّابو العراق..... ٢٤٩
الفصل السابع..... ٢٦٠
المروانيون ٢٦٠
الحجاج في الكوفة ٢٦٧
الوليد بن عبدالملك ٢٧٦
سليمان بن عبدالملك ٢٧٨
عمر بن عبدالعزيز..... ٢٧٩
مشكلة الموالي وحلها من قبل عمر بن عبد العزيز..... ٢٧٩
يزيد بن عبدالملك ٢٨٣
هشام بن عبد الملك ٢٨٤
الوليد الثاني ٢٨٨
دراسة وتحليل عن حكم الأمويين ٢٩٢
وضع اللغة في الدول المفتوحة . ٢٩٦
النِّحَل ٢٩٨
الإسلام في البلدان المفتوحة في العهد الأموي ٣٠١
العلوم في ذلك العصر..... ٣٠٢
الشعر والأدب حتى نهاية العهد الأموي ٣٠٣
النثر العربي..... ٣١٣
العمارة والمهن الأخرىٰ ٣١٤
قائمة المصادر ٣١٦
١. الكتب..... ٣١٦
٢. المقالات ٣١٩